المعرفة 121

العدد ١٢١ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ مايو ٢٠٠٥م

نموذج أوروبي
«تعليم التاريخ»
بدون شوائب!



سعدون الدليمي :
«التنويم
الاجتماعي»
أنتج الإرهاب

«IX» يرفع
درجات الطلاب
ويخفضها

التسامح.. القوة المنسية

بالحب .. يحيا الإنسان

يحيا بحب الله الذي فطر الإنسان على الحب: الله الذي لا تعادل لذة حبه لذة - وبحب الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا لتعليم الناس الحب .. وبحب الوالدين: سبب الوجود ومحضنه الحاني .. وبحب الزوجين: بعضهما بعضا .. وبحب الأولاد ريحانة الحياة وزينتها - وبحب جميع الناس من خلال إرادة الضياء والسعادة لهم .. وبحب العلم والمعرفة اللذين ينيران العقل والقلب .. وبحب العمل الذي يعمر الحياة ويصلحها .. وبحب الجمال في السمع والبصر والذوق والشم واللمس .. وبحب الذات عن طريق الترقي الدائم بها - وبحب المرح الذي يجدد النفس لتستعد لحب جديد .. وبحب الحب نفسه: كونه عماد كل علاقة متينة حلوة المذاق في العقل واللسان والبيت والمؤسسة والوطن والعالم.

الركابي

زين العابدين الركابي
كاتب ومفكر إسلامي

المعرفة

مجلة شهرية تصدر عن
وزارة التربية والتعليم
المملكة العربية السعودية
تأسست عام ١٣٧٩ هـ في عهد وزير المعارف صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز
وأعيد إصدارها عام ١٤١٧ هـ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز

العدد (١٢١) - ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ - مايو ٢٠٠٥ م

إدارة النشر



ردمد: ١٣١٩-٦٢٠٠

البند الأول: المواد المنشورة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي وزارة التربية والتعليم.

البند الثاني: تبويب الموضوعات والمقالات في هذه المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

التسامح هو جزء من جهاد النفس التي هي ميالة لقولها ورأيها وفعلها مجبولة على ذلك التعصب لأشيائها. وجهاد النفس أعلى مراتب الجهاد وأيضًا أغلى مراتب التحضر والتمدن، فحين تكبح جماح نفسك للتوقف أمام فكرة جديدة ومختلفة التوجه والمنشأ فأنت تدرب النفس الأخرى على أن تتوقف هي أيضًا أمام نفسك ولنفسك، لتناقش فيها مواطن الجمال والإيجابية، وهذا دليل كبير على حبك لنفسك. نعم التسامح صفة لها حجم معين ومساحة معينة فلا إفراط فيها حتى تصل إلى «التسالخ» أمام الآخر، ولا تفريط فيها حتى تصل إلى «التشامخ» على الآخر. ومهما كانت الحالة فإن الآخر جزء من الكون يساوينا في كمية الوجود وكثافة التفكير لا يحق لنا أن ننقصه ولا يحق له أن ينقصنا، فلنعود أنفسنا «حب أعدائنا».

عندما قررنا في «المعرفة» وحين أغرتنا حمى المسابقات التي وصلت حتى إلى «البقالات» قلنا لماذا لا تكون مسابقتنا عن «التسامح» في تاريخنا وتراثنا الإسلامي، ذلك المبدأ الذي دكه تسارع الزمن وتسارع النفس، فكدنا نقع في خطأ فادح لو لا أن أضفنا «التسامح» في التراث والتاريخ البشري الغربي كجزء ثان للمسابقة، ذلك أنه جزء ثان في الوجود لا نقوى بخسه أو إقصائه. هذه المسابقة التي تعرضت رغم «فرحتنا» بأسماء جدد من الأصدقاء من كل أصقاع العالم العربي والإسلامي -نقول - تعرضت في فحصها وفرزها وإقرار نتائجها إلى «لا تسامح» مقصود ومرغوب في مثل هذه الجوانب يحقق العدل والمقارنة الموضوعية. الملف الشهري أيضًا خصصناه لإضاءات عالية الوقع على هذا «التسامح» الذي يجمع الكون ويفرق «البون» بين الإنسان وأخيه محاولين أن نقول مع كرتنا الأرضية الصابرة.. تسامحوا ليعلو البناء ونهزم الغباء. المعرفة

المراسلات

باسم: رئيس التحرير

ص.ب ٢٣٠٠٠٧- الرياض ١١٣٢١

هاتف: ٤٠ ٤٠ ٤١٩ فاكس: ٤٧ ٤٧ ٤١٩

فاكس مجاني: ٢٢٧٧ ١٢٤ ٨٠٠

Letters should be sent to
Editor-in-chief
P.O.Box: 7 Riyadh 11321
Tel: 419 40 40 Fax: 419 47 47
Free Fax: 800 124 2277
info@almarefah.com

الأسعار

السعودية ١٠ريالات، الإمارات ١٠ دراهم،

الكويت ٨٠٠ فلس، قطر ١٠ ريالات،

البحرين ١٠٠٠فلس، سلطنة عمان ١٠٠٠بيسة،

اليمن ١٢٥ ريالاً، سوريا ٦٥ ليرة،

الأردن ١,٢٥دينار، لبنان ٣٠٠٠ ليرة،

مصر ٥ جنيهات،السودان ١٥٠ دينارًا ،

المغرب ١٥ درهمًا.

الاشتراكات

سعر الاشتراك داخل السعودية للأفراد (١٠٠) ريال

وللمؤسسات (٢٠٠) ريال.

سعر الاشتراك للدول العربية ٥٠ دولارًا شاملاً أجرة البريد.

سعر الاشتراك للدول الأخرى ٦٠دولارًا شاملاً أجرة البريد.

للاشتراك

الرياض: هاتف: 4727846-4727858

فاكس مجاني: 8001242277

Subscriptions@rawnaa.com

للإعلان

الرياض:4727792 . 4785322 . فاكس: 4727818

Advertising@rawnaa.com

روناء للإعلان والتسويق

ص . ب 26450 الرياض 11486

التوزيع

الوطنية للتوزيع

التسامح..
القوة الناعمة..

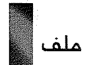


ليس منا إلا قلة قليلة لم ترسم في فزة صباها أو في سني المدرسة الأولى قلبًا للحب أو زهرة ناهضة العود واللون في كراريسها أو في ورقة سائبة تخبئها عن الآخرين سواء في البيت أو في المدرسة أو في الحي، لكن السؤال المنسي: لماذا كنا نخبئها عن الآخر رغم أنها لا تمس محرمًا أو تخدش حياء، ولماذا كان الأب والأخ الأكبر والمعلم ينهروننا على هذه الأشياء الرقيقة بدل أن يتسامحوا مع الفكرة ويفرشوا لنا الابتسامة والتصفيق. هذا السؤال الصغير / العينة بشقيه لماذا نخبئ رسوماتنا؟ ولماذا ينهرنا الأكبر منا على شيء جميل فيما لو تمعنوه جيدًا؟

سنجيب عنه في هذا الملف ولكن بأسئلة أكبر تخص السياق الأكبر لمثل هذه المصغرات التفصيلية في حياتنا. في هذا الملف - عزيزنا القارئ - ستلحظ أن المشاركين فيه أوردوا آيات من القرآن الكريم وأحاديث وقصصًا من السنة النبوية الشريفة تأمر بالتسامح بل وتقدم الرحمة والعفو على العدل ليظهر السؤال الصغير السابق بصورة أكبر: لماذا كل هذا التشدد والتشكك في الآخر وفي القادم إلينا من إنسان مثلنا، ونحن أولى كمسلمين بمد أيدينا غير المدنسة تاريخيًا للآخر مرطبة بالتسامح ما دام هؤلاء القادمون لم يتجاوزوا الحد المسموح به من جزئيات الحوار والتفاعل وأيضًا المشاورة والاقتراح؟ هل لأن هذا الحد المسموح به يختلف بعده من فكر مسلم إلى آخر ونحن تحت لواء كتاب واحد، فنحتاج إلى تسامح بعضنا مع بعض أولاً؟

أم أن التسامح يحتاج إلى طاقة حضارية عالية المخزون لا تتوافر لدينا في الوقت الحالي؟ أم أن السياسة بجبروتها الأعمى أرادت ذلك وأخفت هذا المبدأ الإسلامي الأصيل في أحد معاطفها المدنسة خوفًا من مستقبل يفلت من رباطها الحاز جدًا؟

نؤمن أن الحوار ومسامحة المختلف عنا أصبحت ضرورة وفرضًا في عالمنا الذي انقلب إلى «قرية» تتداخل فيها أصواتنا وأفكارنا ومعتقداتنا وليس منّة أو فضلة نبذلها للآخر، ونؤمن أن التسامح أيضًا ليس كلمة أو شعارًا تتحقق بالرغبة والنصح والارشاد فقط بل هو مخرج وثمرة لمنظومة ضخمة طويلة من السلوكيات الاجتماعية والثقافية التي ينتظم بها مجتمع ما، ويجب أن نؤمن أيضًا أن الآخر بتنوعاته اللينة والمتشنجة له حق المعيشة والتفكير والاقتراب منا والابتعاد عنا على هذا الكون بعد أن سقطت حوائل الجغرافيا، فلا يجب نفيه أو نسفه كموجود مادي أو غير مرئي حتى نسير سوية بالعالم المسلمين أمانته جميعًا إلى بر الأمان وهدأة السلام ومن ثم البناء والمعامرة لا «المؤامرة». نعم نستطيع بائتلاف الاختلاف أو التسامح (القوة الناعمة) أن نري الآخرين ما لدينا من كنوز وجمال بكل هدوء وأن نجبرهم أقوى من الرصاصة الغليظة والكلمة الغليظة. في ختام الملف أيضًا ننشر أسماء الفائزين بمسابقة المجلة عن «التسامح» مهنئين لهم كسبهم المعرفي وفوزهم المادي و«ليتسامح» من لم يفز معنا فنحن نعرف مثلما يعرفون أن الفائز الأكبر هو عالم المعرفة والحب والمودة التي تجمع فائزنا مع خاسرنا.



الحوار المتسامح:

إستدراك على قصور الاجتهاد

عبدالكريم بكار* - الرياض

*كاتب ومفكر سوري

استقر في الخبرة البشرية أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم دون قيام كل واحد من الناس بتحديد المجال الخاص به والذي يجد فيه ذاته، ويدافع من خلال الدفاع عنه عن كيانه ومصالحه. وربما كان هذا المستخلص الثقافي نابعًا من مستخلص آخر، هو أن طبيعة اجتماع الناس بعضهم مع بعض، تولد التوترات والمنازعات بسبب اختلاف الأفهام والأمزجة والمصالح.. ومن هنا فإن رسم المجال الخاص على جميع الأصعدة والمستويات يساعد على توفير أساس لاحترام الحقوق والواجبات وتوضيح ما هو مجال للنفوذ الشخصي، وما هو من قبيل ما هو متاح للتداول والاستخدام العام.

ما لا يستطيع بنو آدم الفكاك منه هو (القصور الذاتي) الذي يطبع كل منجزاتهم، ويولد لهم بالتالي ما لا يحصى من الالتباسات والإشكالات. ومن هنا نشأت فكرة (الاستدراك) على الأعمال السابقة ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه في الكثير من الشؤون المختلفة. أعمال البر والإحسان تشكل نوعًا من الاستدراك لقصور النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، إنها كرة أخرى على صعيد استعادة أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية المنقوصة. التسامح الذي يعني التساهل واللين في التعامل مع الآخرين وفي رؤية الأحداث والمواقف - هو الآخر يشكل نوعًا من الاستدراك، إنه استدراك على قصور نظم الدلالة والفهم والتفسير، واستدراك على قصور التعريفات وغموض المصطلحات واستدراك على القصور في تحديد المفاصل في كل الأشياء ذات الأوساط المتغيرة.

من هذا المنطلق فإن التسامح لا يعبر عن النبل والكرم الذاتي بمقدار تعبيره عن الحاجة والضرورة. والمواقف التي ينقصها التسامح والتنازل والملاطفة، لا تفقد شيئًا كماليًا من قبيل الزخرفة، وإنما تفقد شيئًا بنيويًا، لا يشعر بالاستغناء عنه إلا من أصيب بقصر النظر وفجاجة الإدراك. إن الإحساس المترهل تجاه قضية التسامح نابع من الظن بأن التسامح عبارة عن تبرع نجود به في حالة التعامل مع أشخاص أشرار أو التعامل مع مواقف عدوانية أو مواقف تفتقر إلى اللباقة أو الكياسة الاجتماعية. وأعتقد أنه قد آن الأوان لتغيير هذه النظرة، والصيرورة إلى رؤية تجعل من التسامح أمارة على وضع الأمور في نصابها وعلى السير في الاتجاه الصحيح. ولعلي أقف مع مسألة التسامح الوقفات الآتية:

❖ لا نستطيع أن نتعلم (التسامح) من خلال قراءة كتاب أو سماع محاضرة. كما أن التسامح لا يشكل مجموعة مواد نضعها في مقدمة دستور ونحاول التقيد بها. إنه شيء أكبر من ذلك وأعمق. إن التسامح شيء يسري في أعماق نظم التفكير والتعبير السوي، وشيء نتعلمه بطريقة لا واعية من خلال العيش في بيئة ثقافية تنظر باحترام وتقدير إلى الظروف الصعبة التي يمر بها الآخرون، كما تأخذ بين الاعتبار طبيعة المشكلات التي تخترق نظم التواصل الاجتماعي ونظم إدراك الأشياء والتعبير عن الذات والحقوق والرغبات.

ومن هنا فإن التحدي الذي يواجهنا هو النجاح في تأسيس تقاليد ثقافية تجعل من التسامح أسلوب حياة.

الإسلام حدد لنا المنطلقات وأرسى لنا القواعد التي تمكننا من العمل على هذا الصعيد بكفاءة، وذلك على مستوى الأحكام وعلى مستوى الآداب. ومن الآداب والتوجيهات والأحكام والتعليمات تتكون البيئة المتسامحة التي تتنفس فيها الأجيال الجديدة. على صعيد التوجيهات والآداب نجد العديد من النصوص

التي تؤسس لأرضية مشتركة يقف عليها كل المسلمين سواء أكانوا من الملتزمين بتعاليم الإسلام أم كانوا من المفرطين ببعضها أو بكثير منها. ومن تلك النصوص قوله سبحانه: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير﴾ (سورة فاطر: ٣٢،٣٣). إن من زادت سيئاته على حسناته، ومن استوت سيئاته مع حسناته، ومن زادت حسناته على سيئاته - إن أولئك جميعًا ممن أورثهم الله الكتاب، واصطفاهم على غيرهم من الناس بما هداهم له من التوحيد والإيمان. وفي هذا من جمع كلمة المسلمين وقطع أسباب الخصام بينهم ما لا يخفى. ومن وجه آخر فإن القرآن الكريم يغني روح التسامح من خلال توجيه المسلم إلى التخلق بخلق الصفح ومقابلة السيئة بالحسنة، كما قال سبحانه: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (سورة فصلت: ٣٤). إن دفع العدوان بالإحسان ومقابلة الإساءة بالحلم من الأمور الجوهرية في توليد المشاعر الجميلة، حيث يتحول المعادي إلى صديق حميم. ونجد في الحقيقة الكثير من الآداب والأخلاق التي تحول بين أبناء الأمة الواحدة وبين الانجرار إلى الاحتراب والاقتتال الداخلي، وذلك بسبب ما تشيعه من خلق التحمل والتنازل وتقدير مشاعر الآخرين وظروفهم وطريقة فهمهم للأشياء.

ومن تلك الآداب والأخلاق:

- تحريم الغيبة والنميمة وشهادة الزور.
- إشاعة التحابب والتوادد بين الناس.
- الإرشاد إلى التيسير والتبشير والابتعاد عن التنفير والعسير.
- الحث على كظم الغيظ ومعالجة الغضب.
- حفظ الحقوق المالية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل.
- النهي عن الحسد والتجسس.
- الأمر بالرفق في الأمور كلها.
- النهي عن الغمز واللمز والسخرية.
- الأمر بإصلاح ذات البين عند وقوع خلاف.
- إشاعة الخير ومحاصرة الشر بالحكمة والموعظة الحسنة.
- التماس العذر للمخطئ، وحمل الكلام الذي لا يعجبنا على أحسن الوجوه.
- الأمر بالعدل عند الحكم.

إن التحلي بنصف هذه الآداب والامتثال للجوهري من هذه التوجيهات كاف لبناء أجواء التسامح والتعاطف والتآزر في المجتمعات الإسلامية، وهذا ما تدل عليه شواهد التاريخ ودلالات الحاضر.

أما على مستوى الأحكام فليس في شريعة الإسلام ما يشق اعتقاده أو عمله فالتكليف دائمًا ضمن الوسع والطاقة، وهناك مبدأ عام يسري في كل التكاليف، وهو رفع الحرج، كما أن وجود المشقة كثيرًا ما يكون سببًا في وجود الرخصة على ما هو معلوم ومشهور. وهناك إلى جانب هذا احتياط شديد في مسألة إقامة الحدود. ومبدأ الستر على المسلمين مبدأ واسع التطبيق، كما أن التوبة والاستغفار باب واسع من أبواب التسامح والسهولة.

❖ إن كثيرًا من الأحداث التي تقع هنا وهناك، يفتقر إلى التسامح بسبب العزلة الشعورية القائمة بين أصحاب الأديان والمذاهب والاتجاهات المتباينة وبسبب وجود الشك وعدم الاطمئنان وعدم الثقة، مما يحول الناس المختلفين إلى كتل بشرية صلدة،



ليس لها هم سوى الخصومة والغلبة ولي الذراع.. ومن هنا فإن القرآن قد وجه المسلمين إلى معاملة غير المسلمين بالبر والقسط والإحسان ما داموا لا يحاربون الإسلام، على نحو ما نجده في قوله سبحانه: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (سورة الممتحنة: ٧ - ٩). ويقدم النبي صلى الله عليه وسلم نموذجًا شديد الوضوح في التعامل مع أهل الكتاب، فقد أخرج البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام استلفه لأهله منه. وعند البخاري أيضًا أنه كان صلى الله عليه وسلم يزور غلامًا يهوديًا مرض في المدينة، وكان ذلك الغلام يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وزاره مرة وقد مرض الغلام مرض الموت، فدعاه إلى الإسلام ليشفع له يوم القيامة. فنظر الفتى إلى والده، كأنه يستأذنه فقال له والده: أطع أبا القاسم. فأسلم الغلام قبل أن يموت، وفرح بذلك رسول الله فرحًا شديدًا، وتهلل وجهه كأنه البدر. وحين مرت جنازة ليهودي وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف معه الصحابة، ثم قال أحدهم - كما ذكر البخاري - إنها جنازة يهودي (مستكثرًا وقوفه لها ولاسيما أن اليهود حاولوا اغتياله ووقفوا مع قريش يوم الخندق...) فرد صلى الله عليه وسلم على الصحابي قائلاً: أليست نفسًا؟! وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير، وهم يهود كان قد سكنوا المدينة. إن هذه المواقف وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن الإسلام دين يؤسس للتعايش السلمي بين البشر، ويؤكد أسباب التفاهم ولاسيما بين أبناء الوطن الواحد ولو اختلفت مشاربهم ومذاهبهم، فهناك شيء مشترك تجب المحافظة عليه، وهناك مسير مشترك يجب الاهتمام به.

❖ حين نقف موقفًا متسامحًا، فإننا نشعر أننا ضعفاء، ونشعر أننا نقف على أرض هشة، كما أننا نسمح للآخرين أن ينظروا إلى تسامحنا على أنه

من خلال الحوار نمحص الفكرة بالفكرة ونمنح الأفكار امتدادات جديدة، كما نحرم بعض الأفكار من امتدادات غير مشروعة. كما ينطوي الحوار على التسامح، لأنه ينطوي على اعتراف ضمني بالقصور، ويحدّ من غلواء الاعتداد بالذات. وهذا هو الذي يرسخ لدينا مشاعر الحاجة إلى الآخرين

نوع من الضعف أو الخوف أو عدم الاهتمام. كما أن التسامح قد يؤدي إلى بروز الفرق الشاذة والأفكار المنحرفة، ويشجع بعض الناس على الخروج على الإجماع الثقافي إلى حد وجود مواقف تقترب من الخيانة للهوية. كل هذا متوقع الحدوث، بل كثيرًا ما يحدث. هذه المخاوف تشكل في الحقيقة حافزًا من أقوى الحوافز على عدم التسامح، وعلى الصيرورة إلى التشدد والحذر الزائد مع الذين نختلف معهم في أمور قد نظن أنها جوهرية. وأود في هذا السياق أن أوضح الأمور التالية:

- تدل تجربتنا التاريخية أنه لا بد أن يكون للتسامح حدود، فهناك دائمًا خطوط حمراء لا يصح تجاوزها. ولا يصح لمبدأ التسامح أن يتحول من مبدأ لنشر الوئام والتفاهم إلى أداة لإثارة الفتن وإعطاء المسوغ لأهل الغلو بالقيام بأعمال عنيفة وغير حكيمة. وأعتقد أن كل الأمم تتفهم مثل هذا المبدأ، وتعمل به. ولكن تجربتنا التاريخية تعلمنا شيئًا آخر، هو أن السلطة تملك دائمًا الإغراء باستخدام القوة في رسم الخطوط الحمراء عوضًا عن بناء القناعات عن طريق الحوار والجدل والتثاقف. وهذا في الحقيقة شكل من أشكال خيانة القوة للذين يملكونها.

- نحن - وكذلك غيرنا - نعيش في وسط غير كامل. وحين يعيش الإنسان في وسط غير كامل، فليس من حقه انتظار الوصول إلى حلول كاملة. لن نستطيع

من خلال التسامح تحقيق ما نصبو إليه من وحدة الكلمة، كما أننا لن نصل إلى ذلك عن طريق الضغط والإكراه. المقصّي والمنفي عن طريق القوة، يجد دائمًا الفرصة - ولو بعد حين - للظهور في صورة انفجار، يذهب بالصالح والطالح، ويضطر المجتمع بذلك لأن يبني توازناته، ويعيد ترتيب أوراقه من نقطة الصفر.

أما التسامح فإنه يمنحنا الفرصة لإصلاح الخلل على سبيل التدرج وفي إطار تبادلات ثقافية هادئة. حين يكون المرء على حق وعلى ثقة جيدة بتوجهه فإن تسامحه مع المخالفين يشكل دليلاً إضافيًا على صحة ما هو فيه، حيث يرى الناس آنذاك سقم الآراء التي تسامح معها. وقد كان (توما الأكويني) يقول: إن الكنيسة الكاثوليكية تستفيد فائدة حقيقية من ترك اليهود يمارسون شعائرهم لأن هذه الشعائر في نظره هي بمثابة شهادة حية على صحة الديانة المسيحية.

- لا يكتشف العقل البشري الأشياء إلا على سبيل التدرج، ولا تظهر حقيقة الشيء على نحو جيد إلا إذا اكتمل. والحقيقة الواحدة طبقات بعضها فوق بعض، وكلما ظننا أننا لامسنا آخر طبقة فيها برزت لنا طبقة جديدة، لتلقي علينا أسئلة جديدة. وفي كل حقيقة عنصر غيبي استأثر الله بعلمه.

والقصور الذاتي لنظم الدلالة اللغوية، يجعل فهمنا لكثير من الأمور ظنيًا، وقابلاً للتغيير والتبديل. لهذه الأسباب - وأخرى غيرها - يكون من المنطق



ومن الواقعية أن نحاول رؤية الأشياء من وجهة نظر الآخرين، وأن نعدّ تعدد زوايا النظر شيئًا مشروعًا في كثير من الأحيان. كلما زادت درجة التعقيد في المعطيات كان من المنهجية أن نزيد في درجة المرونة خلال المعالجة والتنظير. ونحن اليوم متفقون على أن أوضاعنا ليست على ما يرام، وأن لدينا الكثير من المشكلات الملحة. كما أننا متفقون على ضرورة القيام بإصلاح شامل وجذري على العديد من الصعد، لكن لأسباب موضوعية لا نستطيع تحديد الأولويات الإصلاحية كما أننا لا نستطيع تقدير حجم رأس المال الأخلاقي والعلمي والاجتماعي الذي نملكه والذي نحتاج إليه في عملية الإصلاح. وقل نحوًا من ذلك في الأدوات والأساليب التي علينا أن نستخدمها في ذلك. هذا يعني أن التسامح تجاه الوجهات الإصلاحية المختلفة لا يكون شيئًا من قبيل الإحسان، وإنما من قبيل الضرورة. قد كان علماؤنا القدامى يقولون في التعبير عن هذا المعنى: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب». وبما أن المجال الفقهي غني بالنصوص التي تؤطر المعالجة الاجتهادية فإن مجال تعدد الصواب يكون معدومًا أو ضيقًا. أما في مجال الاجتهاد الحضاري والإصلاحي فإن الأمر واسع، فإذا اجتمع خمسة من التربويين لبلورة خطة لإصلاح الشأن التربوي، فسيكون في إمكان كل واحد منهم أن يقول: ما أراه صواب يحتمل الخطأ. وما يراه غيري صواب يحتمل الخطأ. وقد يكون الصواب في حقيقة الأمر مع شخص سادس أو سابع خارج المجموعة. وقد يكون موزعًا على الجميع. ولهذا فإن التشبث بالمواقف كما يفعل من يملك الحق القطعي الذي لا شبهة فيه - لا يستند إلى رؤية موضوعية ولا إلى أساس متين من حسن النظر.

- من المهم دائمًا أن يعكس التعبير الذي نستخدمه في توضيح آرائنا ومذاهبنا طبيعية الظن والاحتمال الذي يخترق العمل الاجتهادي. وسنكون مطالبين ألا نندفع إلى استخدام تعبيرات تحمل درجة من القطع والوثوق، تأباها طبيعة المقدمات والمعطيات التي بنينا عليها رؤانا الإصلاحية. من المعروف في هذا السياق أن النصوص الشرعية في المجال السياسي قليلة جدًا إذا ما قورنت بما هو متوفر في مجال العبادات - مثلاً - مما يعني وجود أمداء واسعة للاجتهاد

والاختلاف وتباين الطروحات. وهذا يملي علينا أن نستخدم التعبيرات التي توحي بوجود رؤى شخصية، وأن نبتعد عن التعبيرات التي يفهم منها أننا نتحدث عن حقائق مطلقة أو مسائل بدهية أو قطعية. وقد عتب الإمام الجويني في كتابه (غياث الأمم في التياث الظلم) على الماوردي فيما صنعه في كتابه (الأحكام السلطانية) حيث إنه لم يراع هذا المعنى في طريقة صياغته وعرضه لمسائل السياسة الشرعية في ذلك الكتاب. إنه - كما يقول الجويني - ساق الظنيات في مساق القطعيات. وفي هذا تحميل للأمور أكثر مما تتحمل، وهذه ملاحظة ذكية جدًا، وآمل أن ننتفع بها في مجالاتنا اليوم.

❖ يصعب علينا أن نقول إننا نملك فضيلة التسامح إذا لم نؤمن إيمانًا عميقًا بجدوى (الحوار) في تحسين رؤيتنا للأشياء. حين نعتقد أن في كل المسائل الغامضة نقاطًا مظلمة، تحتاج إلى إضاءة، وأننا من خلال قدراتنا العقلية والمعرفية الخاصة، لا نتمكن من إضاءة تلك النقاط، فإننا سنسعى إلى الحوار بوصفه الأداة الوحيدة لتوضيح الصورة الذهنية لمعظم الأشياء وقد قال أحدهم بحق: «إن الأفكار لا تنضج إلا إذا لاكتها ألسنة المناظرة».

من خلال الحوار نمحص الفكرة بالفكرة والمقولة بالمقولة. ومن خلال الحوار نمنح الأفكار امتدادات جديدة، كما نحرم بعض الأفكار من امتدادات غير مشروعة. ينطوي الحوار على التسامح، لأنه ينطوي على اعتراف ضمني بالقصور، ويحدّ من غلواء الاعتداد بالذات. وهذا هو الذي يرسخ لدينا مشاعر الحاجة إلى الآخرين. وبمجرد توفر هذا الشعور يبدأ التنازل، وتبدأ حركة التأثير والتأثر. والشعور بالحاجة إلى الآخرين - من وجه آخر - يشكل شرطًا للاستفادة من الحوار. إن كل واحد منا مطالب بالإيمان بأن الحوار ليس شعارًا نرفعه، أو شيئًا تزيينيًا، نتجمل به، وإنما هو مصدر لتعبير الأفكار وتنمية الاتجاهات وإزالة الأوهام. سيكون الحوار مثمرًا إذا استطاع أن يوجد المزيد من الشك في أمور كنا ننظر إليها نظرة الموقن الجازم بما يرى وبما يذهب إليه. وإن الشك يولد بداية لامتلاك زمام المراجعة، في الوقت الذي يؤسس فيه للتسامح. ومن المفيد أن نتأمل في قول الله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سورة سبأ ٢٤). من الواضح أن الآية تشتمل على توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعو الكفار إلى المحاورة من أجل اكتشاف الفريق المهتدي من الفريق الضال. إن النبي لا يشك، ولا يشك المؤمنون معه كذلك أن الحق معهم، لكن هذه الدعوة من باب التشجيع على مراجعة الكلام وإثارة النقاش. إنه تسامح شديد الوضوح يتيح درجة من التكافؤ بين الرسول المعصوم والمبلغ عن ربه وبين أقوام لم ينالوا من العلم إلا أقل القليل. وقد قال بعض النحويين إن (أو) في الآية للتشكيك. إنها تساعد على إيجاد جو من الشك يشجع المعرضين عن الإسلام على الانفتاح من جديد على الدعوة المقدمة إليهم من خلال الإيحاء باستعداد المسلمين للانفتاح على ما لدى مخالفيهم. وهذا مثل قول الواثق من حجته لخصمه: أحدنا على الحق، أو أحدنا كاذب مع أنه لا يشك أنه صادق وأنه على الحق، لكنه التحفيز على الحوار وإعادة النظر.

❖ يسيء المتصلب والرافض للتسامح إلى نفسه وإلى دعوته ومنهجه من حيث لا يدري، حيث إن ذلك يكون غالبًا في حالة التمكن والشعور بالسيطرة.

ومن الواضح أن المعارضة في معظم الدول هي التي تدعو إلى الحوار بوصفه الخيار الوحيد الذي قد يمكنها من تحقيق بعض المكاسب. لكن الذين يملكون النفوذ يرون في الحوار مدخلاً لخسارة أشياء لا يصح التنازل عنها أو التفريط بها.

وحين نقرأ التاريخ بعمق نجد أن المتصلب والمفتقر إلى روح التسامح، يمنح خصومه جاذبية، لا يستحقونها، ويجعل منهم أمناء على تحقيق مصالح قد لا يكونون من الناحية العملية أهلاً للنهوض لها. حين يكون الأقوياء جديين في تأملاتهم ومواقفهم من منافسيهم فإنهم يحققون مكاسب مادية، أو يوفرون لأنفسهم شعورًا بالقوة والتماسك، لكنهم يخسرون ما كان في الإمكان تحقيقه من فتوحات فكرية وروحية. وتخسر الدعوة التي يحملونها والأفكار التي يؤمنون جزءًا كبيرًا من تألقها وقدرتها على الإثارة.

قد بعث نبينا عليه الصلاة والسلام بالحنيفية السمحة. وقال: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة». وقال: «خير الدين أيسره». فهل يليق بنا أن نكون شيئًا غير ذلك؟ ■



«التسامح» بوصفه..
أداة للإدارة الاجتماعية

هبة رؤوف عزت* - مصر

*قسم العلوم السياسية- جامعة القاهرة .

قيمة التسامح في الفكر الغربي الحديث كانت هي المخرج من الحروب الأهلية، تلك الحروب التي استمرت عقودًا بين المذاهب المسيحية فكان الحل هو تكريس التسامح الديني والتعايش (رغم أن هذا لم يتم مع المسلمين)، ثم ما لبث أن صار التسامح قيمة مدنية مناطها الحرية الفردية، وتقبل ممارسة الفرد لتلك الحرية دونما الالتزام بالقيم الدينية برمتها، منتظرًا أن يتم التعامل معه بتسامح أيًا كان ما يفعله ما دام لا يتدخل في حرية الآخرين حتى لو لم يكن له بهم صلة حقيقية سياسية، أو مدنية، أو اجتماعية.

والحق أن القيمة في ذاتها هي قيمة إيجابية الدلالة، لكن هذا لا ينفي كون لفظها مترجمًا عن المعجم اللغوي الغربي، لكن لأن المعاني القيمية متشابهة ومشتركة بين الحضارات ودلالاتها وسياقاتها تختلف يلزم العقل العربي العودة إلى كتابه الأم وهو القرآن الكريم لاستجلاء الحقل الدلالي واستكشاف الألفاظ التي استخدمها الفريقان للتعبير عن هذه المساحة من احترام الآخر وحفظ حقه في الاختيار والوقوف عند حدود خصوصيته وكفالة حقه في التعبير، وكذا سنة المصطفى ﷺ التي جسدت القيم القرآنية سلوكًا وخلقًا يوميًا.

بداية يجب أن نفهم أن منهج القرآن- الكامن خلف نصه- هو منهج يحترم العقل ويحترم خصوصية الفرد ولا يصادر الفكر المخالف ولو كان منطق الشيطان، أو الحجج الجدالية للكفر، فسجلها النص القرآني ليعلمنا كيف نفكر بشكل واع ونكون على دراية بكل حجة ومقال، وكيف نرد لا لفظًا فحسب بل أدبًا أيضًا، بل نمد الآراء على استقامتها ونفند أسسها، ولعل أوضح آية في الكتاب هي قول الله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾.

إخراج كل الآراء إلى النور حتى يميز العقل الخبيث من الطيب هو منطلق هذه الرسالة، والتسامح بضمان الأمن عند القول والجدل مبدأ يضمن ألا تؤدي المصادرة لإكساب الحجة الباطلة ثوب الضحية، فيتعاطف معها الناس رغم فساد أصلها، لأنها محرومة من أن يكون لها صوت، ومن منهج القرآن نتعلم أن الإسلام لا يضع على أفواه الناس كاتمًا للصوت، لكنه يطالبهم بحسن الأدب، فإن تخلى عنه المحاور واستهزأ فإن الرد لا يكون بضرب العنق ولا بقطع اللسان، بل بالتوقف عن المجالسة والحوار حتى يستقيم أسلوبه أو ينتقل إلى قضية أخرى كما ذكرت الآية ١٤٠ من سورة النساء.

لكن قضايا التسامح لا تنحصر في حرية الرأي، بل تمتد إلى السلوك الاجتماعي والسياسي، وهنا فإن التسامح يظل مناطه الجماعة والأمة لا الدولة والنظام ففي السياسة هناك عدل وقانون، إذا بلغ النظام خرقًا للعدل أو اعتداءً على القانون فلا يوجد مجال للتسامح، عندما يتم الاعتداء على العرض أو النفس أو المال، لذا كان الحديث النبوي «ادرؤوا الحدود بالشبهات» و«تدافعوا الحدود فيما بينكم» نصحًا للجماعة أن تعتبر الفعل مسؤولية اجتماعية مشتركة، كالتضامن في دفع الدية (العاقلة) في القتل الخطأ، والستر على الزاني، وغض الطرف عمن سرق ليسد جوعه والتسديد والمقاربة، بل تواتر عن رسول الله أنه أعرض عن «ماعز» حين جاء يعترف بالزنا، وأشاح بوجهه عنه، وشكك في عقله، وفي أكثر من مرة كان السارق يؤتى به للخليفة فيسعى للقيام بدور كانت الجماعة أولى به فيستجوبه ويقول «أسرقت قل لا !».

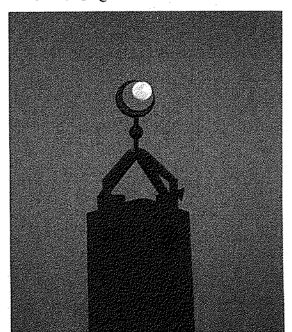
في التصور الإسلامي بين القانون وأجهزة الدولة والفعل الإجرامي مساحة من المناطق العازلة الاجتماعية التي تضمن الرحمة، وتتيح الستر وتحض على التوبة وتدافع الحد، إذا ما تجاوز فعل حدًا من حدود الله. فالتسامح الاجتماعي وتقديم التنازل والعفو المتبادل هو من دلائل رحمة الشريعة التي تتجاوز وتعلو، ومن هنا كانت مقولة الرحمة فوق العدل، والأصل فيها أن العدل فوق نص القانون، والجماعة فوق الدولة، بدون أن يعني

هذا استهانة بسيادة القانون وواجبات حفظ الأمن، وكما قيل: يجد للناس من الأقضية بقدر ما يحدثون من الفساد.

جانب آخر من التسامح في الإسلام هو ما عبر عنه الإسلام باعتبار أهل الكتاب أهل ذمة، فعلى الرغم من تفنيد عقائدهم ودحض مقولاتهم كفل لهم حرية العقيدة والعبادة، بل إن العهدة العمرية ـ نسبة إلى عمر بن الخطاب ـ ضمنت لهم تعليق صلبانهم ودق نواقيسهم، وهو ما يتأسس عليه ولاؤهم للدولة إن مكنتهم من دينهم وحفظت ورعت عبادتهم حتى في وقت الحرب.

لكن هناك بعدًا هامًا للتسامح في القرآن غاب في معظم الكتابات المعاصرة، وهو التسامح في المعاملات والتسامح في الأسرة، ففي المعاملات التجارية نص الحديث على التسامح في البيع والشراء تقديمًا للعلاقة الإنسانية على قيم السوق، وتهذيبًا لنفس المؤمن من التكالب على درهم أو دينار يزيد في الربح يدوس من أجله في تنافس شرس على قيم الأخوة، ودعا ألا يبيع بعضنا على بيع بعض، ورحم الله عبدًا سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى سمحًا إذا اقتضى، كما أن هناك حضًا واضحًا على العفو عن الدَّين والصدقة الخفية.

أما البعد الثاني فهو التسامح في علاقات النسب والزواج، وفي سورة البقرة أدب عال رفيع في التعامل مع قضايا الطلاق وفسخ العقد قبل الدخول بتسامح وفضل وتعفف عجيب عن المال، بل فرض الله التسامح مع الزوجة حتى إن كرهها الزوج، فأي تسامح وسماحة أكبر من حسن المعاشرة بالمعروف مع من قرر القرآن أن



الرجل قد يكرهها، لكنه عليه آنذاك أن يقرأ قوله تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم﴾، وقوله تعالى ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

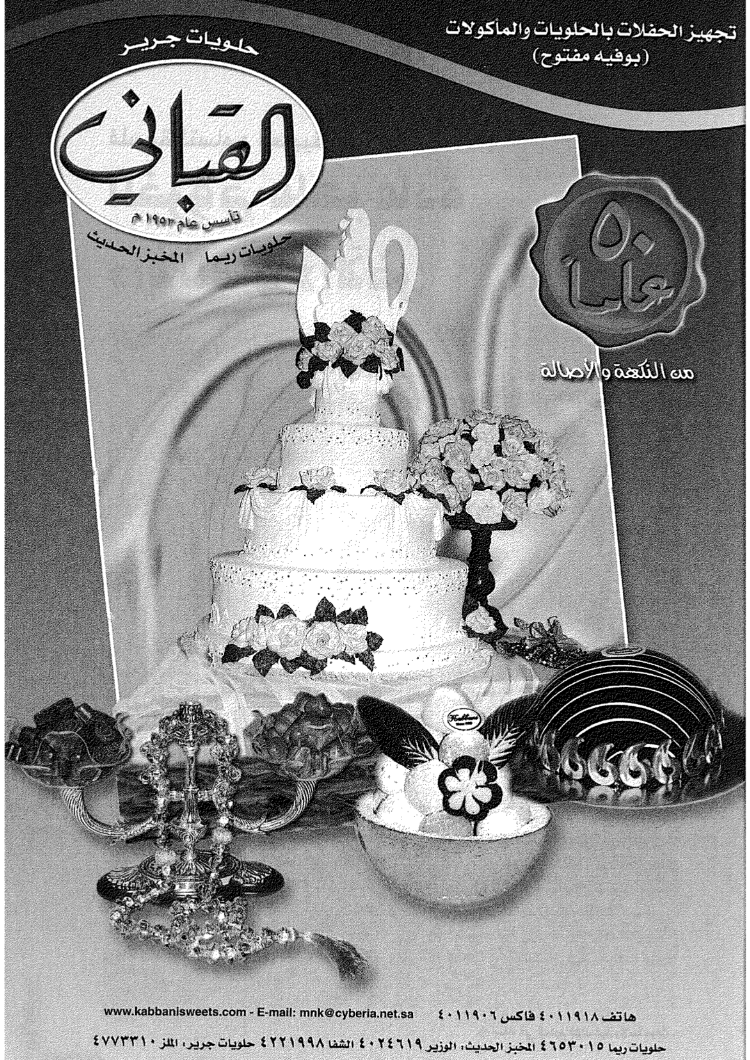
التسامح ليس مبدأ إسلاميًا فحسب، إنه أداة للإدارة الاجتماعية، وخلق يدخل في السلوك اليومي للمسلم في بيته وفي متجره وفي الطريق وفي كل دائرة يدور فيها، فقد عذر رسول الله بالجهل من بال في المسجد، وتحمل غلظة الأعراب وسوء أقوالهم، وأعرض عمن وقع في الكبيرة أملاً في توبته وسترًا للحرمات، وقد كان ﷺ أورع الخلق وأحرصهم على حدود الله، لكنه أراد ألا تتعلم الأمة التعالي بالطاعة بل تتراحم وترحم العاصي حين تورثه المعصية ذلاً وانكسارًا، فيسأل العبد الله العافية ولا يستكبر بالطاعة ويخفض جناحة رحمة بالخلق وجبرًا للضعف كما كان رسولنا قدوة الأمة يفعل مع أصحابه، بل رحمة وتسامح حتى مع أعدائه، وهل هناك تسامح أعلى من السؤال عن الجار المؤذي حين غاب أذاه، ثم على المستوى السياسي العفو العام يوم الفتح، لا ثأر ولا تنكيل بل رأس مطأطأة شكرًا لله ونفس سمحة تقبل الرجوع والتوبة، وتربية على العفو قبل أو بعد العقوبة، والرحمة قبل وبعد تسوية الخلافات، والترفع عن الحقد والحسد والغل، وكان من نصحه للمسلم وتنبيهه: «شركم من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة».

التسامح ليس قيمة اجتماعية فحسب بل هو من خلق الرسول ﷺ في عصر نسي فيه المسلمون أن خلق الرسول عليه السلام ملزم للأمة، وأن المعرض عن سنته في الفعل والترك والعفو لا خير في تمسكه بسنته في عادة زمانه، إذ قد استبدل المتغير بالثابت – والفرع بالأصل.

الرحمة والعفو والفضل والعدل هي الألفاظ القرآنية التي تعبر عما يسميه الغرب التسامح، حدد القرآن وأرشدت السنة أين ومتى وفي أي مساحات وبأية معايير نتسامح، حفظت الحقوق لكنها حضت على الرحمة وضمنت القصاص لكنها قدمت العفو، وقاست ووازنت العلاقات لكنها حثت على الإيثار والفضل، وأقامت قواعد السياسة على دستور أوضح العلاقة بين السلطات والقواعد التي تشتق منها القوانين، لكنها قدمت العدل على النص والناس على السلطان.

أشرف من تسامح وتسامى كبشر كان محمداً ﷺ، اقرؤوا سنته وكيف كان خلقه.. القرآن، كان سبيله الرحمة ومنهجه العفو ومقصده العدل وهذه هي قيم الشهادة على العالمين التي تجعل الإسلام منهج حياة ■

«التسامح» بوصفه..أداة للإدارة الاجتماعية



تجهيز الحفلات بالحلويات والمأكولات
(بوفيه مفتوح)
حلويات جرير
القباني
تأسس عام ١٩٥٣ م
حلويات ريما المخبز الحديث
٥٠ عاماً
من النكهة والأصالة
هاتف ٤٠١١٩١٨ فاكس ٤٠١١٩٠٦
www.kabbanisweets.com - E-mail: mnk@cyberia.net.sa
حلويات ريما ٤٦٥٣٠١٥ المخبز الحديث، الوزير ٤٠٢٤٦١٩ الشفا ٤٢٢١٩٩٨ حلويات جرير، الملز ٤٧٧٣٣١٠
الريان ٢٠٨٨٣٦٣ الورود ٢٦٤٨٥١٤ التخصصي ٤٨١٦٨٦٣ العروبة ٤٦٣٤٥٤٩
البديعة ٤٢٤٠٧١٧ الروضة ٤٩٣٤٣٧٢ النسيم ٢٣٤٢٩٧١



فلسفة التسامح العربية . .

الخروج على عادة «الأنا» و «الآخر»

ميثم الجنابي* - موسكو

* أستاذ في العلوم الفلسفية والإسلاميات .

«التسامح هو النسبة الضرورية في نظام السمو الإنساني».
إن إحدى القضايا الأكثر جوهرية بالنسبة للرقي الإنساني الحقيقي تقوم في كيفية ومستوى تأسيس الرؤية العقلانية عن التسامح، أي منظومة القيم القادرة على بناء التجانس الفعلي في كينونة الفرد والجماعة والأمة والثقافة والدولة تجاه النفس والآخرين. وهي مهمة يتوقف تحقيقها على مستوى تأسيس حقيقة التسامح. وبما أن التسامح هو شكل التعايش العقلاني للقيم، فإن مهمة تأسيس منظومة القيم وتعايشها الطبيعي تصبح الصيغة العلمية الضرورية للتسامح نفسه.

غير أن هذا التأسيس ليس فعلاً إراديًا محضًا، بقدر ما أنه يتراكم في مجرى صيرورة القيم بوصفها منظومة. بعبارة أخرى، إن لكل أمة وثقافة منظومتها الخاصة عن التسامح. وهو الأمر الذي يجعل من أكثر المنظومات القيمية تسامحًا جزءًا من معاناة الأمم نفسها. ومن ثم لا يمكن لأية منظومة مهما بدت راقية في تأسيسها العقلاني أن تكون قادرة على أن تكون منظومة كونية. وهو الأمر الذي جعل ويجعل من التسامح قيمة نسبية ومطلقة. بمعنى أهميتها المطلقة للثقافة القومية ونسبيتها بمعايير التجارب العالمية (التاريخية).

فقيمة التسامح تنبع وتتراكم في مجرى تجارب الأمة والثقافة القومية، من هنا نسبيتها بمعايير الرؤية العالمية. وليس مصادفة أن نرى في التاريخ القديم والمعاصر تسامحًا تجاه النفس والقيم الأخلاقية ومنهجيات العلم والعمل الخاصة، وعداء تجاه الآخرين. وهو واقع يدلل على صعوبة وعدم دقة الحديث عن تسامح مطلق. أما المطلق الوحيد هنا فهو القيمة المجردة للتسامح بوصفه النسبة الضرورية في نظام السمو الإنساني. وهي قيمة أقرب ما تكون إلى فكرة الواجب الأخلاقي أو المرجعية المتسامية.

فالثقافات الكبرى عادة ما تتراكم في صراع حاد وعنيف أحيانًا لترتقي إلى إدراك قيمة الخلاف والاختلاف بوصفهما أسلوبًا ومنهجًا للعلم والعمل. وحالما يتحول الخلاف والاختلاف إلى حق وحرية، يصبح التسامح أسلوبًا لترقيتهما في العلم والعمل. وفي هذا تكمن قيمته الفعلية بالنسبة للرقي

الإنساني في مختلف نواحي الحياة المادية والروحية. وليس مصادفة أن تصل الثقافات العالمية الكبرى في مجرى تطورها إلى الانفتاح الداخلي والخارجي، لأنها تدرك بفعل منطق التطور الروحي إلى ضرورة تجاوز الحدود التي تفرضها نفسية الغريزة، أو ما كانت الفلسفة القديمة تطلق عليه اسم القوة الغضبية. وهي الحالة التي تبلغها الثقافة المزدهرة عندما ترتقي في مدارج الإدراك الروحي للحقيقة القائلة إن التسامح في حقيقته هو منظومة التكامل الإنساني في دروب الحرية والنظام.

فعندما ننظر على سبيل المثال إلى الثقافة الإسلامية في مجرى تطورها التاريخي وازدهارها، فإننا نرى الانتقال التدرجي والتراكم النوعي في مواقفها من النفس والآخرين. بمعنى أنها مرت بدروب المعاناة الفعلية في قبول الخلاف والاختلاف وتحوله إلى «رحمة إلهية». وانتقال ذلك لاحقًا إلى مختلف مناهج العلم والعمل بحيث جعلت منهما أسلوبًا لترقي المعرفة العقلية والروحية. وارتقت بهذا الصدد إلى الدرجة التي جعلت من قبول إنجازات الأوائل والأواخر والتفاعل معها نموذجًا شاملاً، كما نراه على سبيل المثال في الموقف من الثقافات والأديان والأقوام (الأمم). ففي مجال الرؤية الثقافية ارتقت إلى مصاف تصنيف الأمم على أساس موقفها من العلوم والفلسفة، وفي مجال الأديان ارتقت إلى مصاف بلورة وصياغة نظرية التسامح الروحي في الموقف من الأديان.

وهو إقرار بالتنوع نابع من سموّ الروح، الذي يجعل القلب كيانًا قادرًا على التنوع في الصور واحتوائها في الوقت نفسه. حيث تتحول الإيمانيات والطبيعة وما فيها إلى تجليات للمحبة، باعتبارها سر الوجود، الذي يعطي لكل شيء معناه الخاص به، بوصفه نسبة في نظام المطلق. حينذاك يصبح الرجوع إلى النفس رجوعًا إلى معالمها المطلقة. وفي هذا تكمن ماهية الخروج على عادة «الأنا» و«الآخر» والتعارض بينهما. حينذاك يصبح التسامح معيارًا فعليًا للحق والحقيقة. وهي إحدى النتائج العظيمة التي بلغتها الرؤية الثقافية في عالم الإسلام.

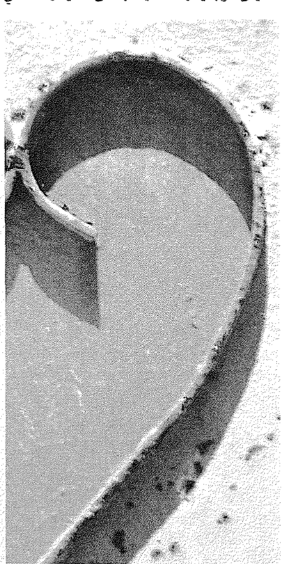
لكنها رؤية كانت تستند بأصولها وتستمد ديمومتها من معترك تاريخها الذاتي، أي أنها كانت تؤسس لفكرة التسامح مع النفس والآخرين بمعايير تجاربها الذاتية. وهي الصيغة الواقعية والعقلانية الوحيدة القادرة على إرساء أسس ثقافة التسامح. وذلك لأن ثقافة التسامح هي حصيلة معقدة ورقيقة للغاية تتوقف كيفية فعلها وردودها على منظومة القيم الكبرى السائدة. وهي منظومة سوف تواجه على الدوام القضايا الفعلية للتسامح من خلال الإجابة عن الأسئلة الواقعية المتعلقة بماهية التسامح، وكيفيته، ومادته؟ وعلى أي قواعد؟ وهل التسامح قاعدة أم مبدأ أم أسلوب؟ أم أنه من عيار آخر؟ وهي أسئلة كانت وما تزال وسوف تظل تقلق العقل والضمير الإنسانيين في سعيهما لتأسيس حقيقة التسامح.

فالواقع المعاصر يكشف بوضوح عن وجود تناقض في أشد الصيغ غلوًا في الدعوة للتسامح. إذ تصل في حالات عديدة منها إلى نوع من الابتزاز والإكراه والاستعلاء. وهي مظاهر تشير إلى حقيقة تقول، إن التسامح ليس قيمة مجردة عن تاريخ الأمم وتجاربها ومعاناتها في كيفية حل الإشكاليات الوجودية والميتافيزيقية (المادية والروحية) التي

ثقافة التسامح هي حصيلة معقدة ورقيقة للغاية تتوقف كيفية فعلها وردودها على منظومة القيم الكبرى السائدة. وهي منظومة سوف تواجه على الدوام القضايا الفعلية للتسامح من خلال الإجابة عن الأسئلة الواقعية المتعلقة بماهية التسامح، وكيفيته، ومادته؟

تشكل في كلها أساسًا ومنظومة تراكم وفاعلية القيم. وهو الأمر الذي يستحيل معه وجود صيغة عملية واحدة لقيمة التسامح. إلا أنها تصبح معقولة بمعايير الحاجة الإنسانية وتكاملها في حال تحولها إلى مرجعية روحية متسامية. ومن ثم مقبولة حالما يصبح معيارها هو التأسيس الدائم والمتطور للنسبة الضرورية في نظام السمو الإنساني (الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والحقوقي).

وفي ظروف العالم العربي المعاصر، كما هو الحال بالنسبة لظروف أية أمة معاصرة، يستحيل تأسيس قيمة التسامح الفعلي بوصفها نسبة ضرورية في نظام السمو الإنساني دون تأسيس مرجعياتها الذاتية. بمعنى تأسيسها الذاتي



استنادًا إلى تجارب الأمة الخاصة. فمن الناحية التاريخية والثقافية تمتلك الأمة العربية تراثًا إنسانيًا هائلًا في مجال تأسيس رؤيتها الخاصة عن التسامح. ولعل الإسلام هو نموذجه الأكبر. إذ لم تعن عالميته سوى تمتعه بالقيم القادرة على جذب وإشراك وتمازج وتكامل مختلف الشعوب والأقوام في حركة أممية واحدة استطاعت في غضون قرون عديدة إبداع إحدى أعظم الحضارات التاريخية الإنسانية. وفي مجرى تطورها الذاتي استطاعت أن تبدع منظومات علمية وعملية رفيعة المستوى من حيث تأسيسها لفكرة الحق والعدالة والانفتاح على علوم الأوائل والأواخر. والأهم من ذلك أنها استطاعت أن تنجز الفعل التاريخي الأكبر في تاريخ العرب، ألا وهو صهر تكوينهم في بنية ثقافية، أي إبداع أمة ثقافية (وليست عرقية) من حيث مقوماتها وغاياتها. وهي نتيجة تحتوي في أعماقها على تأسيس ذاتي للتسامح من حيث كونه فكرة ومبدأ وأسلوبًا وقيمة. وهو تأسيس ارتقى من الناحية النظرية والفعلية إلى أحد أنقى وأجمل مظاهره التاريخية والإنسانية. لكنه تحول بسبب الانقطاع الشامل والتجزئة الفعلية بين تاريخ الدولة والأمة والثقافة إلى فكرة كامنة وليست مقدمة فعلية. وهي فكرة قابلة للتفعيل في العالم المعاصر في حالة تجاوز مرحلة الانحطاط المادي والمعنوي شبه الشامل الذي تعانيه الأمة العربية الآن. وهي حالة غير قابلة للتذليل المادي والمعنوي بدون تأسيس منظومة خاصة للإصلاح الشامل. حينذاك يمكن لفكرة التسامح المتراكمة تاريخيًا في الثقافة العربية والإسلامية أن تصبح قيمة عملية فعالة تجاه النفس والآخرين. بعبارة أخرى، يستحيل تأسيس التسامح من حيث هو فكرة ومبدأ وقيمة دون تكامل وجودها المعاصر في كيان يستند بنيانه إلى وحدة الدولة الشرعية والأمة الثقافية والثقافة والعقلانية. وهي الصيغة الواقعية والعقلانية الوحيدة لتأسس فلسفة عربية عن التسامح قابلة للاندماج في منظومة التسامح العالمية والاشتراك الفعال في توسيعها وتعميقها وتحقيقها. ■



نهاية التسامح في الغرب!

أسامة إبراهيم - ألمانيا

أخطأ الغرب في فهم التسامح، عندما فتح أبوابه لاستقبال أناس لا يعرفون إلا لغة القنابل والمدافع، وقتل الأبرياء. وأخطأ عندما منح اللجوء السياسي لكل من صدر في حقه حكم بالإعدام في بلاده، حتى ولو كان مسؤولاً عن ذبح النساء والأطفال، كما كان يحدث في الجزائر. وكانت الحكومات الغربية ترد على تحذيرات العقلاء لها بأنها ستتعرض لما تعرض له الرئيس المصري السابق أنور السادات من اغتيال على يد من تحميهم، بأنها تطبق التسامح، الذي هو فضيلة مستمدة من الديانة المسيحية التي تقول في كتابها المقدس: «أحبوا أعداءكم!»، ولكن الغربيين لم يكتفوا بحب أعدائهم عن بعد، بل أسكنوهم معهم في نفس دارهم.

لكن الغرب لم يخطئ حينما أعرب عن احترامه للدين الإسلامي، وضمنت دساتير الغرب حرية العقيدة، ولم يخطئ حينما سمح ببناء المساجد في كل مكان، وبإعطاء ممثلي المسلمين الحق في الاشتراك في جلسات البرلمان، التي تتناول قضايا دينية، وبالتعبير عن أحكام دينهم في هذه المسائل، وبوضع المناهج التعليمية لتدريس أبنائهم وبناتهم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية، وخصص لهم مقابر إسلامية، وسمح الغرب بارتداء الحجاب الإسلامي، حتى تبرعت جهات عربية إسلامية، لتقول إن المسلمة ملزمة باتباع قوانين البلد الذي تقيم فيه، ومن حق كل دولة أن تصدر ما تشاء من تشريعات، ففرضت فرنسا على الطالبة المسلمة أن تخلع حجابها وإلا حرمتها من التعليم، غفر الله لمن ارتدى العمامة غير المفروضة في كتاب الله، وساهم في خلع الحجاب المنصوص عليه شرعًا!

مجتمع متعدد الثقافات

بعد أن حدثت تفجيرات مدريد في ١١ مارس ٢٠٠٢م، التي لقي فيها عشرات الأبرياء من الإسبان حتفهم، أصيب الكثيرون من الغربيين بصدمة، وتساءلوا: «فيم أخطأنا حتى نتعرض للقتل بهذه القسوة؟»، وحينما وقعت كارثة (بسلان) في مطلع سبتمبر ٢٠٠٤م، عندما احتجز مقاتلون شيشان مئات الأطفال في اليوم الأول من العام الدراسي، وبغض النظر عن صاحب الطلقات التي أودت بحياة مئات الأطفال، وهل القاتل جندي روسي أم مقاتل شيشاني فجّر نفسه ساعة هجوم القوات الروسية، وبغض النظر عن إجرام المحتل في الأراضي الشيشانية، فإن الغرب تساءل كيف يراهن إنسان فيه ذرة من الإنسانية والدين بأرواح هؤلاء الأطفال الأبرياء؟! وأخيرًا عندما قام مسلم هولندي من أصل مغربي في نوفمبر الماضي بإطلاق النار على المخرج الهولندي تيو فان جوخ، ثم ذبحه بالسكين، ثم استل سكينًا آخر غرسه في جسده، ليثبّت رسالة يوضح فيها بواعثه، عندها أعلن المثقفون في هولندا وخارجها أن الصورة الخيالية للمجتمع متعدد الثقافات أثبتت فشلها، ولم يعد لها وجود في الواقع.

لقد كان هذا التصور يقوم على تساوي الثقافات، سواء الثقافة المتأصلة في الغرب، أو الثقافات الواردة من الشرق أو الجنوب أو الشمال، فالثقافة الإسلامية،

أو الصينية، أو الإفريقية، أو اللاتينية، كان لها مكانها ومكانتها، وتوجد دور نشر ترعى كلاً منها، واحتفالات يعرض فيها أصحاب كل ثقافة ما يشاؤون، ودورات تعليم اللغات الأجنبية التي تنفق عليها الدول الغربية، لتشجيع مواطنيها الأصليين، وسكانها من المهاجرين، على التعارف والتقارب، والتسامح، والمحبة، والاحترام المتبادل. ولم تستطع مقالات صموئيل هانتنجتون، وكتبه وتلاميذه في الغرب، أتباع نبوءة صراع الحضارات، أن تنال من التعايش السلمي في هذا المجتمع المتعدد الثقافات، وحتى كلمات الإدارة الأمريكية التي نشرت البخور وأعلنت أنها مكلفة من السماء بنشر الثقافة الأمريكية، أو كما أسماها الرئيس الأمريكي جورج بوش في خطاب إعادة توليه فترة الرئاسة، «نار الحرية»، لم تقنع أحدًا. ولكن بعض البارود والأحزمة المتفجرة، كانت قادرة على إنهاء هذا الحلم.

حكاية الخواتم الثلاثة

مثلما نحفظ في بلادنا النشيد الوطني، وندرس المعلقات، وسيرة الصحابة، يتعلم التلاميذ في ألمانيا وغيرها قصة الأديب اليهودي جوتهولد إفرايم ليسينج، المعروفة باسم (حكاية الخواتم الثلاثة)، التي تقول إن أبًا كان يملك خاتمًا ثمينًا يجعل من يحمله محبوبًا من الناس ومن الله، ولما كان أبناؤه الثلاثة متساوين في طاعته وبره والإحسان إليه، خاف أن يتنازع أبناؤه الثلاثة على ملكية الخاتم الثمين بعد وفاته، فقرر أن يترك لهم هذا الخاتم الأصلي، وخاتمين آخرين غير أصليين، ولكنهما لا يقلان جمالاً عن الأصلي، حتى لا يكاد المرء يفرق بين الخواتم الثلاثة، وأعطى كلاً منهم خاتمًا على انفراد، حتى يظن أنه الوحيد الذي حصل على الخاتم الأصلي، ولم يخبر أبناءه بالحقيقة، ولم يعرّفهم أي الخواتم هو الأصلي، ولما مات الأب ظن كل منهم أنه الوحيد الذي يملك الخاتم، وحاولوا معرفة الفرق بينهم، ولكنهم فشلوا، وبمرور الأيام والسنوات، توصلوا إلى أنه ليس المهم أيّ الخواتم هو الأصلي، مادام صاحب الخاتم محبوبًا من الناس ومن الله.

وترمز الخواتم الثلاثة إلى الأديان الثلاثة، الإسلام والمسيحية واليهودية، وأراد الكاتب أن ينهي الفكر السائد في القرن الثامن عشر من كراهية أتباع كل دين لأتباع الدين الآخر، ويطالبهم بالتوقف عن الحرب والقتال بينهم عن أي الأديان هو الحقيقي، لأن كلاً من هذه الأديان، يؤكد أنه الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الله، وأن الطريقين الآخرين يؤديان للضلال في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

وبعد أن كان هذا النص لا يقل قداسة عن نصوص العهد القديم والعهد الجديد عند الغربيين، أعرب الكثير من المسيحيين بعد أحداث العنف الذي قام بها أشخاص، برروا أفعالهم – بهتانًا وزورًا- بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، عن رفضهم لهذه الحكاية، وقالوا هذا كلام ساذج، لأننا لو استبدلنا مثلاً بالخواتم الثلاث، أحبالاً ثلاثة، وقلنا إن أحدها فقط متين، والآخرين لا يتحملان الثقل، فإن تسلق الأبناء الثلاثة للجبال، بالاستعانة بالأحبال، سيؤدي إلى دق عنق اثنين، وبقاء صاحب الحبل الأصلي على قيد الحياة، وكذلك الحال للأديان، ماذا تفيد العقيدة الباطلة، يوم القيامة، وهل تنفع الصالحات إنسانًا، فسدت عقيدته؟ وبلغ الأمر



بأحد القسس أنه قال أنه يرى أن المسيحيين يجب أن يكونوا أكثر إقبالاً على الموت من الأشخاص الذين يفجرون أنفسهم، ودعا أتباعه للسفر إلى العراق، والوقوف أمام هؤلاء الانتحاريين، وإبلاغهم بأن أتباع الديانة المسيحية لا يخشون الموت، ومستعدون للقيام بالرحلة الأخيرة إلى العالم الآخر معهم، ولكن الأفضل أن يعتنق الانتحاريون الديانة المسيحية، لأنهم سيكونون أقرب إلى الرب، وسيتعلمون التسامح والمحبة، بدلاً من آيات الجهاد.

وكتبت صحيفة مرموقة بعد موت المخرج الهولندي لفيلم (خضوع) المسيء للإسلام والمسلمين، قائلة: «يبدو أن الأحداث أثبتت أن فان جوخ كان على حق في حديثه عن هولندا باعتبارها خط مواجهة في الصراع بين الحضارات، وأنه كان أول ضحية في المعركة الفاصلة بين القيم الغربية المتسامحة، وبين شريعة الغاب الإسلاموية، ويكفي أن نعلم أن آخر حادثة قتل سياسي جرت في هولندا كانت عام ١٥٨٤، باستثناء حادثة اغتيال السياسي اليميني المتطرف بيم فورتون، قبل عامين».

ولأول مرة في الغرب أصبحت الاعتداءات على المساجد والمدارس الإسلامية أمرًا متكررًا، ولم يعد السياسيون يخشون اتهامهم بمعاداة الأجانب، فطالبوا بأن تكون خطبة الجمعة باللغة الأصلية للدولة الغربية، بدلاً من العربية أو التركية أو الفارسية، خصوصًا بعد أن تبين أن هناك خطباء يجعلون من صلاة الجمعة، عيدًا أسبوعيًا لتفريغ شحنات الكراهية والمقت للشعوب الأوروبية، التي «لا تستحم ولها رائحة نتنة»، بل كان هناك من يعيش عالة على المجتمعات الغربية، يأخذ المساعدات الاجتماعية دون حياء، ويسكن في مساكن تدفعها له الدولة «الكافرة»، ويقبل العلاج المجاني على يد أطباء «كفار»، ثم يقف على المنبر ليدعوا عليهم بأن ييتم الله أطفالهم، ويرمّل نساءهم، ويسخطهم قردة وخنازير، ويخسف بهم الأرض دون غيرهم.

وبدأت إجراءات ترحيل أئمة التطرف، وحظر الكتب التي تنشر الكراهية لهذه المجتمعات الغربية، وسحب التراخيص من المدارس الإسلامية، وتعيين معلمي دين إسلامي، من الذين درسوا في جامعات غربية، وبشرط أن يكون تدريس الدين كمعلومات عامة، وليس بهدف ممارسة طقوس دينية، ولا تعميق

كما نحفظ في بلادنا النشيد الوطني، وندرس المعلقات، وسيرة الصحابة، يتعلم التلاميذ في ألمانيا وغيرها قصة الأديب اليهودي جوتهولد إفرايم ليسينج، المعروفة باسم (حكاية الخواتم الثلاثة)

عقيدة الإسلام في نفوسهم، وظهرت تجمعات تسعى لتسويق نفسها كمتحدث باسم المسلمين، ومستعدة لتقديم أكبر كم من التنازلات، وعاد أستاذ علوم سياسية سوري مسلم، يطالب الغرب بالدفاع عن هويته الغربية، وثقافته الأوروبية الرائدة، وينادي ب (إسلام معدّل) يقبل بما تحويه دساتير الدول الغربية، ومحذرًا من ترك المسلمين يعيشون تبعًا لإسلامهم الذي تعلموه في بلادهم، وينبههم إلى خطر المساجد، ويطالب بجذب الشباب بعيدًا عن حلقات تحفيظ القرآن.

مفهوم التسامح بين الأمس واليوم

مصطلح التسامح في العديد من اللغات الغربية مأخوذ من لفظة لاتينية تعني تحمّل أو تقبل وجود رأي آخر يخالف رأي الشخص المتسامح، مثل أن تحب الملابس ذات الألوان القاتمة، في حين يفضل آخر الألوان الفاتحة، فعليك حينئذ أن تقبل باختلاف ذوقه معك، أو أن تكون شخصًا يفضل قراءة الروايات، في حين يحب شخص آخر كتب الكمبيوتر، وهذا هو التسامح في أقل صوره، لأن أحدهما لا يضايق الآخر باختلاف ميوله معه، وليس أحدهما مضطر إلى التنازل عن رأيه ليقوم بشيء مشترك مع الآخر.

ويذكر بعض علماء التربية أن الطفل يؤمن منذ نعومة أظفاره بآراء الأهل، فتصبح هي المقياس للصواب والخطأ، وما ينبغي أن يقبل به، وما يرفضه، ثم ينقلب العالم رأسًا على عقب، حين يلتحق بالروضة أو بالمدرسة، فيقابل أطفالاً آخرين، تعلموا من أهلهم معايير مختلفة للصواب والخطأ، ففي حين يعلم الوالدان في مكان ما أطفالهما بأنه لا يجوز تناول الأرز باليد، بل بالشوكة، فإن أطفالاً آخرين لا يعرفون

تناول الطعام إلا باليد في مناطق أخرى، وعند كل معلم تجارب لا حصر لها من هذا القبيل، فحين تريد تعليم تلاميذك أن اللجوء للضرب ليس أفضل السبل لحل مشكلاته مع زميله، يرد عليك قائلاً: «لكن أبي قال لي من ضربك اضربه»، وهنا إما أن يسعى الطفل لفرض معاييره على زميله، أو يتأثر به فيغير هو معاييره التي تلقاها من قبل، أو أن يتعلم التسامح، ويقبل بالتعددية، وأن الصواب ليس له وجه واحد، وأن الدين فقط هو الذي يحتوي على الصواب المطلق أو الخطأ المطلق، ولكن في اختيارنا للون الدفتر ليس هناك صواب مطلق ولا خطأ مطلق.

وإذا قلنا إن التعصب هو عكس التسامح، فإنه يجب توضيح نقطة جوهرية هي أنه لو لم يكن عندك رأي فلن تستطيع أن تكون متسامحًا، لأن الشخص المتسامح، يتقبل وجود رأي لا يتفق مع رأيه، وبالتالي فإن الشخص المائع الزئبقي معدوم الرأي، لا يستحق وصفه بالتسامح، لأنه ليس عنده ما يقيس عليه آراء الآخرين من اختلافهم معه، ليقرر هل سيتسلط عليهم ويفرض رأيه عنوة، أم سيتقبل وجود رأي مخالف له. وبديهي أن المتعصب المتسلط لا يقبل إلا رأيًا واحدًا، يراه حقًا مطلقًا، ولا يحيد عنه، ويرفض النقاش حوله، لأنه لا يرهق نفسه بالحجج وتفنيدها، والرد عليها، بل يكفيه أنه مقتنع بها.

وبعد أن كان خلق التسامح في الماضي صفة إيجابية بالإجماع، كان لأحداث العنف في الغرب، الفضل في إثارة زلزال هز كل المعايير السابقة، ودعا الغربيين إلى إعادة التفكير من جديد في هذا الخلق، وبعد أن كانت كتب التاريخ الألماني تحفل بالإشادة بشخصية (فريدريك الأكبر)، الذي قال قولته الشهيرة: «في بلادي يستطيع كل شخص أن يعيش كما يحلو له»، أصبح البعض حاليًا يقول إن ذلك لم يكن تسامحًا، لأن هذا الحاكم لم يكن يؤمن بشيء، ولذلك لم يكن يهمه أن يؤمن هذا الشخص أو ذاك بأي دين، لأنه كان ملحدًا، لا يعرف طريقًا يقوده إلى السماء، فكانت الأديان عنده سواء. ولعل هذا التغير الكبير في التفكير هو الذي جعل الكثير من الإعلاميين يقولها صراحة إن الرفض الغربي لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي يعود إلى اختلاف عقيدتها عن العقيدة المسيحية، التي تشكل جذور الثقافة الغربية، والتي تمثل المنبع الصافي لقيم الحرية والديمقراطية، وأصبح أكثر من ٨٣٪ من الأوروبيين يربطون بين العنف والإسلام، وإذا طرقت أسماعهم كلمة الإسلام، ارتسمت في مخيلاتهم مشاهد القتل التي لا تكاد تختفي من شاشات التلفزيونات، ومن صفحات الصحف والمجلات.

وتعالت في الآونة الأخيرة نداءات من السياسيين وخصوصًا المسؤولين عن القضايا الأمنية، تنبه المواطنين الغربيين إلى أن هناك فرقًا بين التسامح وبين الجهل، وتنبه المهاجرون من المسلمين إلى أن دينهم يفرض عليهم الوفاء بالعهود، وماداموا قبلوا الإقامة في هذه البلدان فإنهم ملزمون بحماية هذه البلدان والإبلاغ عن أي شخص يفكر في النيل من استقرار البلد وأمنه، حتى ولو كان هذا الشخص إمام الجمعة، أو أخاك في الإسلام، بل ولو كان أخاك في الدم والرحم.

وهناك مفهوم قديم جديد للتسامح، وصفه أعظم الأدباء الألمان في مطلع القرن التاسع عشر وهو يوهان جوته، الذي قال «إن بعض التسامح ليس إلا احتقارًا لكرامة الإنسان»، وضرب على ذلك مثالاً، ذكر فيه أنه لو قال لك شخص إن خمسة زائد سبعة يساوي ٢٥، فقلت له إنك إنسان متسامح وتترك له حرية التوصل إلى النتيجة التي يحبها، أو لو قال لك شخص إنه يريد أن يسافر إلى عاصمة اليمن في بيروت، وقلت من حقه أن يفعل ذلك، فإنك لا تتسامح معه، بل تحتقره. ولعل من قبيل ذلك ما يقبل به الأهل من تصرفات شاذة من أبنائهم، حتى يبينوا تسامحهم، ويحافظوا على

> إن الشخص المائع الزئبقي معدوم الرأي، لا يستحق وصفه بالتسامح، لأنه ليس عنده ما يقيس عليه آراء الآخرين من اختلافهم معه، ليقرر هل سيتسلط عليهم، أم سيتقبل وجود رأي مخالف له.

متانة العلاقة معهم، فيشترون لهم السجائر، حتى لا يستجدونها من زملائهم، وحتى لا ينضموا إلى رفاق السوء، فلا ينهروهم، فيتضايقوا منهم. وطبعًا ليس من التسامح في شيء أن تقبل أن يضرب جارك أبناءه بعنف، فتقول هذا رأيه في التربية، ومن التسامح أن أقبل برأيه. وهذا هو الجهل بعينه، واحتقار للقيم والمبادئ، وجبن عن الوقوف أمام الظلم.

وهذا الكلام الأخير يتعلق بالسؤال عما إذا كان للتسامح حدود، أم أنه مثل الإيمان كلما زاد كان أفضل، وهو نفس السؤال الذي طرحه الغرب، عندما قال: هل يجوز أن نقبل باحتقار معتقداتنا، ودساتيرنا، حتى نكون متسامحين ولا نؤذي مشاعر المسلمين؟ هل نقبل أن يقف المسلمون في أي مكان من بلادنا، ليقيموا الصلاة ويصلوا، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى؟ بل إن البابا الراحل يوحنا بولس الثاني أيضًا، قال لأتباع كنيسته الكاثوليكية قبل سنوات كثيرة، إنه ينبغي لهم أن يتعلموا تمسك المسلمين بتأدية شعائر دينهم، أينما كانوا وفي أي وقت تحين فيه مواعيد الصلاة.

عندها طالب البعض بمبدأ المعاملة بالمثل، أي أن يكون لكل شخص الحق في الحصول على المعاملة التي يتلقاها المواطن الألماني في البلد الأصلي لهذا الشخص، ولكن المدافعين عن حقوق الإنسان، قالوا إن المسؤولية فردية، ولا يجوز أن يتحمل شخص أجنبي نتيجة ما ترتكبه قيادة دولته، ثم هل يجب أن ينتهكوا الحريات، وينزلوا إلى مستوى دولة لم تبلغ شأنهم من الحضارة واحترام المثل والقيم الواردة في المواثيق الدولية؟

ثم ماذا بعد؟

التسامح ليس طريقًا في اتجاه واحد، نأخذ ولا نعطي، نطالب بالحقوق وننسى ما علينا من واجبات، التسامح من صفات الواثق بنفسه، الذي له رأي واضح، لكنه قادر على اختلاف الآخرين معه، بشرط ألا يفهم البعض التسامح كما لو كان مرادفًا للامبالاة بالآخرين وبأن يفعلوا ما يشاؤون، ولا يعني التسامح أيضًا تخلي الجميع عن مبادئهم، بحيث يتقبل كل منهم، كل شيء.

ولعل أسوأ ما يمكن أن يفعله الغرب الآن، أن يواصل حملة اللاتسامح التي بدأها بإلغاء الحجاب، وفي المقابل فإن أسوأ ما يفعله المسلمون في الغرب هو أن يعيشوا في وهم إمكانية البقاء خارج المجتمعات الغربية مثلما فعلوا في الماضي، أي أن يعيشوا في مجتمعات أقلية موازية لمجتمعات الغالبية، لها قوانينها وعالمها الذي يختلف عن عالم المجتمع الذي قبلوا القدوم إليه.

لقد كاد التسامح يلفظ أنفاسه بفعل شظايا القنابل التي تنفجر في المدن الغربية والشرقية، وعلى حد السكين الذي يجزون به رؤوس الرهائن، ليضعوها في الثلاجات، بجانب قطع الجبن، وطبق القشدة، وزجاجة المربى، وينحوها جانبًا كلما أرادوا أن يتناولوا الطعام، كما كادوا يمحون التسامح من قاموس البعض في الغرب. ■



يفعلها «الكبار» ويتورط «الصغار»

التسامح أو الانقراض

عبدالعزيز المقالح* - صنعاء

* شاعر ومفكر يمني

هنّ البدهي القول: إنه لا يمكننا أن نمارس فعل الحياة على أكمل وجه في غياب فضيلة التسامح، هذا المبدأ الذي يستحيل أن تظهر معالمه لدى الأمم إلا إذا ما ارتقى أبناؤها أخلاقيًا وعلميًا.

كان التسامح بالنسبة للأمة العربية والإسلامية في مراحل ازدهارهما سمة وسجية، ثم أصبح - بعد أن تدهورت الأوضاع، وتراجعت ثقة العربي بنفسه - كلمة قاموسية ناصعة البياض، لا تستخدمها سوى قلة قليلة من البشر أصحاب القلوب الكبيرة، وممن أفاض الله عليهم من رحمته طاقات من الصبر على المكاره، واحتمال الأذى، والقدرة على مواجهة السيئة بالحسنة. وعلى كثرة ما قرأت من كتابات في هذا الباب لم أجد كالقرآن الكريم دليلاً ومرشدًا، على التسامح ولذلك يمكن اعتباره في هذا الجانب صوت التسامح، والدليل الروحي والعملي المفضي إلى أرقى مستويات التعامل بين البشر. وهل هناك أبدع، وأروع من هذا التعبير العظيم: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (سورة فصلت الآية ٣٤-٣٥).

في هاتين الآيتين وأمثالهما إزاحة واستبعاد لكل موقف قد يؤدي إلى العداوة والكراهية، وما في مستواهما من رذائل بشرية تنتقص من معاني الحب والتسامح، والمبدأ الكامن في هاتين الآيتين الكريمتين لا يحتاج إلى مزيد من التوضيح، وإنما يحتاج إلى التمثل والتطبيق فقط، إذ لا يكفي أن نمتدح التسامح أو نكبر من شأنه، وفي أعماقنا يرقد التعصب، وفي سلوكنا تتجسد الضغائن والفظاظة. ويلاحظ أن القرآن الكريم زاخر بالتعابير التي تدعو إلى الرفق والتسامح، وإلى تليين الخطاب حتى مع الطغاة. كما هي الحال مع النصيحة الإلهية الموجهة إلى موسى وهارون - عليهما السلام - ﴿فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ أي قولا لفرعون، والتوجيه الإلهي هنا لا يقطع خيط الأمل في استمالة طاغية متأله كشخص فرعون، واستقصاء الطرائق الممكنة إلى تحويله إلى إنسان سوي، فما بالك بالآخرين من البشر الذين تسهل استمالتهم إلى الحق، والطريق القويم.

وما التسامح الإسلامي سوى ثمرة العقيدة التي

تقوم مبادئها علىحب الخير للناس جميعًا على اختلاف أجناسهم، ودياناتهم، ولغاتهم. ومن صور التسامح الإسلامي أنه سوّى بين الرجل والمرأة، بين المسلم وغير المسلم، وفتح الحوار على مصراعيه حين أعلن مبدأه الأعظم في خطابه إلى البشرية كافة: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (سورة الحجرات الآية ١٣).

وليس من شك في أن الأتقى هو كل من يعمل الخير ويتقي كل الأحقاد التي تمتلئ بها النفوس الجاحدة المتعصبة، تلك التي لا ترى وجودها إلا في غياب الآخر، ولا سعادتها إلا في شقائه.

إن دين الله واحد، وإن تفرقت به أهواء بعض البشر واجتهاداتهم المغلوطة. والدين الإسلامي واحد، وسيظل كذلك إلى ما يشاء الله. وما الاجتهادات المذهبية التي طرأت بعد فترة من ظهوره إلا محاولات لإغنائه، وتعميق مساره بالتنوع الخلاق، ولكن هذه المذاهب والاجتهادات والتأويلات لا ينبغي أن تخرج عن النص القرآني، ولا أن تخل بقدسيته، أو تخالف ثوابته، أو تقلل من الروابط المتينة التي تقوم بين أتباعه. وحين ذهبت تلك الاجتهادات بعيدًا، وشدتها السياسة إلى مواقف خارجة عن روح العقيدة جعلت التعصب عنوانًا لها، ووسيلة لبقائها، كما وضعت في الصدارة عددًا من الفقهاء الجامدين الذين يفتقرون إلى التسامح الخلاق، ممن عاشوا ردحًا من الزمن على مقولات وآراء افتقدت إلى روح المحبة والانسجام، فكان التحجر والغلو الذي تشكو منه الغالبية الإسلامية المحتفظة بروح العقيدة النقية السمحة في تشريعاتها وإجراءاتها.

ولعل أخطر مشكلاتنا نحن العرب، بل نحن المسلمين، بل نحن البشر، في هذه اللحظة من تاريخ الوجود الإنساني على وجه هذه الأرض، أننا صرنا نميل إلى التعصب، وبدأت أفعال بعضنا تتسم بالتطرف، ورفض الآخر حتى لو كان أخانا أو جارنا أو زميلنا، فضلاً عن ذلك الآخر البعيد والمختلف، وهي حالة قادمة إلينا من السياسة، وليس من العقيدة. وما أروع أن نتواصل مع قرآننا، وأن نداوم على قراءة آيات التسامح، وأن نطيل التأمل في معناها وأن نجعلها تترسب في أعماق الوجدان لكي تتحول إلى مواقف، وإلى فعل يمنع التصرفات المنافية لإنسانية الإنسان وللسلوك البشري الرفيع.

للتسامح المصحوب بالكلمة الطيبة جاذبية يصعب الحديث عن تأثيرها ومدى نجاحها، وعن دورها في تغيير مجرى أحداث الأشخاص، ومن ثم مجرى الأوطان إذا ما عممت، وصار التسامح جزءًا من السلوك الحياتي للأفراد، وهناك شعوب على الأرض «وليس في السماء»، نجحت في إيجاد هذا النموذج من التسامح، وصار التعامل بين أفرادها



قائمًا على هذا المبدأ؛ فأراحوا واستراحوا. وإذا أردنا أن نقيس المسافة الحضارية بين هذه الشعوب الصغيرة وغيرها من الشعوب المتناحرة والمتصارعة فستوقعنا المحاولة في درجة من الذهول. كما أن تحقيق حالة من التسامح الديني في الوطن العربي بخاصة وفي العالم الإسلامي بعامة لا يشكل صعوبة، وربما يغدو ممكنًا وسهل المنال إذا ما التزم المسلم بروح العقيدة، أما تحقيق التسامح السياسي؛ فهو الأشق والأكثر صعوبة. وإذا ما استقرأنا الأوضاع السياسية في الوطن العربي والعالم الإسلامي من هذا الجانب فسيوقعنا الاستقراء في ذهول أكبر.

ومن نافلة القول إن غياب التسامح السياسي هو أخطر ما يعاني منه العالم، وذلك لعلاقة السياسي بالسلطة، ولنزعة الاستئثار التي يتربص بها، وما يترتب على تلك النزعة اللاإنسانية من صراعات تصل أحيانًا - وفي الوطن العربي بخاصة - إلى مذابح، وكوارث لا مثيل لها. ومن هنا، تبدو المحظورات السياسية أكثر - بما لا يقاس - من المحظورات الدينية، والتسامح معها يكاد يكون مستحيلاً، وهو ما جعل الوطن العربي دائم المعاناة، يخرج من نفق إلى آخر، وهو ما سلمت منه بعض المجتمعات الأوروبية الغربية، حين رفعت راية التسامح السياسي، وحددت سلوكيات الممارسة السياسية. صحيح أن هناك مغالطات ومناورات سياسية لا تختفي، لكن التنوع السياسي، ووجود ثقافة سياسية ساعد على قبول الاختلاف في الرأي، وجعله حقًا طبيعيًا لكل المواطنين، على أن هذا الإجراء أو التصرف قد خفف من نزعات العنف، وحد من التعصب ودوافعه القهرية، كما أوجد جمهورًا من العقلاء وخلق حالة من العقلانية في مسألة تبادل السلطة. ولن يخرج الوطن العربي من متاهة السياسية، ومن حالة الخلط، والفوضى، والتعصب ما لم يضع حدًا للإشكال السياسي الذي يضاعف من خطر التعصب، ويدعو إلى الاقتتال على السلطة، وصراعات الانتماءات، وخنق المخالفين في الرأي بدلاً من استقطابهم في مسارات محددة، ومعروفة وعلنية. وربما تكون السنوات القليلة الماضية قد أظهرت مجموعة من المؤشرات الإيجابية

لعل أخطر مشكلاتنا في هذه اللحظة من تاريخ الوجود الإنساني على وجه هذه الأرض، أننا صرنا نميل إلى التعصب، وبدأت أفعال بعضنا تتسم بالتطرف، ورفض الآخر، وهي حالة قادمة إلينا من السياسة، وليس من العقيدة

التي تدعو إلى حل هذه الإشكالية، أو التخفيف من حدتها.

ويلاحظ في هذا الصدد أن الشعب، أو بعبارة أدق أن الأفراد في الشعب العربي يتمتعون بقدر من الصفاء النفسي، والوعي الجمعي يجعلهم أكثر تسامحًا، ورغبة في نسيان الخلافات والقبول بالتعاون مع الآخرين. وعلى العكس من ذلك تأتي النخب السياسية العربية التي أرهقها الصراع الفكري، والبحث عن الطرق المختلفة للوصول إلى السلطة، وهو ما يجعلها - أي هذه النخب - في حالة استنفار، وعداء للآخر الذي يشاطرها الحنين إلى الاستيلاء على السلطة؛ فضلاً عن اعتبار كل نخبة سياسية أو فكرية في الوطن العربي مالكة للحقيقة بكل جوهرها وتفاصيلها، وعلى الآخرين أن ينضووا تحت لوائها، وإذا لم يفعلوا فلهم الويل والثبور.

إن الدراسات الصادرة - حتى الآن - عن النخب السياسية العربية، تؤكد هذه الحقيقة ضمنًا أو علنًا، وتكشف عن رصيد من الأحقاد ينتهي الزمن ولا تنتهي، وكان المفترض أن هذه القوى - بما اكتسبته من استنارة معرفية أن تكون أكثر انفتاحًا على من يخالفها في وجهة نظرها السياسية أو الاجتماعية وأن تمد كل نخبة يدها إلى النخب الأخرى في محاولة جادة لبناء مجتمعات عربية تحترم الرأي والرأي الآخر، وتحرص على أن يكون لمخالفها من الحق

في التعبير عن نفسه مثل ما لها تمامًا، وألا نضيق بالتعبير الناتج عن التعددية الفكرية والسياسية والمذهبية ما دام هدف الجميع البحث عن سعادة الإنسان، وخلق المجتمع الحر العادل الذي يجعل من كل مواطن، بل كل المواطنين شكلاً للوطن الحر.

الرؤية الموضوعية تقول إنه إذا استمرت حال النخب السياسية في الوطن العربي كما كان عليه في النصف الثاني من القرن العشرين من اقتتال، وبعد عن التسامح؛ فإن لنا أن نقول بكل الحزن: على الأمة العربية السلام.. مهما جرت من محاولات إصلاح داخلية وخارجية، ومهما ارتفعت من أصوات تدعو إلى الخروج بالعرب من واقع التخلف والتجزئة. ولا يعني التسامح التخلي عن الحقوق أو التمادي في مداراة المجرمين والخارجين عن القانون، الذين لا ينفع معهم التسامح، وهو الأمر الذي تنبه إليه أبو الطيب المتنبي بعمق يفوق التعمق العلمي، عندما قال:

ووضع الندى في موضع السيف للعلى

مضر، كوضع السيف في موضع الندى

أظن أن المعنى من الوضوح بمكان فهو يقول: إن التسامح مع قوم لا يصلح لهم إلا التعامل بالقوة يشكل من الضرر ما لا يساويه أو يماثله في الضرر

إن تحويل الخلافات الفكرية إلى عداء مواقف استفزازية، لا يخدم النخبة الفكرية، ولا يجعلها تنجح في شد الجمهور، وتبقى النخب ذاتها معلقة في الهواء تجتر خلافاتها، وتزيد من مساحة الهوة التي تفصلها عن الشعب

سوى التعامل القاسي مع قوم يمكن أن تعالج أمورهم بالتسامح.

وتقودنا هذه الإشارة الشعرية الذكية إلى الحديث عن المنظمات العنصرية، والعنصرية الصهيونية على وجه الخصوص، التي قطعت بأفعالها الإجرامية كل طريق للأمل في خلق حوار متسامح، ولو تم التسامح معها؛ فإنه سيكون شبيهًا بحال صاحب البيت الذي يتسامح مع اللص الذي طرده من داره، وقتل أبناءه. هذه المنظمات العنصرية المتطرفة هي التي تسد طريق التسامح، وتفتح الباب لحروب لا مفر من القيام بها دفاعًا عن القيم، وعن المحبة، وعن التسامح نفسه، أو سيكون العالم في حالة معها أسوأ مما يتصور الخيال.

يفترض البعض أن التسامح يبدأ من داخل النفس، ومع النفس ذاتها، وإذا ما تحقق ذلك المعنى؛ فإن تحققه مع الآخرين يغدو سهلاً ميسورًا. وقد يكون هذا الافتراض صحيحًا إلى حد بعيد فالتسامح الحقيقي لا يأتي من التعليم، ولا يتم بالتمرين؛ وإنما يبدأ من الداخل، ثم ينمو ويكبر، ويتجسد في السلوك مع الآخر كما مع النفس مستخدمًا - رؤية إيجابية تفتح أبواب الروح واسعة مع المحيط الأقرب، ثم المحيط الأبعد. وكلما تحررت نفس الإنسان من أضغانها، ومن حمولاتها الرامية إلى التعصب كانت أقدر على التحرر من عقدها تجاه الغير، ومن نجاحها في حماية العلاقات الحميمة من التدهور، وفي اقتراح تفاصيل في الحياة اليومية، وفي الحياة بعامة تجعل الدنيا أكثر جمالاً وخيرًا.

وكما يبدو غياب التسامح عاملاً مهمًا في تدهور الشعوب؛ فإنه يصح القول إنه العامل الثابت في صراع المثقفين العرب مع المخالفين لهم في الرأي.

وهكذا يتأكد أن التطور يتوقف على التسامح وعلى العلاقات الجيدة بين أبناء الأمة الواحدة وبتحقيق الانسجام، والإصلاح المطلوب سياسيًا واجتماعيًا، فالشعب المشتت بين النخبة السياسية والفكرية، والغارق في صراعات جانبية وقانونية لا يمكنه أن يتفرغ للمهام الأساسية المتعلقة ببناء الشعوب، ورفع وتيرة التطور للوصول إلى المستوى المنشود في النظام السياسي والاجتماعي.

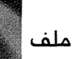


وأن أكبر فضيلة يتمتع بها الجمهور العادي هي فضيلة التسامح والتعايش. ولعل انصرافه إلى العمل يحميه من التشوه النفسي، ولا يبقي له وقتًا ينفقه في المهاترات والخصومات. وإذا ما أخطأ الجمهور، أو دخل في نفق التعصب؛ فإن ذلك يعود إلى وجود المثقف السياسي المنحرف الذي يحركه، ويستغل معرفته السطحية بالأمور. وكثيرًا ما تم استغلال الجمهور الطيب المتسامح لإشعال نيران التعصب ضد نفسه، وفي مواجهة مواقف تخدمه، وتنتقل به في معادلة صحيحة - إلى أوضاع أحسن، وحياة أفضل.

إن حياتنا في الأقطار العربية تزخر بالآلام والسلبيات الصادرة عن غياب التسامح وإطلاق العنان للتعصب الذي يتحول في أحايين كثيرة إلى حالة مرضية يصعب شفاؤها، وكما أن التسامح باب للشفاء من أمراض الذاتية المفرطة في الغلو والتعالي؛ فإن التعصب بالمقابل هو المدخل الأول إلى التطرف وما يترتب عليه من فقدان للروية، والمنطق، وإطلاق الكامن في النفوس من العدوانية، والإيغال في الكراهية التي لا يجوز - من الناحية الدينية - أن تحل في قلب مؤمن مكلف بأن يدعو إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، ولا يتسرب اليأس إلى نفسه الكبيرة في قدرتها على التغلب بمنطق العقل، والحكمة على كل ما يعتري سطح الواقع من فساد وضلال. كما لا ينبغي - من الناحية السياسية - أن تحل الكراهية قلب السياسي الراغب في كسب ود الغالبية من الناس وأصواتهم.

إن تحويل الخلافات الفكرية إلى عداء، وإلى مواقف استفزازية لا تخدم النخبة الفكرية، ولا يجعلها تنجح في شد الجمهور، وتبقى النخب ذاتها معلقة في الهواء تجتر خلافاتها، وتزيد من مساحة الهوة التي تفصلها عن الشعب الذي تسعى إلى مساعدته، والذي يكره الخلافات بطبيعته وفطرته، ويحترم من يسعى إلى تجميع الصفوف، وإلى كل من يتسامح ولا يتعصب، ويتوسط ولا يتطرف، وتلك حقيقة لم يستوعبها السياسيون العرب، ولا نخبهم الفكرية المعزولة في أبراج من كلمات غامضة ومتناقضة والتي ترتاب في الشعب، ولا تثق بأحكامه، ومواقفه النابعة من روح التسامح والإخلاص، والتمسك بأهمية التعايش.

أخيرًا، إن التسامح هو البديل الوحيد عن الانقراض، وبدون الحوار وهو من مفردات التسامح ستكون الحياة على هذه الأرض مستحيلة؛ نظرًا لتزايد سكان هذا الكوكب من جهة، ولتواصل ابتكار المخترعات الفتاكة التي سهلت للطامعين والمتعصبين طرائق الخلاص مع خصومهم جملة وتفصيلاً، حيث لم يعد السيف هو وسيلة المحارب، ولا حتى البندقية والمدفع، وما في مستواهما من أسلحة كانت إلى وقت قريب تعتبر حديثة، لكن فعلها المحدود يجعلها ضمن الأسلحة التقليدية. ■



الـ«زينوفوبيا» ليست خاصة بالعرب فقط!!

محمد الدعمي *- بغداد

*أكاديمي وكاتب عراقي

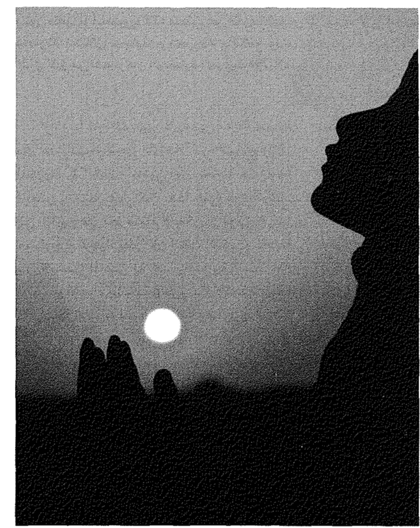
يجري النقاش هذه الأيام محتدمًا، متنقلاً بين العواصم العربية والإسلامية، حول «التسامح»، كواحدة من السجايا الطيبة ولكن بأبعاد ثقافية واجتماعية وسياسية متنوعة. ثم ما يلبث النقاش أن يدور دورانًا عجيبًا ليتخذ من موضوعات الحث والاستجابة الحضارية المنبثقة من الاحتكاك بالغرب، محورًا له كي يستقر مختزلاً بين موقفين لا ثالث لهما بالنسبة للبعض: الموقف الانكماشي والموقف الانغماسي. وبينما يذهب الموقف الثاني إلى نوع من الاستسلام للغزو الثقافي بالدرجة الكافية للارتماء بمياه الثقافة الغربية حيث ينتزع الإنسان العربي أو المسلم جلده ليستبدل به بشرة شقراء مقصورة. يتقوقع دعاة الموقف الأول في صومعة مظلمة، حالمين بجزيرة منفصلة عن العالم لبناء «فردوس» لا يمكن إلا أن يكون طلليًا أو أسطوريًا لأنه مستقى من فكرة تقديس الأسلاف atavism دون محاولة استلال سجاياهم المعروفة بالتفتح وبنبذ العصبيات وبالاجتهاد الذي كان من أهم أركان الحضارة العربية الإسلامية في ذروتها.

وإذا ما كان التراثيون لا يجدون ملاذًا لهم في مثل هذا السياق سوى الارتداد إلى النماذج والمثل المخزونة في أرشيف الماضي دون محاولة حقن هذا الماضي بالحياة، فإن تكرار هذا النوع من الارتداد إلى التاريخ على نحو متعام لا يمكن أن يخدم غرضًا حضاريًا أو ثقافيًا، نظرًا لأن انتقاء النماذج المضيئة من قصص الماضي لم تعد بالدرجة نفسها من الإغراء والإغواء بالنسبة للنشء كما كانت في أزمنة عاش فيها الإنسان العربي مغمورًا وعائمًا في البادية بمنأى عن هجمات وتعرضات الثقافات الأخرى التي امتطت تقنيات الاتصال ووسائل الإعلام منذ بداياتها الأولى على سبيل اختراق ذلك «البيت» العتيق الذي حافظ على ثقافتنا التراثية وعلى أنظمتنا التربوية عبر العصور حتى أخذت فورة الإنترنت وثورة المعلومات تفك قبضة هذه الأنظمة عبر قنوات لم نعد قادرين على السيطرة عليها، للجمها أو لبترها.

لذا فإنه من السذاجة بمكان أن يفترض المرء أن علينا أن نرمم الجدران المتوارثة باعتبارها أول خطوط الدفاع عن ثقافة نريد لها أن تبقى كما كانت، متحجرة وجامدة، ثقافة تبقي الجمهور حبيسًا في أطر ومناقشات كان البعض منها من أسباب تردي الحضارة العربية الإسلامية ووقوعها ضحية لغزوات الأعاجم ولاجتياحات أسباب الفرقة والتفتت، منذ سقوط بغداد العباسية على أيدي هولاكو خان عام ١٢٥٨م. كما أنه بالمقابل من السذاجة بدرجة خطيرة أن يفترض العقل العربي أو المسلم إمكانية طي صفحة التراث وإيداعها المتاحف الجامعة لغبار الزمن لغرض المحاكاة المتعامية لكل ما هو وافد، بغض النظر عن سلبياته وإيجابياته، الأمر الذي يجعل العقل الحيوي القادر على الاجتهاد متمكنًا من إدراك مديات دلالة «التسامح» في سبيل

توظيف هذه السجية النبيلة على نهجين، هما: كأداة لمراجعة التراث بعقل مستنير متمكن من استلال الإيجابي ومغادرة السلبي، وكأداة ومعيار لقياس الوافد الأجنبي ورؤية المفيد منه والتعامل معه بطرائق عقلانية حيوية وحضارية، طرائق لا تسقط هويتنا الخاصة ولا تجعلنا أذيالاً أو هوامش لثقافات أخرى تنتشي اليوم «بذروة التفوق» المادي التاريخية التي انتقلت بين الأجناس والأمم عبر التاريخ مرورًا بالحضارة العربية الإسلامية في عصرها الذهبي.

لنلاحظ سلوك العقل الانكماشي الذي استجاب بحساسية مرهفة للثقافات وللمبتكرات الوافدة من الغرب: فقد وجد هذا العقل في افتراضية أن كل ما منشؤه غربي إنما ينطوي على «مؤامرة» مدبرة يقف وراءها مخطط تآمري مُحكم يستهدف التراث، بشواخصه ومعتقداته الروحية. هذا ما يبرر الارتداد المتقوقع الذي وصل ببعضهم إلى حد القبول بـ«بدائيات» نبذ التقنيات والمبتكرات العلمية والأكاديمية الرفيعة. بل إن الأخطر من هذا التحسس يتمثل في تحوله إلى نوع من العدائية العمياء لكل ما هو أجنبي: وهي العدائية التي تبلورت في أيامنا هذه على نحو الـ«زينوفوبيا» أو «رهاب الأجنبي» Xenophobia التي أحلت كل أنواع وأساليب الرفض للدخيل والوافد، بغض النظر عن طبيعتها ومدياتها وآثارها على الحاضر والمستقبل. ليس هذا بنقد متعام لما يجري في بعض الأقطار الإسلامية، ذلك أن هذا النوع من العصبية يتبلور في العالم الغربي كذلك. وتدل الحركات الفاشية الجديدة المنتشية هذه الأيام على أن الحضارة الغربية راحت تستجيب



كذلك للاختلالات المتوارثة المبتناة على كراهية الأقوام الأجنبية، تأسيسًا على «الأسطورة الآرية» التي تصاعدت إلى حد تطوير حالة الرهاب من الإسلام والمسلمين، أو ما يمكن أن نطلق عليه «فوبيا الإسلام» Islam phobia، الأمر الذي ينعكس على نحو فوري على «أخبار الساعة» التي تضخها وسائل الإعلام الغربية: حيث يصور الإنسان العربي أو المسلم بوصفه «إرهابيًا» بالولادة أو بالفطرة. إن الخلل المتمثل بمجافاة التسامح واحتضان العصبيات لا يمكن قط أن يخدم العالم العربي أو الإسلامي. ومن الطريف ملاحظة أن هذه «الفوبيات» المتبادلة قد حدت بأذكى العقول في العالمين العربي الإسلامي من ناحية، والغربي المسيحي، من الناحية الثانية، لإطلاق حملات بحث علمي تتجسد في انتشار مراكز دراسات إقليمية متخصصة لمعرفة «الآخر»، المختلف أو المعاكس أو المتقاطع، باعتبار أن «المعرفة إنما هي

القوة». ولكن على الرغم من الدوافع والإرهاصات العدائية التي يمكن أن يرتكن إليها مثل هذا الجهد البحثي، فإنه لابد أن ينتهي إلى حقائق مفيدة، أهمها أن أحدًا لا يمكن أن يحيا بمفرده في جزيرة لا تغسل شواطئها مياه العالم الخارجي.

بيد أن المهم في حالة «سوء الفهم» المتفاقمة يتجسد في الكيفية التي يمكن من خلالها بناء عالم يستمد رفاهه وسعادته من فكرة التعايش واحترام تقاليد الآخر. يقول البعض إن علينا أن نقطع نصف المسافة الفاصلة بين «عالمنا» و«عالمهم»، كي يمكن الالتقاء أو الحوار الحضاري، ولكن ليس بموقف رجوعي دوني، وإنما بموقف ندّي يجعل من التسامح شرطًا مسبقًا «للتعايش» والمعايشة الصالحة، حيث يتبادل العالمان معطيات حضارتيهما على نحو بنّاء. لذا يكون التسامح الثقافي والديني شرطًا مسبقًا لمثل هذه الرؤيا، بغض النظر عن توثب البعض من كلا الطرفين إلى الاستحواذ وإلى استغلال الآخر. ويبدو أن الارتجاع الانتقائي إلى التاريخ، بوصفه «رسالة تعليمية من الماضي إلى الحاضر»، يكون مفيدًا في مثل هذا السياق. لقد رصد العقل الغربي تاريخنا ودرسه بدقة أكبر مما يمكن لغير المتخصص تخيله، مستمكنًا مكامن القوة والتفوق في المنجز الحضاري العربي الإسلامي. لذا لاحظ عمالقة فكريون من نمط أبي الأدب الأميركي، واشنطن إرفنغ Irving (١٧٨٣-١٨٥٩) أن أعظم منجزات الثقافة والحضارة العربية الإسلامية لم تتحقق في بغداد أو دمشق، وإنما هي قد تحققت في الأندلس. وحسب خطه في التفكير، كانت قدرة الثقافة العربية الإسلامية على استيعاب الأقوام الآرية والتعايش معها في إناء أوروبي وراء بلوغ ثقافة متميزة جمعت بين الغرب (الأوروبي، المسيحي، الآري) والشرق (العربي، الإسلامي، السامي) على سبيل ولادة ثقافة مركّبة آلت إلى اكتشاف «العالم الجديد» عبر رحلة كولومبس (الأميركي الأول) من أرض نصف إسلامية ونصف مسيحية، حيث أكمل هذا الرجل دائرية الأرض بعدما كان الاعتقاد سائدًا أن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) إنما هو نهاية العالم. لا ريب في أن هذا المنطق إنما ينبعث من البحث الأميركي المبكر عن الهوية، ولكنه (كنتيجة

يكون من الضروري أن نحدد حجم «التسامح»، كمصدر قوة، كي لا يتجاوز حدوده نحو «الاستسلام» للطارئ من الخارج. هذا ما لايمكن أن يتحقق دون خلق «حصانة» ثقافية وفكرية واثقة بالذات

عرضية) يميط اللثام عن إعجاب كبير بالعقل العربي الإسلامي المتفتح والمتوازن.

لقد تتبع هذا العقل الذكي بإعجاب تلك الموجة التاريخية المنبثقة من جزيرة العرب عبر كتابه المهم (محمد وخلفاؤه) كي تُعمّد العالم بمياه ذهنية نقية متسامحة خالية من العصبيات كي تستقر عبر مضيق جبل طارق في شبه جزيرة إيبيريا، حيث أقام العرب المسلمون واحدة من قمم الحضارات في تاريخ البشرية. وقد خصّ إرفنغ حضارة العرب في الأندلس بعدد من التواريخ وكتب الارتحال التي يتوجب على الأمريكان أنفسهم قراءتها بدقة كي يدركوا معنى التسامح في الإسلام، وهي: (الحمراء) The Alhambra و(فتح إسبانيا) The Conquest of Spain و(فتح غرناطة) The Conquest of Granada. لقد حاول إرفنغ البرهنة على تفوق العقل العربي المسلح بعقائد الإسلام السمحة مقارنة بالنكوص والتراجع الأوروبي عبر توكيده سجايا العرب بالتسامح والتفتح، تلك السجايا التي أحالت أرض إيبيريا إلى «فردوس قرآني»، إذا ما استخدمنا ألفاظه المفضلة. يراجع إرفنغ هذه الحقيقة التاريخية، ليلاحظ تسامح العقل العربي وقدرته على استيعاب الحضارات الأخرى في لحظة فتح تلك الأرض التي كانت رازحة تحت نير الحكم القوطي، مستذكرًا الطريقة التي استقبل بها اليهود الإسبان الفاتح العربي عبر ما قاله حاخام اليهود

الإسبان لطارق بن زياد بعد زيارته في معسكره سرًا: «اعلم يا قائد جموع الإسلام، بأني مرسل إليك من قبل بني إسرائيل الساكنين في توليدو. لقد كنا مُضطهَدين ومُهانين من قبل الإسبان أيام تنعمهم بالخير. والآن، إذ هم مهددون بالحصار، فإنهم قد استلبوا منا جميع تجهيزاتنا وأموالنا، وفرضوا علينا العمل كالعبيد لإدامة حصونهم، وهم يفرضون علينا الآن حمل السلاح لحماية أجزاء من أبراج هذه الحصون. نحن نكره نيرهم ومستعدون (إذا ما قبلتم بنا مواطنين وسمحتم لنا بممارسة عباداتنا وبالتمتع بأموالنا بحرية) لتسليمكم الأبراج المسؤولين عن حمايتها، متيحين لكم دخولاً آمنًا إلى المدينة».

ليس المقصود من هذا الاقتباس، الذي نورده من نص كاتب أميركي مسيحي يناقش مسببات التفوق



العربي الإسلامي في العصر الوسيط، ملاحظة ما تناهى إلى مسامع يهود إسبانيا عن قدرة المسلمين على التسامح، بل المقصود كذلك تجسيد ضغط واضطهاد المهاد الأوروبي آنذاك لهذه الأقلية بالدرجة الكافية لأن تجعل المسلمين أعلى درجة وأقوى شكيمة من الإمبراطوريات المهترئة التي كانت تهيمن على العالم القديم قبل ظهور الإسلام، خصوصًا الإمبراطوريات الفارسية والبيزنطية. هذا ما يفسر ما أسماه الكاتب البريطاني الكبير هـ.ج.ويلز H.G.Wells بـ«أيام العرب العظيمة» في كتابه المهم (موجز تاريخ العالم) A Short History of the World. وتعد حالة الأقلية اليهودية في أوروبا أفضل الأدلة على قوة الإسلام بفضل سجية التسامح (من بين سجايا أخرى) مقارنة بضعف أوروبا وثقافتها بسبب العصبيات الدينية والإثنية. والدليل يورده اليهود أنفسهم عندما يحتفلون هذه الأيام بذكرى الـ«الهولوكوست» أو محارق اليهود التي ارتكبها الأوروبيون (وليس المسلمون)، لأنها تدل على أن العصبيات هي من علامات الضعف والهوان، وأن التسامح هو من علامات القوة والثقة بالنفس. وقد جسد الرسول الكريم ﷺ هذه القوة لحظة فتح مكة كأنموذج ترك آثاره على تاريخنا وعلى أخلاقياتنا.

وعودة إلى الجدل الذي باشرنا به، وباسترجاع الشاخص التاريخي الغني، يمكن للمرء أن يخلص إلى ملاحظة ضرورات اعتماد منطق معتدل ومتوازن مشحون بالثقة العالية بالنفس وبالموروث دون الارتهان بالتعمية، ولا بالارتماس المتعامي بمياه الغريب والمغترب. إن المرء مهما فعل، لا يمكن أن يغلق جميع المنافذ التي تهدد بناء وبنية أسرته ومجتمعه. لذا يكون من الضروري أن نحدد حجم «التسامح»، كمصدر قوة، كي لا يتجاوز حدوده نحو «الاستسلام» للطارئ من الخارج. هذا ما لايمكن أن يتحقق دون خلق «حصانة» ثقافية وفكرية واثقة بالذات عبر برامجنا التربوية والتوجيهية كي تلامس خطط التعليم والتنشئة لخلق شبيبة ونشء عربي مسلم متمكن من حماية نفسه وقادر على انتقاء ما يصب في بنائه وثقافته ومجتمعه دون الانزلاق في غياهب غياب الهوية وتغييب الثقافة الوطنية والروحية.

«الأقوى» أولى بالتسامح!

ياسر الزعاترة* - الأردن



* كاتب صحفي أردني

فلنعلن ابتداء أننا ضد التركيز المبالغ فيه على مفهوم التسامح مع الآخر كما شاع في الأوساط العربية والإسلامية خلال السنوات الأخيرة، في شعور مرضي بالاتهام من قبل الآخرين، مع الميل بالمقابل إلى التركيز على التسامح فيما بين المسلمين أنفسهم.

نقول ذلك لجملة من الأسباب، لعل أولها أن الأقوى هو الذي عادة ما يدعى إلى التسامح مع الأضعف. وفي هذه المرحلة من مراحل التاريخ، يبدو العالم الإسلامي هو الأحوج إلى تلقي التسامح من قبل الطرف الآخر الأقوى ممثلاً في الغرب، أكان من باب الانسجام مع الشعارات الكبيرة التي يطرحها هذا الأخير حول الحرية وحقوق الإنسان، أم من باب التعامل بالمثل، على اعتبار أننا كمسلمين قد سجلنا صفحات ناصعة في ميدان التسامح مع الآخر عندما كنا في أوج قوتنا؛ يشهد بذلك المسيحيون واليهود، وحتى أصحاب الأديان الأخرى، وقصص صلاح الدين الأيوبي في الرد على غطرسة الصليبيين ومذابحهم مسطورة في المراجع الغربية لا ينكرها إلا أعمى، بل إن هذه الجاليات المسيحية التي تعيش بين ظهراني المسلمين هي الدليل الأكثر واقعية على تسامح المسلمين مع أهل الملل الأخرى.

خلاصة القول في هذه النقطة هي أن القوي هو المطالب بالتسامح، وليس الضعيف، وللأسف فقد كان تاريخ الغرب مع هذه الأمة سيئًا إلى حد كبير، فلا هو اعترف بسماوية رسالة الإسلام، الأمر الذي يتواصل حتى هذه اللحظة في الحوارات الحضارية والدينية التي تجري هنا وهناك، ولا هو تركنا في حالنا في يوم من الأيام، إذ واصل غزواته واستعماره لأرضنا ونهبه لثرواتنا طوال قرون، بل إن ١٧ قرنًا من مجموع ٢٤، هي التاريخ المكتوب للبشرية قد شهدت غزوات من الغرب للشرق، وها هي الغزوة الصهيونية المدعومة من الغرب شاهد على تواصل تلك الغزوات، ومعها الغزوة الجديدة بقيادة الولايات المتحدة.

ما يجري إذًا هو نقيض التسامح على صعيدين؛ الأول استمرار الغزوات الواقعية التي تستهدف الاستعباد ونهب الثروات، أما الثاني فهو رفض الاعتراف بالحضارة والهوية والإصرار على الهوية الواحدة للعالم الجديد، ومع ذلك يصار إلى اتهام المسلمين بعدم التسامح!!

أما التركيز الغربي على المظاهر الشاذة في العالم الإسلامي مثل بعض أشكال العنف التي تستهدف الآخر، فلا يبدو محقًا، ليس فقط لأنه عنف ذو علاقة بالاستهداف الأمريكي لبلادنا وليس بالموقف الفكري أو الديني، بل أيضًا لأن له مماثلاً في الغرب أسوأ منه بكثير، ولا تسأل عما يفعله الصهاينة في فلسطين، وما يتبناه اليمين الديني في الغرب من مقولات عنصرية بحق المسلمين.

ما ينبغي أن يقال هنا هو أن المركزية الغربية لاسيما في طبعتها الأمريكية لا تمت إلى التسامح بصلة، حتى وهي ترفع شعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، فأية حرية تلك التي تأتي على ظهر الدبابات، يحفزها منطق الشركات الكبرى القائم على النهب الاستعماري الجشع؟! ونتذكر هنا ذلك الفارق بين الفتوحات الإسلامية وبين الغزوات الاستعمارية الغربية، ففي هذه الأخيرة ليس ثمة سوى النهب لحساب المركز إلى جانب تغيير الهوية وعدم الاعتراف بثقافة الآخر، أما في الحالة الإسلامية

فليس ثمة نهب لحساب المركز، بل تنمية متساوية لذات البلدان وأهلها، مع اعتراف بهوية الآخر ضمن إطار المعادلة الربانية ﴿لا إكراه في الدين﴾، والتي تبناها المسلمون في كل العصور.

إن سيادة مقولات التسامح مع الآخر هذه الأيام بفعل الهجمة الإعلامية الغربية، وظاهرة العنف بعد الحادي عشر من أيلول «سبتمبر»، كل ذلك لا ينبغي أن يدفعنا إلى وضع الكرة في مربعنا، وتجاهل ما يفعله الآخر بنا على مختلف الأصعدة. وإذا كان بعض المسلمين قد تبنوا آراءً حدية في سياق التعامل مع الآخر، فهي شاذة لا تعبر عن المجموع من جهة، كما أنها جاءت في سياق ردة الفعل على الهجمة الاستعمارية التي تستهدف الأمة، أكثر من كونها جاءت على خلفية دينية أو حضارية.

نحن نقول ﴿لا إكراه في الدين﴾، فيما هم يقولون لنا «لا خيار أمامكم، فإما أن تكونوا معنا أو مع الإرهاب».. الذي يعني الإسلام حين يجري تحرير المصطلح. نطالب بالتعددية الحضارية، بينما يعلنون الحضارة الواحدة والثقافة الواحدة ويريدون أن يصبونا في قالبهم، الأمر الذي ينبغي أن يدفعنا إلى المطالبة بالتسامح مع منحنا فرصة تطبيق النموذج الثقافي الذي ينسجم مع قيمنا من دون أن يتجاهل منجزات البشرية في تحولاتها المختلفة، وهو نموذج نعتقد أنه أكثر انسجامًا مع الواقع الإنساني ككل.

من هنا فإن علينا اليوم أن نطالبهم هم بالتسامح لا أن يطالبونا نحن به، فنحن الضعفاء الذين لا نملك فرض شيء على أحد، لكن واقع الحال ما زال يقول

ففي حين تبدو الأمة في أمس الحاجة إلى دفع عجلة التغيير، فإن ذلك لن يتم بعيدًا عن توافق قواها الحية على حد أدنى من التسامح فيما بينها، كمدخل طبيعي للتعاون على إنجاز التغيير المنشود

إنهم لا يريدون إلحاقنا بمركبهم الحضاري بمفهومه التقدمي الحقيقي، بقدر ما يريدون تغريبنا، مع المزيد من نهبنا والسيطرة على واقعنا على مختلف الأصعدة. إنهم يريدوننا مجرد تابعين نقدم المواد الخام الرخيصة، فيما نستهلك ما يقدمونه لنا بالأسعار التي يريدون.

إنها علاقة استعمارية لا جدال فيها، ولا قيمة بعد ذلك لكل الشعارات التي ترفع، فما من غزوة استعمارية في التاريخ إلا ورفعت فوق خوذات جنودها شعارات براقة، وما من مستعمر في التاريخ قد جاء معلنًا أن هدفه هو النهب وتغيير الهوية، فقد جاءوا جميعًا من أجل نشر قيم الحضارة والتمدن، لكن واقع سلوكهم على الأرض كان يفضحهم على الدوام.

التسامح فيما بين المسلمين

نأتي الآن إلى البعد الأهم الذي ترى هذه السطور ضرورة التركيز عليه، ألا وهو البعد المتمثل في التسامح مع الذات، أي التسامح فيما بين المسلمين أنفسهم.

نقول ابتداء إن التركيز على هذا البعد إنما ينطلق من مربع القناعة بأن الشرذمة والتفتيت كانت ولا تزال هدفًا استعماريًا، لسبب بسيط هو أن الشرذمة هي المدخل الحقيقي للسيطرة على الأمة، وقد جاء مشروع «الشرق الأوسط الكبير» ليحدد هدفًا جديدًا عنوانه إعادة تشكيل المنطقة، وحين يقال ذلك فإن الهدف هو تعزيز شرذمتها على أسس جديدة بعدما ثبت أن هذا المستوى القائم من الشرذمة لم يكن كافيًا لفرض السيطرة الصهيونية عليها.

من هنا تبدأ أهمية التسامح بين المسلمين، ففي حين تبدو الأمة في أمس الحاجة إلى دفع عجلة التغيير، فإن ذلك لن يتم بعيدًا عن توافق قواها الحية على حد أدنى من التسامح فيما بينها، كمدخل طبيعي للتعاون على إنجاز التغيير المنشود، أما إذا بقي بعضها ينهش في بعض فإن المركب سيواصل تخبطه، ما قد يكون إيذانًا بالغرق وليس بالإقلاع نحو آفاق أرحب.

لقد سادت في الأعوام الأخيرة نبرة من التعصب في أوساط المسلمين، وتحديدًا تلك القوى المشتغلة بالشأن العام في الأمة، وما قصة الفرقة الناجية والطائفة المنصورة سوى أمثلة على الاستخدام الإشكالي للنصوص في منح صكوك البراءة لهذا الطرف واستهداف الأطراف الأخرى.

ما ينبغي أن يقال هنا هو أن محاولات حشر الأمة في مذهب فقهي أو اعتقادي واحد قد فشلت، ولو كان لها أن تنجح لنجحت في القرون الأولى على مرمى فترة محدودة من الوحي، بل إن الشرذمة التي كانت سائدة في تلك القرون قد تتعدى ما هو واقع هذه الأيام، الأمر الذي يؤكد استحالة صب الأمة في قالب واحد من قبل أي عالم أو أي مذهب.

إن هذه القناعة لا بد منها كمدخل للتسامح، من دون أن يلغي ذلك حق كل طرف في الاعتقاد بأن رؤيته هي الأفضل، وأنه الأكثر قربًا من الصواب، لكن إلغاء حق الآخر في التفكير والاستنباط والنظر وتبني الرأي الذي يرتاح إليه لا يمكن إلا أن يكون مدخلاً للفرقة والتشتت وإضاعة الجهد.

يروى عن الإمام الشافعي قوله «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، لكن أناسًا هذه الأيام قد أخذوا يحتكرون النجاة في الآخرة لأنفسهم، ويقولون إنهم الحق وما سواهم



«الأقوى» أولى بالتسامح!

الضلال، وهو خلاف ما سارت عليه الأمة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، «وقد نهى الله في كتابه عن التفرق والتشتت، وأمر بالاعتصام بحبله. فهذا موضع يجب على المؤمن أن يثبت فيه، ويعتصم بحبل الله، فإن السنة مبتغاها على العلم والعدل، والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله».

إن المشكلة التي يطرحها ذلك اللون من التفكير القائم على الإصرار على احتكار الحق والحقيقة والصواب ومصادرة حق الآخرين في الاجتهاد إنما تكمن في بعدين؛ يتمثل الأول في منهجية الإقصاء الفكري التي تنشر العنف الفكري في المجتمع بما ينطوي عليه ذلك من خلافات وفرقة وتشتت ونزاع بين أبناء الأمة يحول بينهم وبين اجتراح أية وسائل للتعاون البناء. فيما يتمثل الثاني فيما يمكن أن يؤدي إليه من عنف حقيقي، فالقتل والاحتكام إلى السلاح يبدأ بالخصومة الفكرية والإقصاء المذهبي أو العقائدي، وفي هذا البعد خطورة جمة تابعنا بعض فصولها خلال العقدين الأخيرين باستسهال البعض لقتل المسلمين من دون حق.

لا تسأل بعد ذلك عن حجم التشويه الذي يصيب الأمة ودينها حين تعجز عن نشر ثقافة التسامح فيما بين أبنائها، وفي كل الأحوال، فإن القناعة بديمومة الاختلاف ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ لا بد منها، لأن قناعة بعض القوم بقدرتهم على صب الأمة في قالبهم بالقوة والعنف الفكري وغير الفكري هي المحطة الأولى للشرذمة وربما لما هو أسوأ منها.

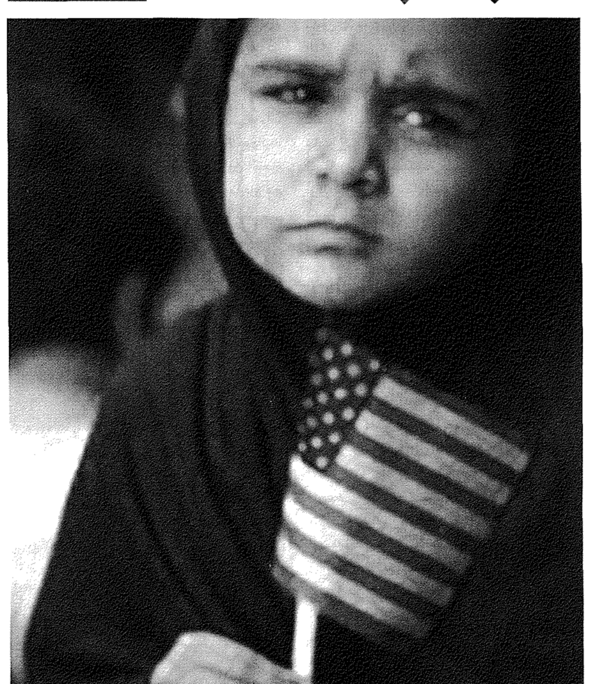
إن التسامح بين أبناء الأمة وتياراتها قد غدا أكثر من ضرورة، ليس لمواجهة الغزوة الرهيبة التي تتعرض لها، والتي لا تفرق بين زيد وعمرو ولا بين مذهب وآخر، بل تستهدف مجموع الأمة ووحدتها وهويتها وثرواتها، وإنما أيضًا من أجل إيجاد الآليات الفاعلة لوضعها على سكة الوحدة والتقدم.

يبقى أن المجتمعات لا يمكن أن تتعايش وتبني نفسها من دون حد معقول من التسامح، وهو الأمر الذي اكتشفه الغرب بعد حروب طويلة طاحنة، أكانت حروبًا أهلية أم حروبًا بين الدول والقوميات ومن العبث أن تستعيد الأمة في هذه المرحلة الحرجة كل أشكال المعارك الفقهية والخلافات المذهبية وتنسى العدو الواقف بالباب يتربص بها الدوائر. ■

أمريكا تفضل «التعددية» على «التسامح» الهش

أحداث ١١ سبتمبر: لم تنضج الطبخة بعد!

علاء بيومي* - أمريكا



*مدير الشؤون العربية بمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير).

هدف هذا المقال هو تحديد تبعات أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م على موقف أمريكا كدولة ومجتمع تجاه المسلمين كأحد الأقليات المكونة لهذا المجتمع. ولتحقيق هذا الهدف رأينا أن نبدأ المقال بمقدمة مختصرة عن الاختيارات الأساسية المتاحة أمام الدول والمجتمعات للتعامل مع الأقليات المكونة لها، والتي يلخصها المقال في خمسة اختيارات رئيسية وهي الاستبعاد والتسامح والدمج والصهر والتعددية، على أن نسلط الضوء بعد ذلك على وضع التعددية الأمريكية عشية أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكيف وقعت هذه الأحداث في فترة تزايد فيها الجدل حول الأقليات وتأثيرها على المجتمع الأمريكي، وذلك على أن نركز في الجزء الأخير من المقال على رد فعل أمريكا كدولة ومجتمع تجاه الأقلية المسلمة الأمريكية بعد ٩/١١.

مفاهيم أساسية: من الاستبعاد إلى التعددية

الدول والمجتمعات تتعامل مع الأقليات المكونة لها من خلال عدة بدائل أساسية، أو خمسة اختيارات رئيسية كما يرصدها هذا المقال.

البديل الأول والأكثر سلبية هو الاستبعاد، ونعني بذلك استبعاد الأغلبية لفكرة وجود جماعات متعددة داخل المجتمع ما قد يترتب عليه سعي الاستبعاديين لاستئصال الجماعات المختلفة عنهم، وترى ديانا إك أستاذة الأديان بجامعة هارفرد الأمريكية أن الاستبعاديين ليسوا غرباء عن المجتمع الأمريكي، فقد ظهرت على مدى التاريخ الأمريكي جماعات متعصبة للثقافة الأنجلو-بروتستانتينية رفضت وجود الآخر، ففي منتصف القرن التاسع عشر - على سبيل المثال - ركز الاستبعاديون الأمريكيون طاقتهم ضد الأقليات الكاثوليكية واليهودية، حيث اتهموهم برفض الاندماج في المجتمع الأمريكي في الوقت الذي رفض الاستبعاديون فكرة دمج هذه الأقليات من أساسه في المجتمع الأمريكي.(١)

البديل الثاني والأقل إيجابية هو التسامح ولا يعني هذا المفهوم في الثقافة الأمريكية الكثير، إذ يرى ليو ريبفو الأستاذ بجامعة جورج واشنطن الأمريكية أن التسامح هو أمر ضروري ومفروض على الأمريكيين بحكم أن المجتمع الأمريكي بطبيعته هو مجتمع من المهاجرين، مما يفرض على الجماعات المكونة للمجتمع الأمريكي في علاقاتها بعضها مع بعض قدرًا من التسامح المتبادل حتى تتمكن من العيش معًا، ولكن هذا التسامح لا يعني الكثير.(٢)

التسامح كما ترى ديانا إك يحدث غالبًا من موقع قوة لا من موقع ضعف، وقد يدفع التسامح الأغلبية إلى التحكم في ذاتها وعدم الاعتداء على الأقليات ولكنه لا يقود إلى الفهم والاحترام المتبادل، كما أن علاقة التسامح - كما يرى ليو ريبفو - هي علاقة هشة ممكن أن تنهار في فترات الأزمات والحوادث القومية الكبيرة كأزمة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

البديل الثالث هو الاندماج، وهو يعني أن تترك الأقلية لتشارك في أكبر المؤسسات المكونة لمجتمعها، وتؤكد الخبرة التاريخية الأمريكية - كما يرى مصطفى مالك وهو باحث هندي مقيم في الولايات المتحدة - أن اندماج الأقليات في المجتمع الأمريكي يحدث بشكل تدريجي على فترات زمنية طويلة، فالأجيال الأولى المهاجرة من أي أقلية لا تتمكن من تحقيق الاندماج الكامل، والذي يتأتى فقط للأجيال الثانية وربما الثالثة، حيث يتم الاندماج على مراحل

خصوصًا في أوساط الأقليات الدينية الأمريكية المتعددة عرقيًا كاليهود والكاثوليك والمسلمين، فالأقليات الثلاثة السابقة تتكون من جماعات عرقية مختلفة، فالمسلمون - على سبيل المثال - يوصفون بأنهم أكثر الأقليات الدينية الأمريكية تعددية داخلية نظرًا لأن المسلمين الأمريكيين يمثلون غالبية في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكي تندمج أقلية كالأقلية المسلمة في المجتمع الأمريكي ينبغي لها أن تحقق درجة من التجانس الداخلي وأن تقوم بنشر هوية مشتركة بين أعضائها أولاً حتى يبدؤوا في النظر لأنفسهم كجماعة مسلمة ذات هوية مشتركة وليس كمجموعات عرقية ووطنية وثقافية متعددة ومختلفة، وعندما يتحقق هذا التجانس فإنه سوف يساعد المسلمين على الاندماج في المجتمع الأمريكي كأقلية مسلمة موحدة.(٣)

بقي لنا أن نشير إلى أن اندماج أي أقلية في المجتمع الأمريكي ليس هبة تمنحها الأغلبية للأقلية، فالاندماج يحدث بعد كفاح ومجهود سياسي واقتصادي كبير، وخبرة الأفارقة الأمريكيين التاريخية وكفاحهم لنيل حقوقهم المدنية خير دليل على ذلك.

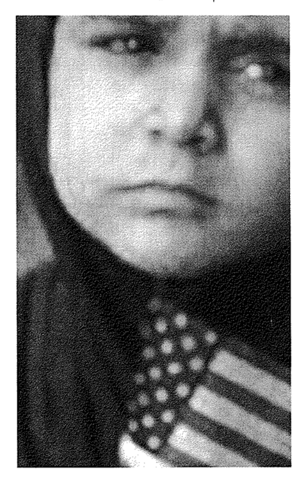
البديل الرابع هو الصهر، وهو بديل مفضل للأغلبية التي تسعى لصهر الأقلية في المجتمع على المستويات الثقافية والدينية والعرقية، وذلك من خلال التزاوج والتبشير الديني والضغط الثقافي، وقد كان الصهر البديل المسيطر للنخب الأمريكية المسيطرة حتى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث كان ينظر للمجتمع الأمريكي على أنه بوتقة صهر كبيرة تصهر أعراق الأقليات المختلفة وتحولها إلى نسيج أمريكي جديد واحد.

ولكن الدراسات الأساسية في علم الاندماج الأمريكي - كدراسة عالم الاجتماع الأمريكي ميلتون جوردون الصادرة في منتصف الستينيات من القرن الماضي بعنوان «الانصهار في الحياة الأمريكية: دور العرق والدين والأصل الوطني» - أكدت أن للانصهار حدودًا، فالانصهار كما يرى جوردن يتوقف عند حدود كبرى وعلى رأسها الدين.(٤)

فعلى سبيل المثال نجحت بوتقة الصهر الأمريكية تاريخيًا في صهر الخلفيات العرقية والوطنية للمهاجرين الأوروبيين الذين استقروا في أمريكا، فلم يعد - بمرور الزمن - هناك وجود يذكر للهويات الوطنية للمهاجرين الأوروبيين الأمريكيين - كالهوية الإيطالية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، حيث ذاب أبناء تلك الهويات في الأغلبية الأمريكية البيضاء، ولكن بوتقة الصهر الأمريكية فشلت في الوقت نفسه في تحويل جميع هؤلاء المهاجرين إلى دين واحد، حيث ظلت الأديان الأمريكية التقليدية الكبرى كالبروتستانتينية والكاثوليكية واليهودية موجودة وقائمة وذات تأثير.

البديل الخامس والأكثر إيجابية هو التعددية، ويقصد بالتعددية هنا أن تترك الأقليات لتندمج في المجتمع سياسيًا واقتصاديًا وأن تشارك في أكبر مؤسسات المجتمع الذي تعيش فيه دون أن يفرض عليها التخلي عن ثقافتها ودينها لصالح الثقافة والدين السائدين.

وهنا تؤكد ديانا إك أن التعددية رغم إيجابياتها هي عملية صعبة التحقيق بسبب طبيعة البشر وصعوبة تحقيق التناغم الكامل بين جماعات عديدة مختلفة،



إذ تشبه ديانا إك التعددية بالآلات الموسيقية المتعددة التي تؤدي لحنًا واحدًا معًا، وهي بدون شك عملية صعبة تحتاج لمران طويل وليس من السهل الوصول إليها.

لذا يلتمس محللون مثل بريما كورين - أستاذ علم الاجتماع بجامعة سيركيوس الأمريكية - قدرًا من العذر للولايات المتحدة بحكم أنها واحدة من أكثر بلدان العالم تعددية خصوصًا على المستوى الديني، فحتى الأديان الأمريكية الكبرى كالمسيحية تتمتع بتعددية داخلية كبيرة للغاية.(٥)

بقى لنا في نهاية هذا الجزء أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن وضع أقلية ما داخل مجتمع وموقف هذا المجتمع من تلك الأقلية من حيث استبعادها أو التسامح معها أو دمجها أو غير ذلك هو أمر تحدده بالأساس المؤسسات الكبرى بهذا المجتمع وعلى رأسها مؤسسات الدولة السياسية والتشريعية. فلو قامت دولة ما - على سبيل المثال - بإقرار سياسات أو تشريعات تنظم وضع الأقليات بها فمن شأن هذه القواعد المفروضة من قبل الدولة أن تترك تأثيرًا شديد القوة على وضع الأقليات داخل هذا المجتمع.(٦)

وهذا لا يقلل من دور المجتمع في مقابل دور الدولة في تحقيق الاندماج، فالمجتمع كأفراد ومؤسسات مدنية له دور كبير في نشر التفاهم والاحترام المتبادل بين الجماعات المشكلة له، ولكن عندما يترسخ التمييز في قوانين الدولة ومؤسساتها الكبرى والنخب المسيطرة يصبح من الصعب على المجتمع وحده أن يحقق التناغم المنشود.

المجتمع كأفراد ومؤسسات مدنية له دور كبير في نشر التفاهم والاحترام المتبادل بين الجماعات المشكلة له، ولكن عندما يترسخ التمييز في قوانين الدولة ومؤسساتها الكبرى يصبح من الصعب على المجتمع وحده أن يحقق التناغم المنشود

التعددية الأمريكية عشية الحادي عشر من سبتمبر

يرى تشارلز هيرشمان الأستاذ بجامعة واشنطن الأمريكية أن المجتمع الأمريكي في بدايته لم يكن متسامحًا أو متدينًا، فنسبة المتدينين في المجتمع الأمريكي في أواخر القرن الثامن عشر لم تتعد الخمس، كما أن التسامح الديني لم يكن الخصلة السائدة بين أبناء الأديان الأمريكية، فبعض الطوائف الدينية البروتستانتينية التي هاجرت من أوروبا بحثًا عن حريتها الدينية في العالم الجديد لم تكن متسامحة مع غيرها على الإطلاق، لذا تعرض اليهود والكاثوليك وطوائف مسيحية أخرى غير بروتستانتينية لكثير من التمييز. وهنا يرى هيرشمان أن الصراع المستمر بين الطوائف الدينية الأمريكية هو الذي أدى إلى نشاط الكنائس الأمريكية في اجتذاب الأمريكيين للدين، كما أنه دفع بالطوائف الدينية المضطهدة إلى طلب مزيد من الحريات الدينية، وثم فإن الحرية والتعددية الدينية الأمريكية هي نتيجة للصراع بين الطوائف الدينية الأمريكية وليس العكس. كما يرى هيرشمان أن التعصب الديني في أمريكا لم يفقه سوى التعصب العرقي.(٧)

وبعد كفاح طويل نجحت الأقليات الدينية مثل الكاثوليك واليهود والأقليات العرقية مثل الأفارقة والآسيويين الأمريكيين في الحصول على مزيد من الحقوق والحريات داخل المجتمع الأمريكي وإن كانت أيضًا قد تعرضت لقدر كبير من الانصهار.

وقد بلغت ثورة الحقوق المدنية الأمريكية ذروتها في منتصف ستينيات القرن العشرين ساعد على ذلك مرور المجتمع الأمريكي بعدد من التحولات الثقافية والاجتماعية والسياسية الكبرى، مثل حرب فيتنام، وثورة الأفارقة الأمريكيين لنيل حقوقهم المدنية، وانتشار الثورة الثقافية وأفكار اليسار في أوساط الشباب الأمريكي، وهي أفكار دفعت المجتمع الأمريكي نحو مزيد من النقد الذاتي.

كما دفعت هذه التغيرات أمريكا نحو مزيد من التعددية، حيث ارتبطت هذه التعددية بفتح باب الهجرة أمام الأجانب للولايات المتحدة، وهنا يشير بريما كورين إلى أن تغير قوانين الهجرة في عام

١٩٦٥م سمح بدخول حوالي ثلاثة أرباع مليون مهاجر جديد لأمريكا سنويًا. وفي عقد التسعينيات وحده دخل أمريكا تسعة ملايين مهاجر. ومع تراجع نسب الإنجاب في المجتمع الأمريكي تشير الإحصاءات حاليًا إلى أن خمس المواليد الأمريكيين الجدد يولدون لأمهات أجنبيات، وتزيد هذه النسبة في مناطق تركز المهاجرين حيث يعيش ٧٧٪ من المهاجرين لأمريكا في ست ولايات أساسية وهي كاليفورنيا ونيويورك وتكساس وفلوريدا ونيوجرسي وألينوي.

لذا يعتقد كورين أن العقود الأخيرة شهدت واحدة من أكبر موجات الهجرة لأمريكا، والواضح أيضًا أن هذه الموجة الحديثة تمتعت بقدر أكبر من الحقوق والحريات مقارنة بالموجات السابقة بفعل عدة عوامل أساسية على رأسها التعددية الثقافية التي سادت منذ الستينيات والتي شجعت الأقليات والمهاجرين الجدد على الاحتفاظ بهوياتهم الثقافية والإثنية ورفض الذوبان في المجتمع الأمريكي، أضف إلى ذلك تطور وسائل الاتصال والمواصلات التي سهلت للأقليات عملية الاتصال بأوطانهم وثقافاتهم الأصلية.

إضافة إلى عامل ثالث هام وهو ظاهرة عودة الدين التي انتشرت في أمريكا والعالم منذ سبعينيات القرن العشرين، حيث يرى تشارلز تشارلز هيرشمان أن الدين والتدين أديا دورًا متزايدًا في تشكيل علاقة المهاجرين الجدد بالمجتمع الأمريكي، فالمجتمع الأمريكي بمرور الزمن أصبح متدينًا بشكل متزايد، كما رفضت الأديان الذوبان وأصبحت حواجز أساسية أمام بوتقة الصهر الدينية، كما تميزت المؤسسات الدينية الأمريكية بقدر كبير من القوة والموارد فهي مستقلة تمام الاستقلال عن الدولة، وهي في الوقت نفسه قوية تتنافس على اجتذاب متدينين جدد، لذا تنشط المؤسسات الدينية الأمريكية في توفير عدد كبير من الخدمات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية أحيانًا للمهاجرين الجدد، وبسبب صدمة الغربة وحنين المهاجرين الجدد القوي لثقافاتهم ولغاتهم الأم تمثل المؤسسات الدينية ملاذًا أساسيًا لهم.

أن الصورة الحقيقية لتبعات أحداث الحادي عشر من سبتمبر على موقف المجتمع الأمريكي من الأقلية المسلمة الأمريكية لم تتضح كاملة بعد، والسنوات القادمة سوف تكون هامة ومؤثرة في إيضاح تلك الصورة، كما أنه من المؤكد أن المسلمين الأمريكيين لن يقفوا مكتوفي الأيدي

أما العامل الرابع الذي يشير إليه بريما كورين هو أن المهاجرين والأقليات لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام الأغلبية فهم يسعون بشكل مستمر ومثابر للحصول على مزيد من الحريات والحقوق عن طريق تنظيم أنفسهم والعمل مع السياسيين وبناء التحالفات مع المهاجرين والأقليات الأخرى، مشيرًا إلى سعي المسلمين الأمريكيين المتزايد للعمل مع الأقليات الأخرى مما دفع كثيرًا من السياسيين الأمريكيين مؤخرًا للاعتراف بالإسلام والحديث عن الأديان السماوية الثلاثة - وليس المسيحية واليهودية فقط - كمصدر للقيم والمبادئ الأمريكية.

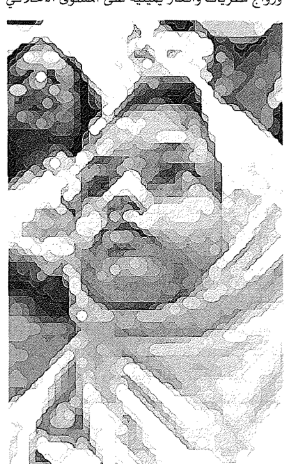
على الجانب الآخر ارتبط صعود العوامل السابقة التي دعمت التوجه نحو التعددية بالمجتمع الأمريكي بظهور عوامل أخرى مضادة خلال الفترة نفسها، وقد بدأت هذه العوامل في البلورة خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين. ويمكن وصف هذه العوامل بظاهرة صعود اليمين الأمريكي وبخاصة بعض الفئات اليمينية التي رأت في التعددية الأمريكية خطرًا على المجتمع.

وليس هناك تفسير واحد لظاهرة صعود اليمين في أمريكا، فهناك من يرى أن أمريكا - وهي بلد به ٢٠٠ قناة تلفزيونية دينية و١٥٠٠ إذاعة دينية - هي أكثر بلدان الغرب تدينًا وهي بلد متدين ومحافظ نسبيًا بطبيعته وهي رؤية عبر عنها جون ميكلثويت وادريان ولدريدج في كتابهما الجديد الشهير «أمة اليمين».(٨)

والرؤية السابقة هي رؤية يفضلها الكتاب الأمريكيون اليمينيون، فقد عبر صموئيل هنتينجتون

في كتابه الجديد «من نحن؟ تحديات الهوية الوطنية الأمريكية» عن رفضه لفكرة أن أمريكا هي بلد من المهاجرين متعددي الأعراق والإثنيات والثقافات، ويرى على النقيض أن الأمريكيين الذين أعلنوا استقلال أمريكا عن الاستعمار البريطاني في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي كانوا مجموعة متجانسة من المستوطنين البريطانيين البروتستانت الذين توافدوا إلى العالم الجديد من أوروبا وبخاصة بريطانيا لكي يستقروا في العالم الجديد ويعمروه للأبد، لذا ينظر هنتينجتون للمهاجرين الجدد ودعاوى اليسار الأمريكي للتعددية كتهديد للهوية الأمريكية كما يراها هو.(٩)

وقد اتخذت ظاهرة صعود اليمين في أمريكا عدة مظاهر أساسية خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين مثل انتشار التدين وصعود النفوذ السياسي للجماعات المسيحية المتدينة، وسعي هذه الجماعات لتنظيم أنفسها سياسيًا، وصعود نفوذ الجمهوريين في مجلسي النواب والشيوخ بالكونجرس الأمريكي، ورواج نظريات وأفكار يمينية على المستوى الأخلاقي



الأمريكي، ورواج بعض المفكرين من أصحاب الأفكار المعادية للمهاجرين والتعددية.

من المهم هنا أن نؤكد أن هذه العوامل لم تكن مرتبطة بحوادث الحادي عشر من سبتمبر، فالعوامل السابقة هي عوامل كبرى تبلورت في الولايات المتحدة على مدى عدة عقود، ومن ثم عندما وقعت أحداث سبتمبر فإنها لم تقع في فراغ فقد وقعت في مجتمع أمريكي يعيش فترة صراع متنام بين قوى اليمين المتصاعدة وقوى اليسار التي سيطرت على المجتمع الأمريكي منذ الستينيات.

المسلمون والتعددية الأمريكية بعد ٩/١١

في الجزء السابق من هذا المقال شرحنا وضع التعددية في المجتمع الأمريكي عشية أحداث الحادي عشر من سبتمبر وهو وضع تميز بقدر متزايد من الانفتاح والحرية اللذين اكتسبتهما الأقليات الأمريكية بعد كفاح طويل خصوصًا منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين، وأوضحنا كيف بدأت التعددية الأمريكية تتعرض لتهديدات متنامية خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين بفعل صعود قوى اليمين الأمريكي.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م زادت من التهديدات التي تتعرض لها التعددية الأمريكية لسببين رئيسين على الأقل، أولهما أن أحداث ٩/١١ والحرب على الإرهاب أضعفتا دور المجتمع في مواجهة الدولة بالولايات المتحدة، وذلك كرد فعل لفترات الأزمات التي تتطلب وضع زيادة نفوذ الدولة ودورها في توجيه المجتمع وحشد طاقاته في فترات الحروب.(١٠)

وقد ترتب على الظاهرة زيادة الطلب على تدخل الدولة والسلطات التنفيذية لضمان الأمن القومي الأمريكي حتى لو أدى ذلك إلى الحد من بعض الحريات المدنية، حتى إن استطلاعًا أجراه في أواخر العام الماضي مركز أبحاث تابع لجامعة كورنيل الأمريكية كشف أن ٤٤٪ من الأمريكيين يعتقدون أنه ينبغي للحكومة الأمريكية التدخل للحد من حقوق مسلمي أمريكا المدنية.(١١)

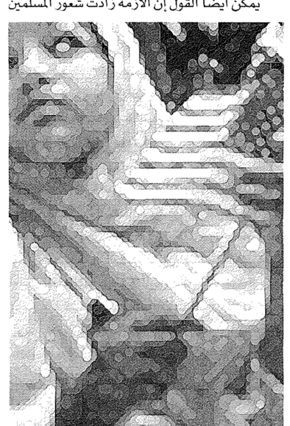
العامل الثاني هو صعود نوع من القومية الأمريكية الخطرة التي يمتزج فيها الدين بالقومية بمشاعر وأفكار مبسطة مثالية يرى فيها الشعب الأمريكي

نفسه كشعب مثالي صاحب رسالة يقف في جانب الخير ولكنه في الوقت نفسه ضحية مظلوم لا يفهمه الآخرون، وهي فكرة عبر عنها بوضوح باحث أمريكي يعمل بمعهد كارنيجي لدراسات السلام يدعى أناتول ليفين في كتاب أصدره حديثًا عن القومية الأمريكية، ويرى ليفين أن خطورة هذه القومية تكمن في سذاجتها وفي خلطها القومية بالدين وفي سهولة استغلالها من قبل الساسة الأمريكيين لتعبئة الشعب الأمريكي ضد الآخر داخليًا وخارجيًا.(١٢)

وفي ظل العوامل والظروف السابقة يمكن القول إن وضع المسلمين كأقلية داخل المجتمع الأمريكي تأثر منذ أحداث سبتمبر على المستويات الأساسية التالية:

على المستوى الإيجابي زاد الاعتراف الأمريكي الرسمي بالإسلام والمسلمين والمؤسسات الدينية الإسلامية كأجزاء أساسية من المجتمع الأمريكي، وقد أتى هذا الاعتراف من أعلى مستويات القيادة السياسية الأمريكية بما في ذلك الرئيس الأمريكي نفسه مما أغضب بعض القيادات اليمينية المتطرفة.(١٣)

يمكن أيضًا القول إن الأزمة زادت شعور المسلمين



الأمريكيين بهويتهم وبالحاجة للتوحد والعمل معًا والنشاط على المستويات السياسية والحقوقية للدفاع عن حقوقهم وحرياتهم.

على الجانب السلبي زادت الأزمة من دعاوى الجماعات اليمينية المعادية للتعددية والأقليات والمهاجرين. ويجب هنا أن نوضح أن دعاوى تلك الجماعات السلبية لا تستهدف المسلمين وحدهم بل تستهدف أقليات أمريكية أخرى - كالأمريكيين اللاتينيين - بدرجة أكبر أحيانًا، فكتاب صموئيل هنتينجتون السابق الإشارة إليه في هذا المقال استهدف الهجرات اللاتينية الأمريكية بشكل أساسي بحكم حجمهم الكبير وسرعة نمو أعدادهم في الولايات المتحدة مقارنة بالأقليات الأخرى.

لكن المشكلة تكمن في أن الضغوط ولهجة العداء التي يتعرض لها المسلمون في أمريكا لا تتناسب بأي شكل من الأشكال مع حجم وجودهم في الولايات المتحدة، فالعداء للإسلام كما يرى كاتب مثل أناتول ليفين يستغل أسوأ استغلال، إذ يتم تضخيم الخطر الإسلامي لتبرير أفكار يمينية متطرفة، وهي فكرة عبر عنها بصراحة هنتينجتون في كتابه الأخير، إذ يتحدث هنتينجتون في غالبية كتابه عن خطر الهجرات اللاتينية الأمريكية على المجتمع الأمريكي بشكل أساسي، ولكنه رغم ذلك يروج في خاتمة كتابة لفكرة أن العداء للإسلام قد يمثل أداة لتوحيد الأمريكيين حول هويتهم.

أضف إلى ذلك حقيقة هامة تشير إليها تقارير الحقوق المدنية الخاصة بالمسلمين الأمريكيين، وهي زيادة التمييز ضد حقوق المسلمين الأمريكيين من قبل مؤسسات الدولة والسلطة التنفيذية، إذ يشير أحدث التقارير الخاصة بحقوق المسلمين في أمريكا خلال عام ٢٠٠٣م والصادر عن مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) وهو أكبر مؤسسات الحقوق المدنية المسلمة الأمريكية إلى أن أماكن العمل كانت تمثل المصدر الأول من مصادر التمييز ضد مسلمي أمريكا حتى عام ٢٠٠٢م وهو العام الذي تساوت فيه أماكن العمل مع المؤسسات الحكومية كمصدر أول للتمييز ضد مسلمي أمريكا وفقًا لتقارير كير، أما في عام ٢٠٠٣م فقد أتت المؤسسات الحكومية في المرتبة الأولى بنسبة ٢٩٪ من مجمل حوادث التمييز ضد

مسلمي أمريكا في ذلك العام، بينما حلت أماكن العمل ثانية بنسبة ٢٣٪.

العامل الرابع هو أن أحداث سبتمبر أعطت فرصة لأصحاب التوجهات الاستبعادية والمعادية لمسلمي أمريكا لتصوير مسلمي الغرب بصفة عامة ومسلمي أمريكا بصفة خاصة على أنهم جماعات ترفض الاندماج في المجتمعات الغربية وتحمل قيمًا منافية لقيم الحرية والتعددية، في الوقت الذي يرفض فيه الاستبعاديون فكرة دمج المسلمين في المجتمعات الغربية من أساسه، بل إن أفكار الاستبعاديين قادت في أحيان كثيرة إلى التمييز ضد المسلمين والاعتداء عليهم.(١٤)

وفي النهاية يجب أن نوضح أن الصورة الحقيقية لتبعات أحداث الحادي عشر من سبتمبر على موقف المجتمع الأمريكي من الأقلية المسلمة الأمريكية لم تتضح كاملة بعد، والسنوات القادمة سوف تكون هامة ومؤثرة في إيضاح تلك الصورة، كما أنه من المؤكد أن المسلمين الأمريكيين لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الأحداث وسوف يكون لنشاطهم للدفاع عن حقوقهم ومكانتهم في المجتمع الأمريكي في الفترة الحالية أكبر الأثر على صياغة موقف المجتمع الأمريكي تجاههم لسنوات عديدة قادمة. ■

الهوامش

1- Diana L. Eck. New Religious America: Managing Religious Diversity in A Democracy: Challenges and Prospects for the 21st Century. Keynote Address delivered Biat MAAS International Conference on Religious Pluralism in Democratic Societies. Kuala Lumpur. Malaysia. August 2002.

2- Leo P. Ribuffo. If We Are All Multiculturalists Now. Then What? Reviews in American History. Baltimore: Dec. 2004. Vol. 32-4. p. 463.

3- Mustafa Malik. Muslims Pluralize the West. Resist Assimilation. Middle East Policy. Washington. Spring 2004.Vol. 11-1. p. 70.

4- Milton Gordon. Assimilation in American Life: The Role of Race. Religion. and National Origins. Oxford University Press. 1964.

5- Prema Kurien. Intraduction: The Impact of Immigrants on American Institutions: The International Journal of Sociology and Social Policy. Patrington. 2004. Vol. 23-7/8. p. 1.

6- See for example: Gary P. Freeman. Immigrant Incorporation in Western Democracies: The International Migration Review. New Yor. Fall 2004. Vol. 38-3. p. 945.

7- Charles Hirschman. The Role of Religion in the Origins and Adaptation of Immigrant Groups in the United States. The International Migration Review. New York: Fall 2004. Vol-38-3. p. 1206.

8- John Micklethwait and Adrian Wooldridge. The Right Nation: Conservative Power in America. The Penguin Press. New York. 2004.

9- Samuel P. Huntington. Who Are We? The Challenges to America's National Identity. Simon & Schuster. New York. 2004.

10- Michael W. Spicer. The War on Terrorism and the Administration of the American State. Public Administration Review Washington. Sep. 2002. Vol. 62. p. 63.

11- The Media & Society Research Group. MSRG Special Report: Restrictions on Civil Liberties. Views of Islam & Muslim Americans. Cornell University. New York. December 2004.

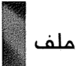
12- Anatol Lieven. American Right or Wrong: An Anatomy of American Nationalism. Oxford University Press. 2004.

13- See for example: Stephen Mansfield. The Faith of George W. Bush. Penguin Group. New York. 2003.

14- See for example: Paul Statham. Resilient Islam. Harvard International Review. Cambridge. Fall 2004. Vol. 26-3. p. 54.

Tom Tancredo. Immigration. Citizenship. and National Security: The Silent Invasion. Mediterranean Quarterly. 2004. Vol. 15-4. p. 4.

Raphael Cohen-Alnagor. Liberalism and the Limits of Multiculturalism. Journal of Canadian Studies. Peterborough. Spring 2001. Vol. 36-1. P. 80.



اليابانيون ينسون الماضي!

مصافحة الآخر ب «القوة الناعمة»

مسعود ضاهر*- بيروت

*كاتب ومفكر لبناني

بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، وتحت ضغط مباشر ورقابة صارمة من الوجود العسكري الأميركي على أراضيها، تبنت اليابان سلسلة من التدابير السلمية التي نص عليها الدستور الجديد.
فقد حرمت من التسلح، والمشاركة في أية أعمال عسكرية خارج أراضيها. وكان عليها أن تبني استراتيجية جديدة لإعادة استنهاضها على أسس سلمية، مع الانفتاح التام على جميع التيارات السياسية والثقافية والدينية، لتعزيز دور اليابان في عصر العولمة والنظام العالمي الجديد.

ما يعنينا في حدود هذه المقالة هو تركيز اليابان في النصف الثاني من القرن العشرين على فلسفة التسامح والغفران حتى مع الأميركيين الذين ضربوها بقنابل نووية على هيروشيما وناغازاكي. وقد استعاضت عن فلسفة القوة التي حكمت سياستها لقرون طويلة قبل هزيمتها في عام ١٩٤٥م باعتماد مبدأ «القوة الناعمة» التي تقوم على تدريب الإنسان الياباني على الأعمال الإنسانية، وشرعية التنافس التجاري، والإبداع الثقافي والفني.

آمنت اليابان المعاصرة بتفاعل الحضارات والأديان والثقافات المجاورة لها في الهند والصين وكوريا، أو البعيدة عنها في أوروبا وأمريكا. وقد وظفت ذلك التفاعل وما رافقه من مقولات ثقافية، وعلوم عصرية، وتكنولوجيا متطورة في خدمة الإنسان الياباني. وبدا أثر سياسة التسامح واضحًا في سلوك الإنسان الياباني الاجتماعي، وممارساته الدينية، ومؤسساته التربوية، ونظامه السياسي، وعلاقاته الاجتماعية، وقيم العمل وتقاليد الزواج وغيرها. فتشكلت الثقافة اليابانية العصرية كنتاج للتفاعل الحر مع الثقافات والحضارات الأخرى. وشكلت الديانات التقليدية، كالبوذية والطاوية والشنتو والكونفوشيوسية، سمة بارزة من سمات المجتمع الياباني المعاصر وهو في أوج تقدمه التكنولوجي المتطور باستمرار منذ بداية نهضة اليابان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى الآن.

لقد تبنى اليابانيون طقوس الديانة البوذية وشعائرها التقليدية الصارمة لقرون عدة، ثم طوروا الكثير من مفاهيمها، واستخدموا إلى جانبها ديانة الشنتو أو عبادة أرواح الآلهة التي تتجسد في نماذج ملموسة على الأرض وليس في السماء، وهو ما يعرف باليابانية باسم «كامي نو ميتشي».

فأدخلت ديانة الشنتو طقوسًا جديدة لم تكن معروفة سابقًا في عالم الروحانيات البوذية، ومنها تقديس مظاهر الطبيعة، وعبادة الإمبراطور، وتقديس الآباء والأجداد. وأقيمت لها معابد جديدة

لا تضم تماثيل لبوذا بل تقتصر على رموز دنيوية.

منذ إصلاحات الإمبراطور مايجي، أصبحت الشنتوية الديانة القومية الأولى في اليابان. ويستخدم الشعب الياباني طقوسها بكثافة في مختلف المجالات لدرجة أن غالبية اليابانيين لا تقيم تعارضًا بين البوذية والشنتوية، بل تعلن انتماءها الصريح إلى الديانتين معًا. واضطر دعاة البوذية الأصلية إلى تطوير طقوسها القديمة. فهناك الآن فئة محدودة ما زالت تمارس اليوم طقوس البوذية التقليدية، في حين أن غالبية اليابانيين تمارس طقوس البوذية الملقحة بطقوس الشنتو بعد أن تحررت من قيود التزمت الديني. ثم تفاعل الشعب الياباني بحرية تامة مع الديانات الأخرى التي وفدت حديثًا إلى اليابان كاليهودية، والمسيحية، والإسلام، وبات عدد المؤمنين بها يزيد على مليوني ياباني في نهاية القرن العشرين. ويتمتع جميع اليابانيين بحرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، وبناء كنائسهم، ومساجدهم، وممارسة طقوسهم الخاصة بالولادة، والزواج، والوفاة، والأعياد وغيرها. مع ذلك، بقيت جميع الأديان مبعدة عن بنى الدولة الحديثة، أو التأثير في نظمها، وقوانينها، وقراراتها.

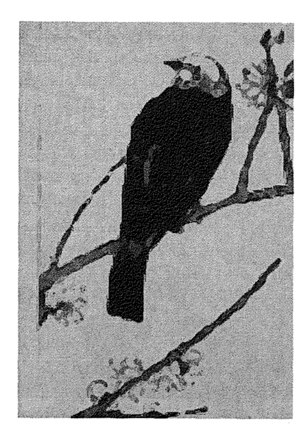
ومع أن الإمبراطور الياباني يعتبر رمزًا دينيًا لدى جميع اليابانيين، فقد انحصر دور الدين في مجال الروحانيات، رغم وجود نواب وشيوخ ينتمون لحزب «الكوميتو» المتشدد في تقاليده البوذية الصارمة.

ونظرًا لعدم إقحام الدين في السياسة، برز تفاعل حقيقي ما بين مختلف فئات الشعب الياباني من طريق احترام الأديان، والمشاركة الحرة في الطقوس الدينية.

لقد نجحت اليابان في بناء حداثة سليمة لا تقيم تعارضًا بين الموروث التقليدي والمعاصرة. فضمنت تفاعل الأديان التقليدية مع الأديان الوافدة حديثًا إلى اليابان دون محاولة أي منها الإخلال بخصوصية اليابان التي يفاخرون بها ويعتبرونها من ثوابت شخصيتهم القومية. ومن سمات تلك الخصوصية رفض كل أشكال الانقسام التناحري، الديني، والسياسي، والثقافي في اليابان، والتشديد على وحدة الشعب الياباني، ورفض كل أشكال التعاون مع الخارج على حساب مصالح اليابان العليا.

ومع أن مقولة الخصوصية شديدة التأثير في الفكر السياسي الياباني الحديث والمعاصر، فإن بناء الدولة الديموقراطية ساهم في انفتاح ديانات اليابان التقليدية على الديانات الأخرى، ما ترك آثارًا إيجابية على الدولة والمجتمع معًا. فالتفاعل، على الطريقة اليابانية، لا يعني الاقتباس السطحي دون روية أو تبصر، بل الاستفادة من الجانب الإيجابي في تراث الغير، بعد نقده واستيعابه، وإدخاله في النسيج الثقافي المحلي لتوجيه المجتمع الياباني وجهة حضارية، إنسانية وشمولية. وبهذه الطريقة شكلت الثقافات الإنسانية والأديان مصدر غنى للثقافة اليابانية المحلية. فراكمت معرفة إنسانية عميقة، واغتنت بثقافات الآخرين وحولتها إلى ثقافة إبداعية ذات منحى حضاري شمولي.

لقد شكل نظام القيم الياباني نموذجًا يحتذى لكيفية التعاون الوثيق بين الدين والدولة على قاعدة الانفتاح التام على جميع الثقافات والأديان. فقد تم تغليب مصالح اليابان العليا على المصالح



الضيقة للشركات الاحتكارية الكبيرة، والتكتلات المالية العملاقة التي تضم مجموعة بنوك تعتبر من البنوك الأولى في العالم من حيث المدخرات والقدرات التنافسية. وحرص اليابانيون على توسيع الطبقة الوسطى كصمام أمان لامتصاص التوترات الاجتماعية التي تعصف بالمجتمعات ذات الانقسام الطبقي الحاد. ويفاخر اليابانيون اليوم بأن لديهم نسبة مرتفعة جدًا من الطبقة الوسطى التي تتجاوز التسعين بالمائة، وهي تساهم في بناء مجتمع مستقر في عصر العولمة والتبدلات الدولية المتسارعة. ويعود الفضل في استقرار المجتمع الياباني المعاصر إلى تمجيد ثقافة السلام والديموقراطية، والتنمية البشرية المستدامة، والتصالح مع دول الجوار، والحوار بين الثقافات والأديان، وعدم إقحام الدين في السياسة، ونبذ كل مقولات العنف والسيطرة والاستعلاء القومي وصراع الثقافات.

على جانب آخر، ومع غياب الموروث السلبي الاستعماري بين العرب والمسلمين من جهة، واليابان من جهة أخرى، تم التركيز على نقاط التلاقي والتفاعل الثقافي والحضاري الإيجابي بين الجانبين. وعقدت بين العرب واليابانيين مؤتمرات ثقافية عدة تحت شعار «تفاعل الثقافات والحضارات». وقد نبه المشاركون فيها لمخاطر استمرار العلاقات اليابانية مع العرب على قاعدة وحيدة الجانب تقوم على الحد الأقصى من التبادل التجاري مقابل الحد الأدنى من الحوار الثقافي وتبادل الخبرات العلمية والتكنولوجية والأكاديمية والفنية والأدبية وغيرها. فهناك إهمال شبه تام لدور العلاقات الإنسانية على أنواعها في تعزيز الروابط بين العرب واليابانيين مما ينعكس سلبًا على فهم عقلاني للمقولات الثقافية لدى الجانبين. ويشدد اليابانيون على أهمية مقولة التسامح والغفران في عصر العولمة، لأن الإبقاء على «التاريخ العبء» سيقود إلى تفجير المزيد من الحروب العالمية. وتكمن وظيفة الأمم المتحدة الأساسية في درء مخاطر تلك الحروب والعمل على حل النزاعات الحدودية والقومية والعرقية بالطرق الدبلوماسية.

من جهة ثانية، يرى اليابانيون أن مقولة «الفلسفة الناعمة» وليس «فلسفة القوة» هي الأكثر

حرص اليابانيون على توسيع الطبقة الوسطى كصمام أمان لامتصاص التوترات الاجتماعية التي تعصف بالمجتمعات ذات الانقسام الطبقي الحاد. ويفاخر اليابانيون اليوم بأن لديهم نسبة مرتفعة جدًا من الطبقة الوسطى التي تتجاوز التسعين بالمائة، وهي تساهم في بناء مجتمع مستقر في عصر العولمة والتبدلات الدولية المتسارعة

ملاءمة لعصر العولمة والتكتلات الجغراسياسية والاقتصادية والمالية والإعلامية العملاقة. وقد تم توصيف الغاية من تلك المقولة بأنها تشجع على التنافس الإيجابي بين الشعوب، وذلك بالتحريض على المزيد من الإنتاج وتعميم الرفاه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

لقد ساهم الحوار الثقافي بين مفكرين يابانيين ومفكرين من العالمين العربي والإسلامي في توسيع دائرة التعاون وتعزيز الفهم المتبادل بين الدول العربية والإسلامية واليابان بما يخدم التوجهات الجادة للتعاون والتنسيق وإقامة مجتمع دولي خال من التعصب الديني والعرقي واللغوي.

وهناك ضرورة ملحة لمتابعة الحوار عبر المؤتمرات والندوات الثقافية، وإنشاء مؤسسات أو مراكز ثقافية نظامية لمواصلة الحوار المثمر مع اليابان، وتوسيع آفاقه باتجاه الصين وكوريا والبلدان الآسيوية الأخرى. هذا بالإضافة إلى ضرورة فتح حوار بين الشباب، والأجيال الجديدة، وتأكيد أهمية الترجمة من العربية إلى اليابانية وبالعكس. فالحوار بين العرب واليابانيين، لا بل مع جميع الدول الآسيوية التي أسست لتجارب تحديث ناجحة مدخل مهم لمناقشة المقولات الثقافية المتداولة في عصر العولمة، ومنها مقولات حوار الثقافات والحضارات، و«التسامح»، و«القوة

الناعمة» لأنها تشكل النقيض لمقولات «فلسفة القوة»، و«نهاية التاريخ»، و« صراع الحضارات» التي يراد لها أن تؤدي دورًا خطيرًا جدًا في عصر العولمة بقيادة أميركية وحيدة الجانب.

لقد نجحت تجارب التحديث الآسيوية، بصورة تدريجية في كل من اليابان والصين ثم في الهند ودول النمور الآسيوية، وأحدثت تغييرًا جذريًا في بنى مجتمعاتها، بصورة مرحلية أو دائمة.

بالمقابل، فإن فشل تجارب التحديث في غالبية الدول العربية والإسلامية، وهي دول آسيوية في الغالب، يطرح تساؤلات كثيرة تتطلب تحليلاً معمقًا وليس مقارنة شكلية بين مقولات التحديث الآسيوية. فقد أحدثت التجارب الأولى عملية تغيير جذرية في مجتمعاتها، وساهمت الثانية في الإبقاء على عملية التغريب المفضي إلى الاستلاب والإحباط واليأس.

لقد كان الغرب حاضرًا بقوة في غالبية مقولات التحديث التي طبقت لدى العرب واليابانيين والصينيين. إلا أن الغرب ليس واحدًا بل متعددًا ومتناقضًا في غالب الأحيان. فهو المنادي بالحرية، والمساواة، والإخاء، والحريات العامة والخاصة، واحترام حقوق الإنسان وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها ودون تدخل خارجي من جهة، وهو الغرب المستعمر، دلالة ذلك أن نجاح عملية الإصلاح والتغيير في كل من اليابان والصين والهند ودول النمور الآسيوية كان له دور أساسي في إبعاد المقولات الدينية المتشنجة عن مشاريع الإصلاح

بالغ عدد من المفكرين العرب في التركيز على دور العامل الثقافي في تجديد النهضة العربية لدرجة المطالبة بإعطاء الأولوية للعامل الثقافي وليس للعامل السياسي أو الاقتصادي.

السياسي والاقتصادي والاجتماعي. مما ساهم في تطوير المؤسسات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أسس حديثة تتلاءم مع طبيعة عصر العولمة وثقافاته المسندة إلى علوم عصرية، وتكنولوجيا متطورة، وثورات متسارعة في الإعلام والتواصل.

كما أن نجاح مقولات التحديث في تلك الدول ساهم في الحفاظ على وحدة كل من اليابان والصين والهند، بحيث أنجزت شعوبها مرحلة بناء الدولة – الأمة أو الدولة القومية وبات لديها الاستعداد النفسي والسياسي والاقتصادي للدخول في عصر العولمة من موقع الفاعل.

بالمقابل، أحدث فشل عملية التحديث في العالمين، العربي والإسلامي، هزة عميقة في الوجدان الشعبي كانت له نتائج سلبية للغاية على ولادة وتطور الدولة الوطنية أو الدولة القطرية التي اعتبرت صنيعة الاستعمار الخارجي، ومعوقًا أساسيًا أمام ولادة الوحدة القومية العربية أو وحدة العالم الإسلامي، في زمن الوحدات الجغراسية العملاقة.

فالإصلاح المفضي إلى التحديث السليم يقتضي بالضرورة إصلاحًا للفكر الديني. ولا بد للحداثة السليمة من قاعدة اجتماعية تسندها، وهي للأسف قاعدة ضعيفة في مجتمعاتنا. ذلك أن القيادات المسيطرة لا ترى مصلحة لها في الحداثة والحوار الإيجابي مع الآخر، مما يهيئ بنية واسعة للفكر التقليدي، ويفسر القبول الواسع لمقولات الفكر السلفي. وفي حين استند المصلحون في كل من اليابان والصين إلى فكر اقتصادي علمي، وإلى مؤسسات اقتصادية متطورة، فإن المصلحين العرب أهملوا، إلى حد بعيد، عملية تحديث الفكر الاقتصادي في العالمين العربي والإسلامي، وفشلوا في إنضاج مقولات علمية على أيدي مصلحين اقتصاديين من العرب والمسلمين. وهذا يفسر ضعف الثقافة الاقتصادية في الدول العربية والإسلامية التي لم تدخل في بنية الأطروحات التطبيقية الإصلاحية لتلك البلدان، مما ساهم في تعثر عملية الإصلاح الجذري في بنى المجتمعات العربية والإسلامية. وبالتالي، ليس صحيحًا القول إن تأخر

العرب التاريخي ناجم عن تأخرهم الثقافي. وقد بالغ عدد من المفكرين العرب في التركيز على دور العامل الثقافي في تجديد النهضة العربية لدرجة المطالبة بإعطاء الأولوية للعامل الثقافي وليس للعامل السياسي أو الاقتصادي. لكن التنوير الثقافي المقرون بإصلاح نظم التربية والتعليم والاقتصاد، هو الوحيد القادر على إحداث التنوير السياسي وفق منهج متكامل يرفض أي تقسيم غير مبرر بين الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي. فهي عناصر متشابكة جدًا ولا بد من تكاملها لبناء نهضة عربية جديدة.

إن مشكلة التغيير هي بطبيعتها شمولية، وهي تطول الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية معًا. ولا يكفي أن تكون السلطة بيد جماعة تريد الإصلاح وتحارب الاستغلال وتبشر بقيم التقدم والرقي إذا كانت الدولة نفسها تفتقر إلى الشرعية الشعبية والثقافية، وغير قادرة على بناء تنمية بشرية واقتصادية مستدامة. كما أن غياب مقولات التحديث المسند إلى العلوم العصرية، والتكنولوجيا المتطورة، والمقولات الثقافية الملائمة لعصر العولمة والانفتاح على الشعوب الأخرى وثقافاتها، يعيق عملية الإصلاح والتغيير على مختلف الصعد. وعند البحث في مصادر شرعية الدولة العربية ودورها في إحداث التغيير المطلوب، لا بد من استنباط مقولات عقلانية تدعو إلى تطوير تلك الدولة، وعصرنة مؤسساتها وليس نسفها وبناء دولة تسلطية مكان دولة تسلطية قائمة. إذ تؤدي الدولة دورًا مهمًا على مستوى التوافق الوطني، ويضعف هذا الدور بمقدار ما تكون الدولة تسلطية ومصدر توتر ونزاع بين أبناء الوطن الواحد. ومن شروط الحكم الصالح والقادر على عصرنة المجتمع وإزالة التوتر بين مكوناته البشرية، قيام دولة القانون والمؤسسات، والعمل على فصل فعلي للسلطات، وتحمل المسؤولين تبعات أعمالهم أمام أجهزة الرقابة، وبالتالي أمام الشعب .

ملاحظات ختامية

منذ نهاية الحرب الباردة وما عرف بعصر العولمة، أعدت وزارة الثقافة، ووزارة الاقتصاد والتجارة والصناعة في اليابان برنامجًا متكاملاً لدعم المؤسسات الثقافية والاجتماعية، ومؤسسات حقوق الإنسان، والمنظمات غير الحكومية في الدول الأجنبية التي تعنى بترجمة ونشر التراث الياباني من جهة، وبنشر الحريات العامة والخاصة في بلادها، وتساعد على تطوير النظم الديموقراطية والليبرالية على مختلف الصعد المحلية والإقليمية والدولية.

انطلقت فلسفة المشروع من أن اليابان ترفض أن تقدم نفسها مجددًا كقوة عسكرية عالمية بعد الهزيمة التي لحقت بها في الحرب العالمية الثانية. ونبه الباحثون اليابانيون، والمنظمات الديموقراطية غير الحكومية في اليابان لمخاطر العولمة العسكرية التي تقودها الولايات المتحدة الأميركية بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م. فتحت ستار مكافحة الإرهاب العالمي تم احتلال العراق دون موافقة الأمم المتحدة.

لذلك تبنت اليابان فلسفة النهوض السلمي أو «القوة النظيفة» التي تشجع النشاط الاقتصادي، والحلول الدبلوماسية وليس العسكرية للنزاعات التاريخية الموروثة، وكما تشجع نشر العلوم العصرية، والتكنولوجيا المتطورة، وثمرة ثورات

البيو - تكنولوجيا أو الجينيوم والإعلام والتواصل، وهي تفضل التفاعل أو الحوار وليس الصدام بين الثقافات والحضارات.

تقوم فلسفة «القوة النظيفة» على أساس التركيز على الطاقة الإبداعية الخفية لدى الشعوب، وأبرزها التراث الثقافي، والقدرة على التواصل، والإبداع، والمقولات الأيديولوجية التي تبرز شخصية الأمة وتمايزها عبر العصور، ووسائل نشر المعلومات المقروءة والمسموعة والمرئية، وتنشيط قطاعات الخدمات المدنية، وتشجيع المؤسسات الاجتماعية وغيرها.

تؤدي مقولات ثقافة الانفتاح والتسامح في منظومة الدول الآسيوية، بخاصة اليابان والصين والهند، دورًا أساسيًا في معالجة قضايا الاندماج الاجتماعي، والتغيير السياسي، والإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، والتنمية البشرية المستدامة، والدعوة إلى وعي عامي جديد يشدد على أهمية مقولة«التنوع ضمن الوحدة» بغية تجاوز الانقسامات والتجزئة بأشكالها التقليدية والحديثة.



وذلك يتطلب العمل على إلغاء تمركز السلطة والثروة في أيدي قلة من الأفراد والجماعات على حساب الآخرين، وضرورة تطوير السلطة وترسيخ قيم المساواة والعدالة والحرية والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

ختامًا، إن أولى مهمات النظام العالمي الجديد هو العمل على تجاوز حالة الاغتراب التي تعانيها الشعوب المقهورة والمستغلة في المرحلة الحالية. وذلك يتطلب تنشيط المنظمات الدولية، وبخاصة الأمم المتحدة بعد إصلاح بنيتها، ومؤسسات المجتمع المدني المحلية عن طريق مشاركة الشعب، بحرية وفاعلية في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

فهناك فجوة واسعة وعميقة تفصل بين حلم التغيير الذي يطمح إليه المواطن أو المثقف في الدول المتخلفة والنامية، وبين الواقع المأساوي الذي تعيشه شعوب كبرى مهمشة في عصر العولمة.

ولن يتم تجاوز ذلك الواقع من طريق التبشير والوعظ والإرشاد، بل من خلال برامج عقلانية طويلة الأمد، وسلطة سياسية متنورة على غرار السلطات التي أحدثت تغييرات بنيوية جذرية في اليابان والصين ودول النمور الآسيوية خلال حقبة زمنية قصيرة.

إن إثراء فكر التواصل والتفاعل والتسامح والحوار الإيجابي بين الشرق والغرب لا بد أن يبنى على قاعدة إنسانية تحرر الشعوب من الوعي الزائف الذي حملته التحولات التاريخية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الماضي. وذلك يتطلب بناء رؤية جدلية جديدة للحوار بين الثقافات والحضارات تهدف إلى التحرر من ردود الفعل التي أفرزتها مقولة صدام الحضارات في كثير من دول العالم، وبشكل خاص في العالمين العربي والإسلامي.

ولا بد من إطلاق حوار دائم يفضي إلى تفاعل ثقافي حقيقي على خلفية عولمة إنسانية تغلب مصلحة البشرية على المصالح الطبقية الضيقة وليس عولمة همجية تغلب مبدأ القوة على العقل، وتنذر بحروب مدمرة تهدد أمن وسلام العالم. ■

اليابانيون ينسون الماضي


المعرفة



ثلاث قصص تسامحية :

عندما تحدثنا بلغة آدم و حواء!

مرام عبدالرحمن مكاوي* - بريطانيا

*كاتبة سعودية وطالبة مبتعثة لدراسة الدكتوراه في علوم الحاسبات - المملكة المتحدة

حينما أردت أن أكتب حول موضوع التسامح أغلقت عيني لبعض الوقت، وأخذت أفكر فيما يمكن أن أكتبه حول هذا الموضوع الذي بدا لي من النوع السهل الممتنع. فعن أي تسامح أكتب؟ عن التسامح مع من أساء إلينا بشدة دون ذنب ارتكبناه؟ أم عن التسامح مع الآخر المختلف عنا في كل شيء؟ أو ربما عن التسامح مع أنفسنا وعدم تحميلها ما لا تحتمل؟ لا شك أن ثمة مواضيع عديدة يمكن أن يكون التسامح بشكل أو بآخر محورًا لها.

ثم استقر الرأي بأن أكتب عن التسامح مع الآخر (المختلف) بحكم الزمن الصعب الذي نعيش فيه. والذي صارت فيه مشاهد مروعة كتقطيع الرؤوس، وإهانة السجناء، وتحطيم إنسانية البشر، والمذابح العرقية أمرًا اعتياديًا. رغم أنها في الغالب تقع لا لسبب جوهري، سوى أن المتحاربين ينتمون لمجموعات مختلفة من البشر.

وأيضًا بحكم وجودي حاليًا في مجتمع غربي يختلف أهله عني في كل شيء، ويتشابهون معي في كل شيء في الوقت نفسه. فهم يختلفون عني لكوني مسلمة، لها دين تتخذه شريعة ومنهج حياة، وهم إما مسيحيون ملتزمون بدين لا يعترف لا بكتابي ولا بنبيي من الأساس، أو ماديون يعيشون اللحظة لذاتها ومتعتها الوقتية. وهم يتشابهون معي في أنهم بشر يتألمون ويفرحون، يحبون ويكرهون، ينجحون ويخفقون، مثلي تمامًا. نتيجة احتجت لبعض الوقت حتى أتوصل إليها، وأزداد قناعة بها وأقرر على أساسها كيف ستكون معاملتي معه، هذا الآخر.

لطالما اعتقدت أن الحديث عن التجارب الشخصية أجدى في توصيل الأفكار، وأمتع من السرد الذي يبقى في النهاية سطورًا إنشائية. لذلك فأستعرض ثلاثًا من أهم التجارب التي مرت بي خلال دراستي في المملكة المتحدة، وأثرت بشكل كبير في نظرتي للآخر.

التجربة الأولى، كانت حين وصلنا مصادفة إلى بريطانيا في أسبوع كانت المظاهرات المليونية تعم مدينة لندن الرائعة، في خريف عام ٢٠٠٢م. وكانت تندد بالحرب الوشيكة على العراق، والعدوان الذي أخذت ساعة صفره تقترب، بالإضافة إلى الاحتفاء بمرور عامين على انتفاضة الأقصى. وقفت أتفرج بذهول أنا القادمة من الوطن العربي، على هذه الجموع التي ملأت أهم شوارع العاصمة العتيقة حتى لا يمكن أن تذهب إلى أي مكان إلا وتصادفها، وهي تندد بشدة وبطريقة سلمية في الوقت نفسه بالحرب التي تنوي حكومة هذه البلاد شنها على بلد آخر استجابة لطلب من أقوى حلفائها. شعرت بالحماسة تدب في أوصالي، وبالسعادة تملؤ قلبي، وأنا أرى هذه الجموع المتباينة في كل شيء تتوحد وتتجمع، من أجل قضية عربية و(عالم ثالثية) كقضية العراق أو قضية فلسطين. إنها الفطرة الإنسانية السليمة التي لا تقبل الظلم أيًا كان الظالم وأيًا كان المظلوم، وهو حب السلام وكراهية الحروب العدوانية، التي لم تجلب عبر التاريخ البشري الطويل إلا الدمار للإنسان والأرض والهواء.

وخلال مشاهدتنا للمظاهرة التي استمرت حوالي سبع ساعات ما بين مشي وتوقف، أنشأنا عدة صداقات مع مواطنين إنجليز وأوروبيين. فهذه معلمة منزعجة من صورة المسلمين في الإعلام، وقد زارت مخيمات اللاجئين في لبنان وصممت على أن تحاول من موقعها كمعلمة شرح القضية للمجتمع البريطاني. وهذا رب أسرة يقاطع المنتجات الأمريكية، في حين يتصدى بعض كتابنا العرب المسلمين، لحملات المقاطعة، متذرعين بأمور شتى. وذلك شاب فرنسي، يبتسم ويناصر فلسطين ويقول (إن شاء الله) بلكنة أعجمية جميلة.

لقد شعرت آنذاك بأنه ليس فقط الإعلام الغربي هو الذي يشوه صورتنا، أو يقصر في عرض الصور الإيجابية لشعوبنا المسالمة، ويضخم صورة الإرهابيين منا، بل أيضًا إعلامنا مقصر في توضيح صورة هؤلاء.

لقد تم شحن أدمغتنا عبر الإعلام العربي دومًا بأن الآخر (الغربي، المسيحي، الكافر) شيء واحد، وكتلة واحدة، يكرهوننا ويمضون الليالي الطويلة وهم يبحثون عن السبل الكفيلة بالقضاء علينا وامتصاص ثرواتنا. والحقيقة أنه بالرغم من وجود أناس في مركز القرار الغربي ممن تنطبق عليهم هذه الصفات كما رأينا في أحداث العراق، وهناك كذلك من المثقفين والصحفيين والكتاب من يتعمد الإساءة لنا ولديننا، لكن في الوقت نفسه، فإن هناك الكثير والكثير من الناس الطيبين الذين يحبوننا ويناصرون قضايانا أكثر مما يفعل بعض أبناء جلدتنا. وفي كل بلد طيف بألوان عديدة، درسٌ أهدته إليَّ لندن ذات خريف ساخن!

التجربة الثانية كانت حين عرفت بالمصادفة عن مجموعة من الدورات لتطوير الشخصية التي يقيمها اتحاد الطلبة في الجامعة التي كنت أدرس بها سابقًا.

أولى هذه الدورات، كانت دورة تنظيم الوقت، ولم أندم على حضورها قطّ، فقد خرجت منها بتجربة جميلة، وبصداقات جديدة. كانت الدورة مكونة من تسعة أشخاص، كل منهم من بلد مختلف: (البرتغال، تركيا، بريطانيا، السعودية، غانا، الصين، والهند). وكان هذا بصدق،أجمل ما فيها. فجأة وجدت نفسي،



أنا المسلمة العربية المحجبة، أتناقش، أحاور، وأشارك، وأتعلم، مع أناس من غير جنسي، لوني، أو ديني. وأحدهم، كان شابًا من أبناء طائفة السيخ، كان من الهند، وكان أصغرنا، في حدود الثامنة عشرة تقريبًا، كان ضمن مجموعتي المكونة من ثلاث فتيات وشابين على ما أذكر، وكان علينا أن نحل بعض التمرينات كمجموعة.

في البداية، تضايقت من وجوده، خصوصًا وهو يرتدي تلك العمة البرتقالية الكبيرة! وأحسست أنه أيضًا يكرهني، طبعًا نظرًا للخلفيات الدينية، والتاريخية المتباينة، والمتصادمة، والدموية في بعض الحالات. فهو هندي، وسيخي، وكفى! خصوصًا في هذه الفترة، ففي وقت سابق هذا العام الذي حضرت فيه هذه الدورة، حدث اقتتال فظيع بين المسلمين وغير المسلمين في (كجرات) وغيرها من الولايات الهندية.

لقد أخذت موقفًا منه، ووضعته في قالب، تمامًا كما يفعل الآخرون معي كفتاة محجبة، تنتمي إلى أمة عربية وإسلامية تكره الغرب وتعاديه كما يروج الإعلام الغربي. لكن شيئًا فشيئًا، زالت كل العقد التاريخية، ووجدت نفسي طالبة جامعية عادية، تجلس مع بقية البشر المتباينين وتحاورهم بكل هدوء وأريحية. ففي النهاية نحن بشر وسنظل كذلك، من أب واحد، وأم واحدة، من آدم وحواء.

كان (بول)، وهذا هو الاسم الإنجليزي لهذا الشاب الهندي، لطيفًا، مرحًا، وممتلئًا بالحياة. كان في عمر أخي الأصغر تقريبًا، وقد ذكرني به، بشقاوته الظاهرة، وكسله البادي فيما يتعلق بالدراسة، كما ذكر هو عن نفسه. تغيرت نظرتي إليه من العداء إلى التقبل، خصوصًا أنني كنت قد اكتشفت منذ أيام، عندما كنت أرى زملائي وزميلاتي في الصف من الهنود يتعايشون بعضهم مع بعض بحب وسلام. ويتصرفون كأبناء بلد واحد فعلاً، بغض النظر عن خلفياتهم الدينية والمذهبية، وولاياتهم، ومدنهم، بلا كراهية، أو أحقاد مستفحلة متوارثة. هي في الحقيقة ألعاب سياسية قذرة، يضخمها إعلام أكثر قذارة، حتى إعلامنا العربي نحن يكذب ويضخم أحيانًا. لا أتكلم عن تغطيته للأحداث التي يجب أن نعرفها عما يحل بإخوة الدين في أصقاع الأرض، لكن عن طريق تصوير كل خلاف بأنه خلاف عقائدي. مع أنه قد يكون خلافًا

دنيويًا محضًا، تشعل أواره شهوات السلطة، وأنانية الإنسان ورغبته في أن يحتكر كل الخيرات.

لقد اكتشفت أن بعض الحكومات هي صاحبة المصلحة الأولى في نشر الكراهية بين أفراد الشعب الواحد. والسياسيون هم الذين يقتاتون على دماء المتحاربين من الطرفين، ليظلوا في السلطة، ولإلهاء الناس بعضهم ببعض. هذا ما أسرت إليّ به زميلة من ذلك البلد. وإلا فالإنسان في جوهره هو الإنسان، سواء كان مسلمًا، مسيحيًا، هندوسيًا، سيخيًا، أو حتى ملحدًا. نعم أخوة الدين مقدمة على ما سواها، ولن نعطي الدنية في ديننا، وسنصدح بالحق واضحًا، ولن نسمح بانتقاص شريعتنا، أو إهانة معتقداتنا، أو اغتصاب أراضينا وحقوقنا. لكننا في الوقت نفسه قادرون على التعايش مع بقية خلق الله، الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا، بأخلاق رائعة، واحترام متبادل، وإنسانية متحضرة.

لو أن العالم نظر إلى بعضه، على أنه عائلة واحدة، وأن هذه الأرض بيت الجميع، ووطن الجميع، لما رأينا قتلاً، وحروبًا، ودمارًا، ودماء تسفك بالمجان في أغلب الأحيان. ولو أن المتطرفين من كل قطر ومذهب، ودين وعرق، أغلقوا أفواههم، ولو أن الكتّاب المرتزقة، كفّو أقلامهم، ولو أن السياسيين أشغلوا أنفسهم بما هو أجدى، من التخطيط لخير البشرية جمعاء، ولو أن كل عائلة علمت أبناءها أن الناس سواسية أمام الله، لكان هذا العالم جنة الله في أرضه.

تجربتي الثالثة، كانت مع فتاة يونانية ملحدة. حيث أمضينا ليالي طويلة، في الحديث حول موضوع الدين، وحقيقة هذا الوجود، وعلاقتنا بالخالق. كانت (إيريني) شابة يونانية في التاسعة عشرة، لكنها كانت ذات عقل منفتح لا يفتأ يفكر و يبحث عن الحقيقة، وكنت أنا شابة سعودية، قادمة من مجتمع إسلامي محافظ، معتزة بدينها، متحمسة لشرح هذا الدين وتصحيح ١٪ من الصورة المغلوطة عنه. خصوصًا في هذا الوقت العصيب في صيف ٢٠٠٣م الساخن بعد سقوط عاصمة الرشيد.

أردت أن أخبرها عن الإسلام لكنني لم أرد أن يكون ذلك دعاية دينية فجة، ومكشوفة، لأن هؤلاء القوم يجب أن تتم مخاطبتهم بالعقل لا بالعواطف. ويجب أن نجعل حوارنا معهم حوارًا مفتوحًا غرضه

ذات ليلة قضينا ثلاث ساعات ونحن نتحاور، أنا وإيريني وصديقة يونانية أخرى، وصديقة أيرلندية من أصل عربي. كادت عينا (إيريني) تدمعان آنذاك وهي تقول: «كم أتمنى لو أنني أؤمن بإله وآخرة، عندها أحسست لأول مرة بتعاطف غريب معها، ومع كل غير المسلمين

إطلاع الناس على الحقيقة، وليس إجبارهم على الدخول في الدين، أو الاحتيال عليهم، بإخفاء بعض الحقائق وتحويرها، لنسحبهم للدين ثم ليكتشفوا أننا كذبنا عليهم، وهذه للأسف إحدى أخطر السلوكيات على الدعوة، والتي قد لا تنفر الناس من الدين فحسب، بل تجعلهم يكرهون هذا الدين وأهله لأنهم ظهروا لهم منافقين وانتهازيين.

صديقتي اليونانية العزيزة قالت لي إنه يُفترض أن تكون مسيحية أرثوذكسية، لكنها ملحدة! أما سبب الإلحاد فهو الفساد الشديد في الوسط المسيحي في بلادها من قمة الهرم الكنسي، وصولاً إلى الرهبان الصغار. لكن في الحقيقة وعبر ما لمسته منها أنها غير مقتنعة بإلحادها، وأن أسئلتها الكثيرة والدقيقة لي، تدل على أنها تبحث عن جواب ما، عن حقيقة ما.

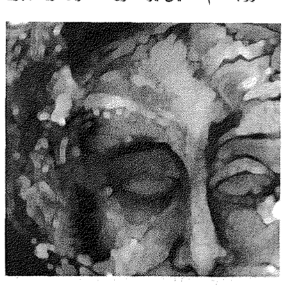
ذات ليلة قضينا ثلاث ساعات ونحن نتحاور، أنا وإيريني وصديقة يونانية أخرى، وصديقة أيرلندية من أصل عربي. كادت عينا (إيريني) تدمعان آنذاك وهي تقول: «كم أتمنى لو أنني أؤمن بإله وآخرة، لأنني سأضطر بلا شك — ذات يوم- إلى دفن أحب الناس إليّ كوالدتي،أريد أن أكون مطمئنة أنها بين يدي رب رحيم». عندها أحسست لأول مرة بتعاطف غريب معها، ومع كل غير المسلمين. نعم اختفت صورة الكافر العدو الذي يجب أن يُحارب بالنسبة لعوام الناس (وليس بالنسبة للجيوش الجرارة التي تغزو بلاد المسلمين ولا للسياسيين المجرمين)، وانقلبت إلى نظرة الطبيب الذي ينظر إلى المريض مشفقًا عليه، وهو يتمنى أن يتناول الدواء، الذي يحتوي على العلاج

الشاي بإذن الله. لقد تحولت نظرتي لها من مجرد «كافرة» إلى كونها «مشروع هداية». نعم لنكن دعاة لا قضاة، دعاة لا إرهابيين. فالبشرية تائهة تبحث عن دواء،عن علاج،عن مخرج،عن الحقيقة. ونحن نملك الحل ونملك الجواب، لكننا لم ننفع به أنفسنا، ولم نعلمه للآخرين علهم يستفيدون منه، ويستطيعون تحقيق ما لم نستطع نحن فعله.

من أجمل ما قالته لي هذه الفتاة الرائعة، بعد أن تناقشنا حول نظرية دارون والخلق، ووضع المرأة في الإسلام، والقيود التي تراها هي على هذه المرأة: «أنتِ ملتزمة بفروض دينك كما أرى، لكنك سعيدة ولست تعيسة كما كنت أتخيل المتدينين عمومًا، وكما أرى الراهبات المحرومات من أبسط ما تريده أي امرأة، أن تُحب وتُحب ويكون لها زوج وأطفال».

كنت أشعر بالسعادة وأنا أشاهد الدهشة والفضول على وجوههن، وأنا أسمع صيحات الإعجاب، حين حدثتهن عن بعض شرائع الإسلام والحكمة منها، وبخاصة الأمور الصغيرة، التي تبدو عادية لنا، لكنها بالنسبة لهن مثيرة للإعجاب. كالطهارة، والأخلاق الإسلامية، وحقوق المرأة في الإسلام، وعلاقة الرجل والمرأة الخاصة، وكيف أن لكل حقوقًا وواجبات، وغيرها. وقد سمحت لهن برؤيتي وأنا أتوضأ، ورأيت الدهشة البدائية الصادقة على وجوههن الحائرة.

بعد تلك الليلة، اقتنعت بأن الحوار بين الحضارات ممكن إن صلحت النيات، كنيتي ونية صديقتي هذه، والتعايش بين البشر ممكن كذلك. وحدهم تجار الحروب هم الذين يرفضون الحوار، ويشجبون



التعايش، ويباركون الصراع. أو أولئك (من طرفنا) الذين أخطؤوا فهم ديننا العظيم وأهدافه. فهم ربما فهموا الحلال والحرام لكنهم أبدًا لم يفهموا مقاصد الشريعة العليا.

فما يوحد البشر أكثر مما يفرقهم، والأفكار العنصرية، والتصادمية، والاستعلائية، والدموية، هي نتيجة للإبداع الإنساني المحض! الذي حاول على مر العصور، أن يضفي عليه هالة مقدسة، وينسبه إلى فكر مقدس، خصوصًا من قبل بعض هؤلاء الذين تصدوا لتفسير الأديان، وشرحها والتبشير بها، وتجميع الأنصار حولهم.

إنني أعرف أنه فيما يتعلق بديني الإسلامي على الأقل لا يوجد ما يحض على العنف والكراهية. هناك دعوة، وهناك جزية، وهناك جهاد، وهناك فتوحات، وهناك دفاع عن النفس والعرض والدين وصد للعدوان الخارجي، لكن لكل هذه الأمور شروطها وواجباتها، وأحكامها، ومواضعها، وليست ارتجالاً ولا عبثًا، وليست بدافع الحقد، أو الكره، أو الاستيلاء على خيرات الآخرين.

البشر، كل البشر، يحبون، يتألمون، يفرحون، يبكون، يضحكون، يلعبون، يأكلون، ويشربون، ويحلمون بغد مشرق. كلهم (ما عدا الشواذ الذين استسلموا للشياطين) يأملون بأن يحققوا أفضل ما يمكنهم في هذه الحياة. وأن يعيشوا بسلام وعدل وحرية. فعلام يقتتلون إذًا؟ الأرض تكفينا جميعًا، والخيرات كثيرة تكفي الجميع، والله خلق كل مخلوق ومعه رزقه، والساحة مفتوحة، ولكل مجتهد نصيب. فلم كل هذا العداء؟ لم كل هذه الحروب وبخاصة في هذا القرن الأمريكي البائس؟ من سيكسب في النهاية؟ لا أحد! كل البشر يعرفون ذلك، لكن بعضهم يعاند ويكابر!

فلننادِ إذًا، بالحب، بالتعايش، بالانفتاح على الآخر، بالتعرف عليه، وتمكينه من التعرف علينا. لا للذوبان، لا لإضاعة الهوية، لا للمساومة على المبادئ، ولا جدال قطعًا في ثوابت الدين. لكن نعم لتحرر الإنسانية في داخلنا، ونعم للاعتراف بالإنسان، أي إنسان. فالله تعالى قد أنزل في كتابه قبل أربعة عشر قرنًا: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. صدق الله العظيم. ■

كن جميلاً..

الشاعر العربي إيليا أبو ماضي، اشتهر كثيرًا بقصائد الشك والألم لكن قصيدته هذه اشتهرت بشطرها الأخير: «كن جميلاً تر الوجود جميلا» الواسع التداول والانتشار.

ولأن القصيدة دعوة للتفاؤل والتسامح، فقد اختارتها «المعرفة» لتفكّه بها ملف «التسامح» هذا العدد.

المعرفة

إيليا أبو ماضي*

أيُّهذا الشاكي وما بك داء ... كيف تغدو إذا غدوت عليلا؟!

إن شر الجُناة في الأرض نفس ... تتوخى، قبل الرحيل، الرحيلا

وترى الشوك في الورد، وتعمى ... أن ترى فوقها الندى إكليلا

هو عبء على الحياة ثقيل ... من يظن الحياة عبئًا ثقيلا!!

والذي نفسه بغير جمال ... لا يرى في الوجود شيئًا جميلا

أحكمُ الناس في الحياة أناس ... علّلوها فأحسنوا التعليلا

فتمتعْ بالصبح ما دمت فيه ... لا تخفْ أن يزول حتى يزولا

وإذا ما أظل رأسَك همٌّ ... قصّر البحث فيه كي لا يطولا

وإذا ما وجدت في الأرض ظلاً ... فتفيّأ به إلى أن يحولا

وتوقع، إذا السماء اكفهرت، ... مطرًا في السهول يحيي السهولا

قل لقوم يستنزفون المآقي: ... هل شفيتم مع البكاء غليلا؟

ما أتينا إلى الحياة لنشقى ... فأريحوا - أهل العقول - العقولا

كل من يجمع الهموم عليه ... أخذته الهموم أخذًا وبيلا

❖ ❖ ❖

كن غديرًا يسير في الأرض رقراقًا.. ... فيسقي من جانبيه الحقولا

لا وعاء يقيّد الماء حتى ... تستحيل المياه فيه وحولا

كن مع الفجر نسمةً تُوسِعُ الأزهار.. ... شمًّا وتارة تقبيلا

لا سمومًا من السوافي اللواتي ... تملأ الأرض في الظلام عويلا

ومع الليل كوكبًا يؤنس الغابات.. ... والنهر والربى والسهولا

لا دجى يكره العوالم والناس.. ... فيلقي على الجميع سدولا

❖ ❖ ❖

أيهذا الشاكي وما بك داء ... كن جميلاً ترَ الوجود جميلا

*شاعر عربي مهجري.



ملف

قتلوا ابني فهل أسامحهم؟!

علي سعيد الشيباني* - اليمن

*كاتب يمني

في نحو الساعة الرابعة بعد صلاة العصر، كنت أجلس في غرفة الاستقبال مع اثنين من الأصدقاء يزورانني لأول مرة في منزلي. وكان ابني بسام يشارك في فعالية سوق خيري أقيم في ساحة مدرسته حيث كانت عائدات السوق الخيري لصالح المدرسة. لذلك كان من الطبيعي أن يتأخر دون أن نشعر بالقلق لتأخر عودته إلى المنزل.

وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع الضيفين الكريمين، سمعنا صوت انفجارات ودمدمة طلقات أو دوي رصاص بشكل مخيف خرجت لأستوضح الأمر، وتبعني الضيوف وكان في انتظارنا منظر مرعب حيث كان جاري العجوز مسجى على الأرض ينزف بغزارة، كان يستغيث إشارة من يده التي رفعها عاليًا، بينما كان الناس في ذهول متجمعين حول مشهد آخر أشد فظاعة، حول جثة ابن الرجل نفسه وقد مزق الرصاص نسيج عنقه، مما جعله يبدو كما لو كان قد ذبح بآلة رديئة، مزقت رقبته شر ممزق.

اتصلت فورًا بقسم الإسعاف في المستشفى الذي كنت أديره قبل انتقالي إلى الإدارة العامة للشؤون الصحية في محافظة تعز، كما اتصلت أيضًا بشرطة النجدة فلم تمض سوى دقائق حتى وصل الإسعاف ووصلت النجدة.

ورغم الحزن على القتيل، شعرت بالارتياح أن استطعت بتوفيق من الله إسعاف الجريح قبل فوات الأوان.

وقبل أن أمد رجلي في العتبة راجعًا إلى البيت سمعت أحدهم يناديني دكتور... دكتور علي... أين بسام ولدك؟ قلت: في المدرسة. سأل مرة أخرى: وأين سيارتك؟ قلت له: مع بسام في المدرسة.

قال: لقد رأيته هنا قبل قليل داخل السيارة، ثم رأيت السيارة تسير إلى الخلف ثم اختفت عن ناظري.. قلت له: شكرًا لك.. بسام هذا اليوم مشغول جدًا.. لا بد أنه عاد من جديد إلى المدرسة. بعد ذلك دخلت المنزل حيث كان ضيوفي قد سبقوني للجلوس فاعتذرت لهم عن انشغالي عنهم ورؤيتهم لهذه المنغصات.

وبعد قليل اتصل بي أحد الأصدقاء يسألني أيضًا عن بسام!

قلت له: في المدرسة.. في السوق الخيري.. قال: سمعت أنه في المستشفى: قلت له: يجوز أن يكون قد وجد أحد المصابين فكان حتمًا عليه أن يقوم بالواجب، ذلك ما كان عليه أن يفعله.. قال: بل هو أيضًا مصاب بجراح طفيفة - حتى لا يفزعني - ثم أخذ الصديق يحثني على أن أستوضح الأمر من قسم الإسعاف.

اتصلت من الفور بقسم الإسعاف، وكانت مفاجأة مذهلة كأنها الصاعقة، خبر قاصم للظهر.. نازلة لم تخطر لي على بال، قال الطبيب المناوب: بسام عندنا هنا.. سألته: هل أوصل أحدًا؟ قال: هو مصاب. التجم لساني، احتبس الصوت في حلقي... سألت بوهن شديد هل ما زال على قيد الحياة؟ قال: إصابته خطيرة، احضر حالاً، لا تتأخر. توقف مني التفكير، ثقل رأسي، أصبت بدوار وتبلد، شلت حركتي، إلا من حركة لا معنى لها ولا هدف.. تارة أجلس وأحيانًا أقف أتظاهر بالتماسك أمام ضيوفي الذين تملكتهم الحيرة، رغم أنهم لم يستوعبوا حجم المأساة بسبب تكتمي بكل ما سمعت، شتات ذهني لا مثيل له وقلق يعصف بالنفس والأعصاب، يفوق حدود قدرة الإنسان على التحمل.

كان بسام في السابعة عشرة من عمره. يعد نفسه لامتحانات الثانوية العامة وكان قد مضى ثلثا العام الدراسي.

وصلت قسم الإسعاف لأجد بسامًا فاقد الوعي.. كان في غيبوبة شديدة بسبب نزف شديد من مكان اختراق الرصاص. أخذت أناديه... لكنه لم يجب

أيقنت أنه لا محالة مفارق الحياة، وزاد من يقيني ذاك أن الجراح الصيني أخذ يبرطم ويشير بعينيه ويديه أن لا فائدة... فقد فات الأوان، لم يستطع أن يلتقط نبضاته، ولا استطاع أن يسجل أي رقم لضغطه، فقد هبط كل شيء إلى نقطة الصفر... لذلك أخذ الجراح الصيني يتمتم بعربية مكسرة: ما في فائدة... في مَوْتُو... في موتو. كدت أفقد عقلي وكنت على وشك أن يغمى عليّ من أثر الحزن والأسف لكنني مع ذلك لم أفقد الأمل: أخذت أدعو الله له بالحياة وأردد: لا حول ولا قوة إلا بالله عشرات المرات.

دخلت غرفة العمليات مع الجراحين بعد أن ارتديت بدلة معقمة من تلك التي يرتديها الجراحون، رغم أنني طبيب أطفال ولست جراحًا.

ورغم شرودي وشتات ذهني أخذت أتفحص كل شيء وأتابعه بعيون قلقة جف دمعها وقلب دام يكاد ينفطر حزنًا، شاهدت المشرط وهو يشق طريقه بين الضلوع، ثم بركة الدم في تجويف الصدر، حيث كان بعضه متجلطًا والبعض الآخر ما زال سائلاً قانيًا يملأ أكف الجراحين الذين أخذوا ينضحونه من التجويف الصدري ليلقوه في الدلال المعدة لاستقباله. شاهدت محاليل الدم والمحاليل الأخرى تنهال على القلب من أربعة مصادر في الأطراف العليا والسفلى.

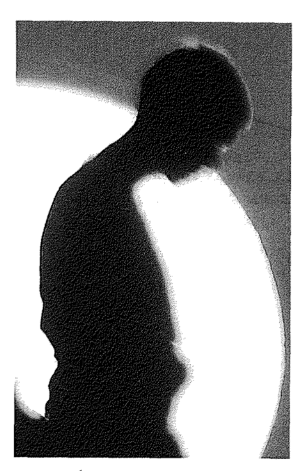
رأيت الجراحين يرتقون جزءًا من الفص السفلي للرئة ويبحثون عن إصابات دامية أخرى. بدأت الحياة تدب من جديد، وبدأ التوتر في الوجه يحل محل الشحوب وإذا بعمر جديد يكتبه الله تعالت قدرته للولد بسام.

خرجت من غرفة العمليات، يكتفي رأسي بمشاعر الحمد والثناء لله الواحد الأحد فأنى لي أن أفي بحق المنعم المتفضل مهما اجتهدت في ذلك.

كان هناك عدد كبير من الناس خارج غرفة العمليات في انتظار أخبار المصاب.

أنا مدين لهم جميعًا، أسأل الله أن يجنبهم كل مكروه.

خرج بسام من المستشفى بعد سبعة أيام، ليجد كل أفراد أسرته يلهجون بالثناء للمولى عز وجل الذي أعاد له الحياة بعد أن كان الموت قد دنا منه وأحاطه من كل جانب فرأينا الله يستله منه مثل الشعرة من العجين. لكن الرصاصة كانت ما زالت مختبئة



في مكان ما، لم يعثر عليها، وهناك أيضًا تورم على ضفاف الجرح الطويل الذي يمتد من أعلى الصدر حتى حدود الضلوع السفلى الملاصقة للعمود الفقري من الخلف، فكان لا بد من نقله خارج البلاد لمواصلة معالجته.

استقبله الجراحون في مستشفى أهلي في جدة، وعنوا به عناية كبيرة، حيث وجدوا شظايا موزعة على مناطق متعددة حول القلب والرئتين فتركوها موضعها. أما الرصاصة فقد وجدوها تختبئ في شحوم الكلية اليسرى، لكنها قبل أن تستقر هناك كانت قد «شطفت» جزءًا من الفص السفلي للرئة، فأعيد ترميمه أو تأهيله، وقد شاهد الجراحون مسارها كانت على وشك أن تتحرش بعضلات القلب لولا لطف الله وعنايته ما أخطأته أبدًا.

عندما عدت بالولد بسام من المملكة العربية السعودية، كانت الظروف مهيأة للحساب! حيث كانت النفوس معبأة للأخذ بالثأر، حيث اعتبر الكثيرون أن المسألة مقصودة، وأن هناك كانت نية للقتل لإخفاء معالم تفاصيل المعركة بين أفراد العائلة. واستدلوا على ذلك من كثرة الرصاص التي انهالت على سيارة

بسام أثناء مروره أمام منزلهم، حيث شاهدهم يطلقون النار من مخبئهم فكان الشاهد الوحيد على مشاركة الإخوة في قتل أخيهم الكبير، في حين كانوا لا يريدون أن يعلم أحد أنهم قد شاركوا «في المعركة» فقد دبروا الأمر على يد أبيه، الذي وجد نفسه مضطرًا إلى أن يدافع عن نفسه ضد ابن عاق حاول قتل أبيه. وكان من حظ بسام أن شاهدهم من فوق سيارته وهم يطلقون النار من مخبئهم في ساحة منزلهم.

كانت تلك هي القصة التي وجدت الجميع من حولي يرددونها وفي مقدمتهم جهات أمنية وشخصيات اعتبارية لها وزنها وثقلها. كان الجميع يحثني على ألا أترك الجناة دون قصاص، لا بد أن يدفعوا ثمنًا باهظًا، ليس تجنيًا عليهم، بل إحقاقًا للحق، فقد أرادوا إزهاق نفس بريئة دون وجه حق.

كان محافظ المدينة في غاية الاستياء من فعلهم، وكان كذلك الإخوة في الأمن العام. فالظروف كلها كانت مهيأة ومواتية لإملاء الشروط والسير في طريق الانتقام.

كانت الظروف من حولي كلها تؤلب مشاعري وتدعوني للتشدد، تذكرت أنني كنت ودودًا معهم، وكان بسام هذا الذي أرادوا قتله صديقًا لهم، فكيف تسنى لهم أن يفعلوا به ذلك؛ فأي قسوة هذه التي تجعل الإنسان لا يعبأ بقتل النفس التي حرم الله قتلها، امتلأ قلبي بمشاعر القهر والاستياء.. كانت السلطات الأمنية قد احتجزت بعضهم على ذمة تسوية القضية بيني وبينهم.

دعي أطراف كثيرون لحضور «لقاء الصلح»... تألبت على تفكيري يومذاك مشاعر القهر وسوء الظن بسلوك الناس وأخلاقهم وبقيتُ بين ضيوفي ساهيًا، شاردًا، تتنازعني الأفكار والهواجس... كنت أريد أن أترك وحدي لأبكي وأنعي على الإنسان نكرانه وجحوده لحقوق غيره فوجدت نفسي حقيقة أبكي من الداخل، بكاء مرًا، صامتًا، وعميقًا..

لم أرد أن يسمعه أو يراه غير الله، وكنت موفقًا في ألا يسمعني في بكائي الصامت غيره تعالى، ولما أراد الله لي المضي في طريق التسامح وجدت نفسي أستحضر كل ما حفظت من أمثلة ومقولات وأشعار حول التسامح والعفو عند المقدرة، لكنها لم تغنني في شيء ولم تبرئ سقم نفسي، فهداني الله تعالى أن أتذكر ما جاء في كتاب الله عن الصابرين والعافين عن الناس وما قاله ﷺ في الترغيب في إصلاح «ذات البين» ولو كان المقام هنا يتسع لملأت عدة صفحات لما ألهمني الله تعالى تذكره في دقائق معدودة.

لكنني وقفت كثيرًا عند قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن...﴾ وكثيرًا جدًا عند قوله تعالى: ﴿إن الساعة لآتية، فاصفح الصفح الجميل﴾ كنت كمن استيقظ من سبات عميق، كأنني أرى الأشياء لأول مرة على حقيقتها.

تذكرت على سبيل اليقين: أن لله حقوقًا علينا في أن نشكره الشكر الذي يليق به على نعمه التي لا تحصى. ومن تلكم النعم إنقاذ «الولد بسام» من موت كان محققًا وليس أفضل من التسامح والصفح عند المقدرة تعبيرًا عن هذا الشكر لله.

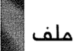
تذكرت أن للجار أيضًا حقوقًا لا يحجبها عنه سوى فعله أو صنيعه، كما تذكرت حقوقًا للعقيدة فنحن لا نفتأ نردد في كل مناسبة ما تنطوي عليه عقيدتنا من معاني الصفح والتسامح.

كما أن للمجتمع الذي نعيش وسطه حقوقًا في أن يجد في سلوك بعض أفراده وفي سلوكهم صدى لما هو موجود في أحاديثهم وأقوالهم. بحيث لا يقتصر الأمر عند حدود الكلام.

رسخ في ذهني: إذا لم يكن تسامحي كاملاً، فإنني أشارك في إفساد كل هذه المعاني، لذلك أعلنت أمام الجميع تنازلي عن القضية ومسامحتهم في كل ما ألحقوه بنا من أضرار جسدية ونفسية ومالية وكنت مطمئنًا بما توصلت إليه من قرار، فلو أنني فتحت باب التعويض لما كانت ممتلكاتهم تكفي لتعويض أي جانب من هذه الجوانب الثلاثة حسب تقديرات بعض الناس.

لم أندم على حسم الموضوع على ذلك النحو، بل إنني أشعر بالفخر المتواضع وأشعر بالتوازن والثقة بالنفس كلما تذكرت تلك المأساة وكيف انتهت، حتى الذين كانوا متشددين ولم يرقهم موقفي عادوا بعد وقت غير طويل يعبرون عن تقديرهم واحترامهم للطريقة التي عالجت بها تلك القضية.

وقد ظلت محبوسة طي الكتمان منذ ذلك الحين (١٧ عامًا) حتى جاءت مجلة المعرفة تبحث عن نماذج إسلامية أو غير إسلامية في التسامح بين البشر.■



مقتطفات من مسابقة التسامح

عمر بن الخطاب وغاندي وتشرشل على وليمة واحدة!

كانت مجلة المعرفة قد وضعت مسابقة في أعدادها الماضية عن «التسامح..مقولات وتجارب عربية وعالمية وشخصية». من بين أكثر من مئة وثمانين إجابة وصلت من مختلف الدول العربية نلتقط لكم أوفق ما حملته من مضامين التسامح القولية والفعلية (بغض النظر عن استحقاقها للجوائز أو عدمه) علنا بذلك نرضي طموح المشاركين، وتوقع القارئين.هذه المقولات تثبت أن التسامح خلق مع الإنسان فهو موجود في كل بقعة تاريخية وجغرافية وجسدية، وأنه طرز التاريخ الإنساني وعظم أبطاله سواء كانوا شخوصًا أو أفكارًا ، فما أحوجنا إلى استذكارها دومًا.. والآن بشدة!

❖ مقولات من التراث العربي والإسلامي:

- «إذا سمعت الكلمة تؤذيك، فطأطئ لها حتى تتخطاك».

عمر بن الخطاب

- «إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه، فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذرًا، فقل: لعل له عذرًا لا أعلمه».

أبو قلابة الجرمي

- «من عاشر الناس بالمسامحة، دام استمتاعه بهم».

أبو حيان التوحيدي

«سألزم نفسي الصفحَ عن كلِّ مذنبٍ
وإن كثرت منه إلي الجرائم
فما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثة
شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاومُ
فأما الذي فوقي فأعرف فضله
وأتبعُ فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنت عن
إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا
تفضلت إن الحلم للفضل حاكم»

منصور الكريزي

- «لذة التسامح أطيب من لذة التشفي، فالأولى يلحقها حمد العاقبة والثانية يلحقها الندم!!»

أحد الحكماء

❖ مقولات من التراث العالمي:

- «الحياة أقصر من أن نقضيها في تسجيل الأخطاء التي يرتكبها غيرنا في حقنا، أو في تغذية روح العداء بين الناس».

براتراند راسل

- «إذا قابلت الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة؟!»

غاندي

- «عظمة الرجال تقاس بمدى استعدادهم للعفو والتسامح عن الذين أساؤوا إليهم».

تولستوي

- «لكي تعرف الجميع عليك أن تسامح الجميع».

دايل كارنيجي

❖ مواقف من التراث العربي والإسلامي:

- يوم فتحت مكة، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة مخاطبًا أهل قريش: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لي ولكم».

- في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة و لا كنيسة ولا قصرًا يتحصنون فيه، وعلى ألا يُمنعوا من ضرب نواقيسهم أو إخراج الصلبان يوم عيدهم، وعلى ألا يعينوا كافرًا على مسلم، ولا يتجسسوا للكفار على المسلمين. ونص في المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذي عجز عن العمل أو أصابته آفة أو كان غنيًا فافتقر. وليس ذلك فحسب بل يُعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام.

- عندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القدس وحان وقت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، طلب البطريق منه أن يصلي بها، وهمّ



عمر أن يفعل، ثم اعتذر لأنه يخشى أن يصلي بالكنيسة فيدعي المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم، فيأخذوها من النصارى. وكتب للمسلمين كتابًا يوصيهم فيه بألا يصلوا على الدرجة التي صلى عليها إلا واحدًا واحدًا، غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين.

– خرج عمر بن عبدالعزيز ذات ليلة ومعه شرطي، فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم فتعثر به، فرفع الرجل رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، وهمّ الشرطي أن يضرب الرجل. فقال عمر: مهلاً إنما سألني: أمجنون أنت؟ فقلت: لا.

– عندما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفى رجال بني أمية، ومنهم إبراهيم بن سليمان بن عبدالملك، وكان إبراهيم عالمًا عاملاً، أديبًا كاملاً، وهو في سن الشبيبة، فأخذوا له أمانًا من السفاح، فقال له يومًا: «حدثني عما مر بك في اختفائك؟ قال: «كنت يا أمير المؤمنين مختفيًا بالحيرة في منزل شارع على الصحراء، فبينما أنا على ظهر البيت، إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فتخيلت أنها تريدني، فخرجت من الدار متنكرًا، حتى أتيت الكوفة، ولا أعرف أحدًا أختفي عنده، فبقيت في حيرة، فإذا أنا بباب كبير، ورحبة واسعة، فدخلت فيها، فإذا رجل وسيم، حسن الهيئة، على فرس قد دخل الرحبة، ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه، فقال: من أنت؟ وما حاجتك؟ فقلت: رجل خائف على دمه، وقد استجار بمنزلك، فأدخلني منزله، ثم صيرني في حجرة تلي حرمه، وكنت عنده في كل يوم على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس، ولا يسألني عن شيء من حالي، إلا أنه يركب في كل يوم مركبه، فقلت له يومًا: «أراك تدمن الركوب، ففيم ذلك؟ قال: إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبرًا، وقد بلغني أنه مختف في الحيرة، فأنا أطلبه لأدرك منه ثأري، فكثر والله تعجبي، وقلت: القدر ساقني إلى حتفي في منزل من يطلب دمي. وكرهت الحياة.. فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرني، فعلمت أن الخبر صحيح، وأنا الذي قتلت أباه، فقلت له: يا هذا، قد وجب عليّ حقك، ومن حقك أن أدلك على خصمك، وأقرب لك الخطوة، قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان، قاتل أبيك، فخذ بثأرك، فقال: إني أحسبك رجلاً أمضه الاختفاء، فأحببت الموت، فقلت: لا والله، ولكن أقول لك الحق، لقد قتلته يوم كذا، وبسبب كذا وكذا! فلما علم صدقي، تغير لونه، واحمرت عيناه، وأطرق مليًا،ثم قال: أما أنت فستلقى أبي عند حكم عدل، فيأخذ بثأره، وأما أنا فغير مخفر ذمتي، فاخرج عني، فلست آمن عليك من نفسي، فأعطاني ألف درهم، فلم آخذها منه، وانصرفت عنه، فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين».

– دخل السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية فاتحًا (٨٥٧هـ – ١٤٥٣م) وكان معظم سكان المدينة قد لجؤوا إلى كنيستها (أياصوفيا) وعندما اقترب السلطان من الكنيسة بعد جولته في أرجاء المدينة سمع أصواتًا خافتة حزينة تعج بالصلوات والدعاء من داخل الكنيسة، وكان نصارى القسطنطينية يتوقعون من المسلمين الفاتحين استئصال المسيحية من المدينة، كما صنع الكاثوليك بهم قبل قرنين تقريبًا.

وعندما علم الراهب الذي يقود القداس بقدوم محمد الفاتح فتح باب الكنيسة على مصراعيه ودخل السلطان وطالب الراهب بإتمام صلاته بالناس في هدوء وأمان، ثم أعطى السلطان الأمان للناس كي يذهبوا إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم. وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فخرجوا من مخابئهم بعد أن سمعوا بالأمان وأعلنوا إسلامهم. وأمر السلطان جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم وحض على تحريرهم وفدائهم.

ثم رعى الفاتح تعيين (جناديوس) بطريركًا للقسطنطينية (الأرثوذكسية) فاحتفى به وبالغ في تكريمه وتناول معه الطعام على مائدته ثم قدم له عصا البطريركية وودعه ورافقه إلى باب القصر وأعانه على ركوب الجواد المطهّم الذي أعد له وأمر وزراءه باصطحابه إلى مقره الرسمي.

فقال البطريرك في خجل من السلطان: «إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقني من البطاركة».

ثم أصدر الفاتح «فرمانًا» بمعاملة البطريرك معاملة وزراء الدولة وأمره بالنظر في أمور رعيته الروم في القضايا الدينية والمدنية.

- ألف ابن تيمية رسالة مختصرة بعنوان (الاستغاثة) وهي رسالة علمية بالأدلة الشرعية في حكم الاستغاثة، وكان الأليق بالعلماء الذين يختلفون معه أن يتصدوا لمثل هذه المسألة بالدليل والبرهان العلمي بعيدًا عن التكفير والحكم بالزندقة والشتائم والسباب. لكن الشيخ الصوفي علي البكري كان رده على هذه الرسالة بالحكم على شيخ الإسلام ابن تيمية بالكفر والزندقة والخروج عن ملة الإسلام!

ولم يكتف الشيخ الصوفي البكري - عفا الله عنا وعنه - بمجرد التكفير بل بالغ في إيذاء ابن تيمية بالقول والعمل، فقد قام باستعداء العوام على الشيخ وحرض الجند وأصحاب الدولة على شيخ الإسلام وشهر به وأقذع الشتيمة في حقه. ففي محنة الشيخ مع الصوفية سنة ٧٠٧هـ حول قضية الاستغاثة طالب بعضهم بتعزير شيخ الإسلام، إلا أن الشيخ البكري طالب بقتله وسفك دمه!

وفي سنة ٧١١هـ تجمهر بعض الغوغاء من الصوفية بزعامة الشيخ البكري وتابعوا شيخ الإسلام ابن تيمية حتى تفردوا به وضربوه. وفي حادثة أخرى تفرد البكري بابن تيمية ووثب عليه ونتش أطواقه وطيلسانه، وبالغ في إيذاء ابن تيمية!

وحين تجمع الناس وشاهدوا ما حل بشيخ الإسلام من أذية وتعد طلبوا الشيخ البكري وطلب أيضًا من جهة الدولة فهرب واختفى، وثار بسبب ما فعله فتنة، وحضر جماعة كثيرة من الجند ومن الناس إلى شيخ الإسلام ابن تيمية لأجل الانتصار له والانتقام من خصمه الذي كفره واعتدى عليه.

حينما تجمع الجند والناس على ابن تيمية يطالبون بنصرته وأن يشير عليهم بما يراه مناسبًا للانتقام من خصمه البكري الصوفي؛ أجابهم شيخ الإسلام بقوله: «أنا ما أنتصر لنفسي». فماج الناس والجند وأكثروا عليه وألحوا في طلب الانتقام، فقال لهم: «إما أن يكون الحق لي، أو لكم، أو لله، فإن كان الحق لي فهم في حل، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني؛ وافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه كما يشاء ومتى شاء».

ولما اشتد طلب الدولة للبكري وضاقت عليه الأرض بما رحبت هرب واختفى في بيت ابن تيمية شيخ الإسلام لما كان مقيمًا في مصر، حتى شفع فيه ابن تيمية عند السلطان وعفا عنه.

❖ مواقف من التراث العالمي:

- في عام ١٩٧٧م عقد في قرطبة المؤتمر الثاني للحوار الإسلامي المسيحي وتحدث فيه المطران «إنريكي ترانكون» رئيس أساقفة إسبانيا فقال: «إنني كأسقف أود أن أنصح المؤمنين المسيحيين بنسيان الماضي كما يريد المجمع البابوي منهم وأن يعربوا عن احترامهم لنبي الإسلام».

- في القرن الخامس قبل الميلاد كان الفيلسوف الصيني لوتس Laotse صاحب كتاب «النحلة الطاوية» يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، وأسس مدرسة من أجل ذلك في مدينة تسو Tsou، وهي إحدى مدن مقاطعة لو Lu. وعرف عنه تسامحه الشديد مهما كان السبب سواء تعرضه للسرقة، أو قتل أقاربه، أو الضرب أو غير ذلك، مما جعل عددًا كبيرًا من الأشخاص يتأثرون به وبأفكاره، وكان من بين تلامذته «كونفوشيوس» الذي اختط فلسفة دينية تقوم على طقوس وعادات قديمة خالف فيها أستاذه في دعوته إلى مقابلة السيئة بمثلها (وذلك إحقاقًا للعدل). ولكن مع ذلك فإن عددًا كبيرًا من سكان الصين وشرق آسيا ما زالوا يتبعون تعاليم لوتس التي من أبرزها عدم مقابلة السيئة بالسيئة والعفو والصفح عن المسيئين.

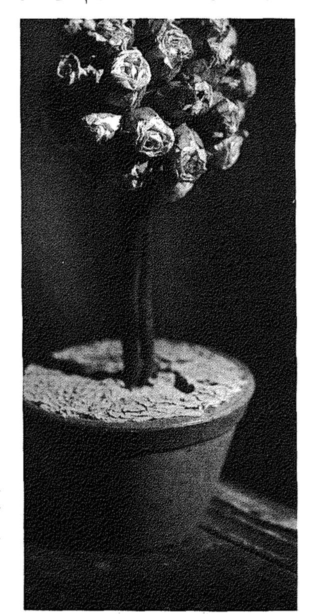
- عندما يتصرف شخص ما في قبيلة (بابيميا) بجنوب إفريقيا على نحو غير مستقيم أو غير مسؤول، فإنه يترك منفردًا في مركز القرية ويمنع من الفرار أو الهرب، ثم يأتي جميع من في

القرية وقد توقفوا عن العمل واجتمعوا في دائرة حول الشخص المتهم، ويبدأ كل فرد (بصرف النظر عن العمر) في رواية ما حدث له مع الشخص المتهم وكل الأشياء الجيدة التي قام بها في حياته بالتفصيل الدقيق، وكل السلوكيات الإيجابية للمتهم والمآثر الطيبة.

تروى كل الأقاصيص عن ذلك الشخص (المتهم) بإخلاص ومودة بالغين، ولا يستطيع أي فرد أن يبالغ في رواية الأحداث التي وقعت لأنهم يعرفون أنهم ليس بإمكانهم ذلك فليس بينهم من هو غير أمين في حديثه.

وقد تستمر هذه العملية عدة أيام حتى تكسر القبيلة الحصار عن الشخص المتهم وتستقبله بترحاب عند عودته إليها.

ومن خلال مشاعر الحب التي يصفها على نحو رائع ذلك المسلك، نجد الاتحاد والتسامح، وقد تنبه كل فرد في القبيلة (فضلاً عن الشخص الذي في المركز) إلى أن التسامح يمنح الفرصة للتخلص من الماضي والمستقبل المخيف.



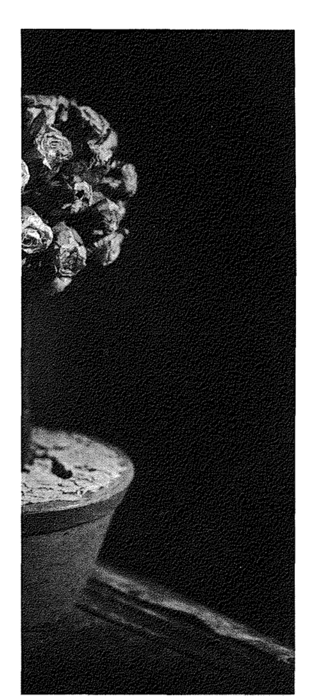
مقتطفات من مسابقة التسامح

- في أثناء الحرب العالمية الثانية فرّ (جورج رونا) إلى السويد، ولم يكن في حوزته نقود، فأمسى محتاجًا إلى العمل. ولما كان مجيدًا للعديد من اللغات تحدثًا وكتابة، أمل في أن يعمل مراسلاً لدى أي شركة متخصصة في التصدير والاستيراد. واعتذرت الغالبية العظمى من الشركات عن توظيفه بسبب الحرب، وأخبرته بأنها ستحتفظ باسمه في ملف عندها. غير أن رئيس إحدى الشركات بعث إليه خطابًا يقول فيه: «أنا لست في حاجة إلى أي مراسل، ولو كنت في حاجة إلى مراسل، فلن أستأجرك؛ لأنك لا تستطيع كتابة اللغة السويدية جيدًا. إن خطابك مليء بالأخطاء».

عندما قرأ رونا الخطاب استشاط غيظًا، إذ كان واثقًا من تمكنه، ثم إن هذا الخطاب الذي كتبه ذلك السويدي نفسه مليء بالأخطاء!! وعزم على أن يرد عليه بخطاب قاس يغضبه، ولكنه تحرر من غضبه وبات يفكر في إمكانية صدق ما قاله ذاك الرجل، فاللغة السويدية لم تكن لغته الأصلية، وقد تعلمها بالدراسة، وليس من المستبعد أن يرتكب بعض الأخطاء دون أن يفطن إليها، ورأى أن عليه مراجعة اللغة السويدية بجد إذا كان راغبًا في الحصول على وظيفة. وعلى الرغم من سماجة عبارات ذلك الرجل إلا أن «رونا» تغاضى عنه وتسامح، وشرع يكتب خطابًا متناهيًا في الذوق قال فيه: «كان عطفًا منك أن تزعج نفسك وتكتب إليّ، وخصوصًا أنك لا تحتاج إلى مراسل. وإني لآسف، فقد أخطأت في حق شركتكم، والسبب الذي جعلني أكتب إليكم هو أنني كنت أقوم بالاستفسار وقد اجتذبني اسمكم بصفتكم قائدًا في المجال الذي تعملون فيه. ولا أدري إن كنت قد ارتكبت أخطاء نحوية في خطابي

أم لا، غير أني آسف وخجل من نفسي، ولسوف أدرس اللغة السويدية بجدية أكثر، وسوف أحاول إصلاح أخطائي، أريد أن أشكرك لمساعدتك إياي في الوقوف على طريق تحسين الذات».

وخلال بضعة أيام، تلقى «رونا» خطابًا من ذلك الرجل، يطلب منه أن يأتي كي يراه. ذهب «رونا» وحصل على وظيفة، واكتشف أن التسامح أجدى من الانتقام.



- في إحدى زيارات الملكة إليزابيث التفقدية إلى جزيرة (تونغا) وحين همت بمغادرة المكان قام أحد المعارضين بإلقاء البيض عليها، فأصابت واحدة منها الملكة واندلقت على ثوبها وحقيبتها.

في اليوم التالي كانت الملكة على موعد مع البرلمان لإلقاء كلمة.. وكان الجميع متوترًا ماذا ستقول الملكة بشأن الأمس؟ وكيف ستحتج على ذلك الفعل؟ لكن تسامح الملكة كان أكثر معالجة للأمر.

وقفت بهدوء وقالت: أحب أن أذكركم بأنني أحب البيض.. لكني أفضله مقليًا مع وجبة الفطور، وعفت عن ذلك الرجل وغادرت المكان.

- في إحدى جلسات مجلس العموم البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية احتدم النقاش بين رئيس الوزراء البريطاني (ونستون تشرشل) وبين نائب من نواب المعارضة، أفقد النائب أعصابه لضعف حجته، فما كان منه إلا أن اقترب من تشرشل وانتزع قبعته، وأخذ يدوس عليها بشدة، لكن تشرشل أخذ القبعة وأعادها إلى رأسه. وهنا قال له أحدهم: إن هذا النائب قد أهانك ولابد من عقابه! فقال تشرشل: لا يهمني ذلك.. لأن رأسي لم يكن في القبعة !.. وعفا عن ذلك النائب.

❖ تجارب شخصية في التسامح

- كنت ذاهبًا إلى عمل ذات صباح، ففوجئت بأن سيارتي التي تقف أمام باب بيتي محطمة ومهمشة بالكامل وكأن جبلاً قد هوى عليها! فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!» ولم أعرف الفاعل. وفي الساعة الثالثة صباح الليلة التالية فوجئت بجرس الباب يقرع! هرعت إلى الخارج وإذا شابان سعوديان بالباب يتوسلان إلي للذهاب معهما إلى مخفر الشرطة فاستفسرت عن السبب فقالا لي إن صاحبهما هو الذي صدم سيارتي في منتصف الليلة الفائتة عندما كان يستعرض في الشارع باستهتار، وهرب فلاحقته دورية الشرطة وألقت القبض عليه ووضعته في السجن، وإنه لن يفرج عنه حتى أذهب أنا شخصيًا وأتنازل عن حقي!

لبست ثيابي وذهبت معهم إلى المخفر، وسألت الشرطة باستغراب: «لماذا لم تخبروني عن الحادث

الذي وقع لسيارتي؟!» فقالوا: إنهم وضعوا بلاغًا لي على زجاج السيارة الأمامي للحضور إلى المخفر، ولكن يبدو أن الهواء ألقى بالبلاغ بعيدًا فلم أره.

وعندما جاؤوا بالجاني كان يبكي ويتوسل إلي أن أسامحه، فأخبرته أن إصلاح سيارتي قد يكلف أكثر من عشرة آلاف ريال سعودي، فأقسم أنه طالب بالجامعة وأنه من أسرة فقيرة معدمة، وأنه لا يملك قوت يومه حتى يدفع لي، وإن لم يفرج عنه فورًا فسوف يفوته الامتحان وستدمر حياته، وأن أباه شيخ كبير ولو سمع بما جرى فقد يشكل ذلك صدمة له وخطرًا على حياته! سألني الضابط: «ما قولك؟ الأمر عائد لك وحقك محفوظ، إن شئت سامحته فأطلقنا سراحه، وإن شئت تمسكت بحقك ونحن معك حتى يدفع ما يتوجب عليه وتتم معاقبته على فعلته الطائشة».

قلت له إنني أسامحه لوجه الله تعالى وإكرامًا لوالديه، واشترطت عليه أن يعاهد الله ثم يعاهدني أن لا يعود لفعل ذلك ثانية، فوافق، ثم وقعت على الأوراق التي تضمن إطلاق سراحه وعدت إلى البيت وقد قاربت صلاة الصبح.

بعد ذلك بحوالي أربع سنوات، طرق رجل باب بيتي فإذا هو الشاب نفسه الذي دمر سيارتي، وقد ارتدى ثوبًا نظيفًا ويحمل بيده قطعة فنية (لوحة)، فسلم علي وبشرني بأنه تخرج في الجامعة وحصل على وظيفة محترمة وأنه جاء معتذرًا عما بدر منه، ومقدرًا لي تسامحي، فقبلت هديته ودعوته لتناول فنجان من القهوة، وقال إنه سيحكي قصته معي لأولاده حتى يتعلموا معنى التسامح ويطبقوه في حياتهم.

- أحكي لكم قصة حدثت في الكويت في أثناء أزمة الكويت، عائلة مكونة من الأب والأم والأبناء والجدة، بعد أن زاد الضغط عليهم، وخشوا على أنفسهم، تكدسوا في سيارة صغيرة واتجهوا منطلقين نحو حدود السعودية عن طريق صحراء الوفرة، وعندما توسطوا الصحراء إذا جندي عراقي واقف كالسراب في وسط الصحراء بوضع استعداد قد أمسك رشاشه وصوبه نحوهم، تسمروا في أماكنهم وأيقنوا أن الموت قادم لا محالة، قال: إلى أين تتجهون؟ قالوا: متجهون إلى السعودية. فدلهم على الطريق.

تعجبوا لهذا التصرف كيف يدلنا على الطريق؟! وربما كان عونًا من الله سبحانه وتعالى.

اتجهوا نحو الطريق الذي دلهم عليه، وفي منتصف الطريق، قالت لهم الجدة: يا عيالي هذا الأكل زاد عندنا، لماذا لا نعطيه لهذا الجندي المسكين؟ قالوا: أماه، جاؤوا يقتلوننا.. جاؤوا يحرقوننا.. حرقوا آبارنا، هدموا منازلنا، سرقونا، كيف نعطيه الطعام؟! فقاموا يسبونه ويشتمونه قالت: يا أبنائي هذا المسكين لا ذنب له، واقف في الصحراء تسطع عليه الشمس، شمس الشهر الثامن، والتاسع، ارجعوا إليه وأعطوه هذا الطعام، ماذا نصنع به؟ نحن مقبلون على خير.

وما زالت وما زالوا يرفضون حتى قالت وصاحت: «إن لم ترجعوا إليه لا أرضى عنكم». وتحت هذا التهديد، وبصلاح الابن والزوجة الصالحة، خافوا أن يغضب الله عليهم بسبب عدم رضاها، فانعطفوا عائدين إلى الجندي. فاستغرب الجندي لماذا عادوا؟! قال له الابن: لقد أمرتنا أمنا أن نعطيك هذا الطعام. ولكن الجندي خشي من المكيدة فأمره أن يذوقوا من طرف الإناء فأكلوا حتى إذا اطمأن بأنها ليست مكيدة ولا سمًا أرادوا أن يقتلوه به، فأخذه وشكرهم ودعا لهم وقال: لقد دللتكم على الطريق الخطأ، لا تذهبوا إليه واذهبوا من الطريق الآخر.

كانت مفاجأة كبيرة، كيف أنقذهم الله سبحانه وتعالى بهذا العمل الصالح!! عفوا عن إنسان قد اعتدى عليهم ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ففتح الله لهم الطريق. ■

انتظرو الجزء الثاني
من ملف التسامح
في العدد القادم

نتائج مسابقة مجلة المعرفة

والتي مجموع جوائزها

١٥٠,٠٠٠ ريال

برعاية



مجموعة صالح الدريبي للتطوير والاستثمار العقاري

Saleh AL Dorebe Group For Development and Real Estate Investment

الجائزة الأولى ٥٠,٠٠٠ ريال

محمد علي حسين الحريري، مكة المكرمة

الجائزة الثانية ٣٠,٠٠٠ ريال

السيد محمد زكي الدين الوحش، مصر

الفائزون بمسابقة المعرفة الفائزون بمسابقة المعرفة

الجائزة الثالثة ٢٥,٠٠٠ ريال

مصطفى محمد ياسين، الأردن

الجائزة الرابعة ١٥,٠٠٠ ريال

حنان محمد مبارك شريم آل شريم، أبها

الجائزة الخامسة ١٠,٠٠٠ ريال

بسام جاسم محمد السهلي، الدمام

من الجائزة السادسة وحتى العاشرة جائزة نقدية بقيمة ٤,٠٠٠ ريال

زهير صالح نتو، جدة
عبدالمجيد البيانوني، جدة
تهاني بنت عبدالله المبرك، الرياض
أمل دسمان الخلف، الهفوف
خالد مصطفى سالم، الرياض

وألف مبارك للفائزين

تاريخ البحر الأسود ..

نموذج أوروبي لطريقة «تعليم التاريخ» بدون شوائب!

The Black Sea: A History of Interactions

عبدالله العسكر ● - الرياض

● أستاذ التاريخ - جامعة الملك سعود

جاء كتاب «تاريخ منطقة البحر الأسود» في ١٤٠ صفحة من القطع الكبير. وخرج في ثوب قشيب، ويحوي الكتاب صورًا من حضارة دول البحر الأسود على مر العصور. جاءت فكرة هذا الكتاب أساسًا من مبادرة تبليسي Tbilisi التي أصبح بعدها الاتحاد الأوروبي منغمسًا أكثر في موضوع تاريخ دول البلطيق. ثم العمل الدؤوب من أجل إخراج كتاب تاريخ دول القوقاز والبحر الأسود. هذه المبادرة اتخذت اسمًا آخر هو: مبادرة تاريخ البحر الأسود.

تقوم مبادرة البحر الأسود حول كتابة تاريخ دول منطقة البحر الأسود. وكانت هذه الفكرة قد راودت مسؤولين رومانيين عام ١٩٩٩م، قبل أن تعرف بمبادرة تبليسي. وقد اشترك في تفعيل تلك الفكرة سبع دول كلها تقع على البحر الأسود. وكانت فلسفة الفكرة الرئيسة هي التركيز على الموضوعات المتعددة التي تهم كل تلك الدول، لهذا فقد تم تطوير تلك المبادرة لتغطي ثلاثة عناصر متميزة: تبادل الخبرات حول مناهج التاريخ وخططه، وكتب المقررات التاريخية، وتدريب مدرسي التاريخ. وقد تم ربط مدارس مختارة إلكترونيًا في تلك البلدان، وهي مدارس معروفة بعملها في مواقع آثارية، كما تم تبادل المعلومات بعضها مع بعض.

لم يكن المجلس الأوروبي بعيدًا عن فكرة تبليسي الصائبة هذه، فقد دأب على تشجيع التنوع الفكري ومساندته في ميدان التاريخ، وشجع على فكرة حوار الثقافات، وهو يعد هذا الصنيع إثراء وتشجيعًا من أجل بناء مفهوم مشترك في عالم اليوم. خصوصًا أن تاريخ تلك المنطقة كُتب بطريقة لا تشجع على قبول تجارب الآخرين، وذلك في العقود التي سبقت سقوط الاتحاد السوفييتي.

ويأتي الدفع نحو مفهوم حديث لتدريس التاريخ، وتأليف كتاب واحد لتاريخ دول البحر الأسود تفعيلًا حسنًا لمثل تلك المبادرات الجيدة. ذلك أنه لا أحد يُنكر أن أهم قضية واجهت تلك المجموعة عند إعداد كتاب التاريخ هي التعامل مع ذلك المفهوم المشتمل على كل تعقيدات التاريخ وتعرجاته، والمبني على قاعدة صلبة من النظرة المستقبلية الواسعة، والرؤى المتعددة والدراسات المقارنة التي تتيح مزيدًا من التسامح والتقارب والتعاون.

ويركز هذا الكتاب على تاريخ دول البحر الأسود، التي تشكل أنموذجًا يُحتذى من أجل مستقبل تعاوني مشترك. ولكن الكتاب لا يكتفي بتاريخ هذه الدول فقط، بل إنه يتناول بعض الدول المجاورة التي لها علاقة واسعة بها، من هذه الدول اليونان، التي وافقت على استضافة حلقة نقاش عن: (اليونانيين في منطقة البحر الأسود) في عام ١٩٩٩م، والنرويج التي أسهمت بطباعة كتب المجموعة بسبب الاشتراك مع دول منطقة البحر الأسود في حرب الفايكينج، وهي حرب أثرت في البنية الفكرية والاجتماعية لتلك الدول.

وقد أخذت مجموعة دول البحر الأسود في الاعتبار حساسية بعض القضايا التاريخية، لهذا لا يدعي مؤلفو هذا الكتاب أن لديهم إجابات عن تلك القضايا الحساسة المثيرة للجدل، ولكنهم يطمحون إلى فهم عميق لتعقيدات التطور التاريخي الذي عرفته المنطقة.

بالإضافة إلى تأليف كتاب تاريخي واحد يُدرس في كل مدارس التعليم العام في بلدان البحر الأسود، فإن المؤلفين يقترحون أدوات ووسائل تعليمية إضافية للمدارس المتوسطة والثانوية، ويقدمون للمدرسين والطلاب معلومات إضافية عن تاريخ دول الجوار. وتُوجت تلك المبادرة، العمل التأليفي باعتماد هذا الكتاب مقررًا تاريخيًا في مدارس هذه الدول.

لقد بدأ العمل الضخم الذي استمر أربع سنوات باجتماع موسع لمختصين في التاريخ وطرق تدريس التاريخ من الدول التالية: بلغاريا، جورجيا، مولدافيا، رومانيا، الاتحاد الروسي، تركيا، وأوكرانيا. وقد وافق الاتحاد الأوروبي على رعاية تلك الاجتماعات. من أجل الإسهام في رسم صورة واضحة وجلية عن تاريخ بلدان البحر الأسود، ومعرفة أفضل بتاريخ جيرانهم.

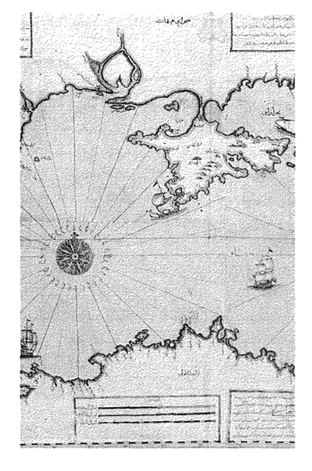
جمعت فصول كتاب التاريخ الموحد لدول البحر الأسود عن طريق كتابات تاريخية أعدها مختصون ينتمون إلى كل الدول المعنية. وركز فيه على العناصر الثقافية والبيئية والحضارية التي تربط بين تلك الدول والمجتمعات مع جيرانهم من دول لا تقع على البحر الأسود. ليكسر بذلك العرف السائد في كتب المقررات التاريخية السابقة وهو التفكير في تاريخ الماضي بعقلية تواريخ وطنية، والاتكاء على مصالح وطنية ضيقة، لهذا أضحت المجلات والصحف وبرامج التلفاز تشكل مصادر تاريخية للمؤلفين وطلاب التاريخ متناسين أن الماضي عبارة عن شبكة علاقات معقدة. إن التاريخ الوطني لتلك الدول في مطلع القرن الواحد والعشرين يحتوي على مقدار هائل من النصوص الثقافية والاجتماعية، والتقنية، والفكرية المشتركة أكثر من نصوص تركز على دول وطنية مستقلة، كما أن تاريخ تلك الدول القديم يحتوي على قصص مشتركة تمخضت عنها حوادث وقعت في أزمنة متأخرة. وبالتالي حتى يُفْهم تاريخ تلك الدول القديم، وُضِعَ ضمن محتوى ومنهج خاص بها، لا ضمن محتوى ومنهج التجزئة القطرية.

مؤلفو هذا الكتاب كتبوا من منطلقاتهم الخاصة، مما جعل تلك المنطلقات تشكل مواقف متناقضة أو متعارضة بعضها مع بعض. والصحيح أنه لابد من وجود تناقضات، فالتناقضات من السنن الكونية. وطلاب التاريخ معنيون أكثر من غيرهم بدراسة الاختلافات والتناقضات، ودراسة الأفكار والرؤى المتناقضة.

لهذا فقد جاءت موضوعات هذا الكتاب لتشكل بداية جديدة تقوم على عدم حجب التناقضات، ولكن تقدمها في سياق معرفي وتحليلي بعيدًا عن النزعات القطرية، أو الإثنية أو الدينية، وتقدمها على أنها تنوع يثري المشروع الحضاري لدول البحر الأسود. ومن هذا المنطلق أيضًا فإن تاريخًا جديدًا يمكن كتابته، تاريخًا يتقاطع مع الحدود الجغرافية والسياسية المعاصرة.

تاريخ البحر الأسود:

المثير للاستغراب هو أن تاريخ البحر الأسود لم يتم كتابته بالشكل المناسب، رغم الفكرة الموجودة عن أهمية دوله، خصوصًا عندما يلتقي مسؤولون من تلك الدول. لكن رغم كثرة هذه اللقاءات التي بدأت منذ عام ١٩٩٣م لم يتطرق المجتمعون لفكرة إعادة النظر في كتب التاريخ. إلا أنه وحين بدأ العمل في كتابة تاريخ دول البحر الأسود تمت الموافقة



أولاً على تدوين لمحات من التاريخ القديم للمناطق المحيطة بسواحل البحر الأسـود، والتركيز على الشعب (وليس الشعوب) القاطنة على ضفافه، من حيث الثقافة والعادات والتقاليد، لأنها هي فعلاً ما يوحد الشعوب، عندما تنسى تاريخها السياسي. أما لماذا التوسع في التاريخ القديم، فالجواب لسد الطريق على كل المحاولات القطرية واستثمار أحداث التاريخ القديم للبرهنة على جذور قديمة للتوجهات الفكرية أو السياسية المتشددة وبالتالي تأجيل ما يشي به التاريخ الحديث من المشكلات العويصة.

إن أغلب كل المعلومات الجغرافية عن دول المنطقة، التي شكلت لاحقًا أدبيات ومصادر الخرائط، والتراث الأدبي القديم والموسيقى، جاءت من الملاحين في البحر الأسود. وسجلها كتاب وروائيون عظام بداية من أوفيد Ovid حتى أنطون شيخوف Anton Chekhov. وكتاب آخرين منهم من عد شواطئ البحر الأسود مرآة عاكسة للبصائر الإنسانية. لهذا اعتمد مؤلفو هذا الكتاب على ما يمكن تسميته بالحركة الطبيعية للسفن والناس عند تصويرهم للبحر الأسود، وتاريخه.

وحتى يتم التعرف على أسلوب تأليف كتاب التاريخ الموحد ومنهجه، يحسن أن نستعرض أهم القضايا التاريخية التي احتواها الكتاب. فبمعرفة تلك القضايا نستطيع أن نتبين إلى أيّ مدى تجنب مؤلفو الكتاب القضايا التي تثير النزاع، وبعبارة أخرى فقد تم استبعاد التاريخ السياسي القطري، وتم التركيز على التاريخ العام لدول البحر الأسود وحضارتها. وقد جاءت فصول الكتاب الستة أنموذجًا للتحرر من قبضة التاريخ المتشدد، أو التاريخ القطري أو المذهبي، والتركيز على التاريخ العام للدول السبع واستبعاد التاريخ السياسي المشوب بكثير من الصراعات، ويمكن عرض الفصول الستة للكتاب قيد المراجعة بصورة موجزة:

الفصل الأول:

فترة ما قبل التاريخ: نشوء الإنسان في منطقة البحر الأسود، العصر الحجري الحديث وبزوغ الزراعة، العصر النحاسي، حكام ومحاربون في العصر البرونزي، بيوت التجارة الأشورية في الأناضول.

جاءت موضوعات هذا الكتاب لتشكل بداية جديدة تقوم على عدم حجب التناقضات، ولكن تقدمها في سياق معرفي وتحليلي بعيدًا عن النزعات القطرية، أو الإثنية أو الدينية

الفصل الثاني

العصور القديمة: الاستيطان القديم لشعوب حول منطقة البحر الأسود. المستوطنات الإغريقية في منطقة البحر الأسود. توسع النفوذ الروماني في منطقة البحر الأسود. بقايا التاريخ القديم والعصر الروماني. فجر المسيحية وانتشار اليهودية.

الفصل الثالث:

الفترة البيزنطية: بلغاريا وشبه جزيرة كريمين (Crimean) وشمال شواطئ البحر الأسود. الإمبراطورية البيزنطية وروسيا القديمة، جورجيا ورابطة الشعوب البيزنطية، التراث الأسطوري، الهجرة وتنقل السكان، الثقافة والعلوم والعادات.

الفصل الرابع:

من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر الميلادي: جمهوريات المدن الإيطالية، جنكيز خان والشعوب الصفراء، العلوم والثقافة والعادات، روسيا في فترة الجمهوريات الإيطالية، ما بين الدينستر والدانوب The Dniester and the Danbe، ميناء ومدينة شيلا Chilia، مملكة بلغاريا، جمهوريات المدن الإيطالية وجورجيا، التجارة وطرق التجارة، والثقافة والعلوم.

الفصل الخامس:

من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادي: بزوغ الحكم العثماني، العصر الكلاسيكي للإمبراطورية العثمانية، التطورات العلمية في عصر الإمبراطورية العثمانية، الحكام العثمانيون والمناطق الخاضعة لهم، الإمبراطورية العثمانية والبلغاريون، العلاقات بين والاشيا Wallachia ومولدافيا

والإمبراطورية العثمانية، إمارات الدانوب في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، الحالة الاجتماعية والمعيشية، الميراث العثماني في مولدافيا ووالاشيا، الإمبراطورية العثمانية وأوكرانيا، العلوم والثقافة والعادات، جورجيا والعثمانيون، والثقافة والحركات الشعبية.

الفصل السادس:

العصر الحديث: روسيا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، أوكرانيا في العصر الحديث، الثقافة والعلوم والعادات، التغيرات السكانية في القرن التاسع عشر، تشيسنا Chisinau عاصمة جمهورية مولدافيا، المفارقة التاريخية والقضايا الحديثة في إمارات الدانوب ١٨٢٩ - ١٨٣٤، المجتمع، والاقتصاد والثقافة في رومانيا في مطلع القرن العشرين الميلادي، بلغاريا في القرن الثامن عشر الميلادي، بلغاريا في القرن العشرين الميلادي، تركيا ما بين القرنين الثامن عشر والعشرين الميلاديين، جورجيا في العصر الحديث، التجارة، الاتصالات، والتعليم والثقافة.

تنحية الشوائب:

يشبه العرض التاريخي السابق لمنطقة البحر الأسود بانوراما تاريخية، تُبرز القضايا الكبيرة في مسيرة المنطقة، وتهمل القضايا التي سببت النزاع، مثل الحروب البينية، أو الحروب مع الغير. لكن أهم نقطة هنا، هي عدم ذكر الحروب التي قامت بسبب الدين أو المذهب الديني. والمثير للعجب في بنية

> التاريخ مثل المحيط الواسع، يستطيع الغواص أن يجد فيه الدرر أو الأحجار، والمعول هنا ليست الاستطاعة، ولكن انتخاب المفيد والمناسب، لأن التاريخ كتاب غير مقدس

ذلك الكتاب هو تعامله مع آلاف القضايا التاريخية منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث، وانتخاب روابط بشرية وحضارية وثقافية وسياسية تربط بين شعوب تلك المنطقة. وهذه أمثلة للربط التاريخي:

خلال العصر الحجري الجديد وقبل بزوغ توطين الزراعة (حوالي الألف الخامس قبل الميلاد) يتضح للمراقب أن قدوم بعض النباتات والمزروعات والحيوانات وصلت إلى منطقة البحر الأسود من منطقة الشرق الأدنى القديم، ومنه انتقلت إلى منطقة القوقاز. (لاحظ هنا إبراز فكرة تلاقح المناطق المختلفة والبعيدة عن بعضها) يوجد في المنطقة المعروفة الآن ببلغاريا حوالي ٥٠٠ مستوطنة تعود إلى العصر الحجري الحديث. وفي العصر البرونزي المبكر (٢٥٠٠ - ١٦٠٠ق ب) بدأت تتشكل ملامح سكان منطقة البحر الأسود. وفي العصر البرونزي المتأخر (١٦٠٠ - ٩٠٠ ق ب) بدأت تتشكل المناحي الثقافية والاجتماعية لمنطقة البحر الأسود (أقدم معثورات للاستيطان البشري في المنطقة تعود للعصر الحجري الحديث)، في الألفية الثانية قبل الميلاد افتتح تجار منطقة الهلال الخصيب مركزًا تجاريًا في أناضوليا من أجل التبادل التجاري، خصوصًا في تجارة الذهب والفضة.

في القرن الخامس الميلادي بدأت ملامح جديدة في العمارة والثقافة وأسلوب الحياة تبرز في منطقة البحر الأسود، هذه الملامح جاءت نتيجة المتاجرة مع الإغريق، مما ولد أثرًا إغريقيًا واضحًا. نتج عنه ولادة الملكيات في عدد من أجزاء المنطقة. ومع هذا فإن التوسع الروماني شمل الأجزاء الجنوبية من منطقة البحر الأسود. (لاحظ كيف تم الربط الحضاري بين فترة التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى. ثم كيف تم التعامل مع النفوذ اليوناني والروماني دون التوسع في مسائل التاريخ الحربي) منذ القرن الميلادي الأول.

دخلت النصرانية إلى المنطقة في فترة التوسع الروماني. واليهودية وصلت بعد تخريب المعبد اليهودي في فلسطين من قبل الرومان عام ٧١م. وعندما أقدم قسطنطين العظيم واتخذ القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية عام ٣٢٤م

أضحت منطقة البحر الأسود قريبة الصلة بسياسة الإمبراطورية الجديدة وإدارتها. في القرن الخامس الميلادي بدأت مجموعات تتحدث لغات سلافية استيطان مناطق تعرف الآن بهنغاريا ورومانيا، وبدأت في الانتشار في مناطق جنوب نهر الدانوب. وفي عام ٦٣٠م تأسست أول إمارة بلغارية، ومنذ عام ٦٧٠م بدأت إثنيات بلغارية - تركية تبرز نفسها وتميزها عما سواها. وفي القرن التاسع الميلادي تبنت بلغاريا النموذج البيزنطي للنصرانية، ومع هذا ظل السلاف والبلغار يتسمون بصفات مشتركة ومتشابهة في الملبس والمأكل (لاحظ التركيز على التشابه مع أن السلاف والبلغار في تلك الفترة كانوا على خلاف كبير).

اتسم القرن السابع عشر، وخصوصًا نهايته بزوال العصر الذهبي لبولندا بوصفها قوة عظمى، وأثر هذا في الدول المطلة على البحر الأسود وبحر البلطيق، وبرزت الدولة العثمانية بوصفها قوة سياسية وعسكرية، واستمرت معاركها مع الهابسبورج حول نهر الدانوب. ومع هذا فقد ازدهرت التجارة العثمانية مع مولدافيا ووالشيا. وانتشرت الثقافة والدين الإسلامي، وتحولت بعض الكنائس المشهورة إلى مساجد. (لاحظ كيف تم تجاهل الحروب الدموية التي صبغت تلك الفترة. وكيف تم تقديم العثمانيين والإسلام).

في القرن التاسع عشر أصبح الشاطئ الشمالي والشرقي للبحر الأسود منطقة نفوذ روسية. بداية من قبول زعيم جورجيا السلطة الروسية إلى ضم روسيا معظم دوله إلى الاتحاد السوفييتي. ومع سقوط الاتحاد السوفييتي تم إعلان استقلال أربع جمهوريات مطلة على الشواطئ الشرقية والشمالية للبحر الأسود.

تلك البانوراما هي فعلاً ما يحتاج إليه التلاميذ في مدارس التعليم. هم لا يحتاجون في تلك السن إلى تفاصيل واسعة، أو التركيز على التاريخ السياسي. وجاء العرض التاريخي مصحوبًا بمقدمة جغرافية وطبوغرافية ومناخية وأركولوجية ونباتية عن دول المنطقة بينت السمات الطبيعية المشتركة التي توحد تلك الدول من خلال استعراض تاريخي واسع يشمل نمط العمارة الجيوسياسية في المنطقة ومدى تغيرها، ودعم الكتاب بوسائل إيضاح هي عبارة عن صور من حضارة حوض البحر الأسود عبر العصور، وصور من حضارات مجاورة، ويوجد في كل صفحة من الكتاب معلومة تاريخية أو جغرافية أو أركولوجية، أو ترجمة لبعض الأعلام، أو قول مشهور لبعض مفكري وفلاسفة وزعماء المنطقة، وضعت في مربع لونه يختلف عن لون بقية الصفحات. واختتم الكتاب بأسئلة مختارة تغطي أبواب الكتاب وفصوله.

وقد يسأل سائل هذا السؤال: هل يوجد في الكتاب معلومة تاريخية غير صحيحة. والجواب بالنفي. فلا يوجد معلومات غير صحيحة، وأكثر من هذا لا يوجد تعسف في انتخاب معلومات معينة، ولا يوجد شطط في تفسير الحوادث التاريخية. وعلى حد تعبير مؤلفي الكتاب: فالتاريخ مثل المحيط الواسع، يستطيع الغواص أن يجد فيه الدرر أو الأحجار، والمعول هنا ليست الاستطاعة، ولكن انتخاب المفيد والمناسب، لأن التاريخ كتاب غير مقدس.■

واقع معلمي العلوم الشرعية في مدارسنا

لا «يحفظون» القرآن ولا «يفهمون» الحديث ويعتمدون على «الملخصات»!

محمد محمد سالم * - الرياض

*كلية التربية - جامعة الملك سعود

تعتبر عملية إعداد المعلم الجيد من أهم القضايا التي تهتم بها النظم التربوية في محاولتها تطوير عملها التربوي والتعليمي وزيادة فعاليته والنهوض بقدرته وكفاءته في استيعاب التطورات الاجتماعية والمتغيرات التكنولوجية والمعرفية.

وانطلاقًا من أهمية المعلم في العملية التعليمية فإن التخطيط لإعداد المعلمين احتل مكانًا بارزًا في مشروعات تطوير التربية وإصلاح النظم التعليمية، بعد أن تبين للمشتغلين بأمور التربية والتعليم أن «أي جهد للإصلاح التربوي سرعان ما يذهب أدراج الرياح إذا لم تشتمل على خطط لتطوير تربية المعلم والعناية ببرامج إعداده وتدريبه لرفع مستوى أدائه ومساعدته على أن ينمو مهنيًا».

ويلاحظ المتتبع للدراسات التي أجريت في مجال التربية والتعليم على الصعيدين العالمي والعربي اهتمامًا متميزًا بإعداد المعلم والمهام التربوية المنوطة به، وتأكيدًا على أن تربية المعلم تعد القضية الجوهرية والمرتكز الأساسي لعمليات الإصلاح التي يرجى إحداثها في العملية التربوية. ومن هنا كان اهتمام الأمم بإعداد المعلمين قبل الخدمة وفي أثنائها لأن المعلمين رواد الفكر والفضيلة وطلائع التجديد والابتكار، وتقع على عاتقهم مسؤولية تنشئة أجيال الأمة وتربيتها علميًا وخلقيًا، لذا يشير العزوز إلى أن المعلمين «عنوان تقدم الأمم وسر عظمتها، وبصلاحهم ونجاحهم في أداء رسالتهم ترتقي مجتمعاتهم ويهنأ عيشها، وحين تتردى أوضاع المعلمين علميًا وروحيًا ومهنيًا تتصدع مجتمعاتهم ويكدر عيشها».

وقد اهتم الإسلام بالمعلم وجعل مهمته من مهام الأنبياء والرسل، واعتبرها قربة إلى الله تعالى، ورتب على القيام بها أجرًا وثوابًا عظيمًا. فإذا رجعنا إلى تراثنا الإسلامي نجد الكثير من النصوص والشواهد التي تؤكد مبدأ الإيمان بأهمية العلم، وتنبه إلى الدور الخطير الذي يقوم به المعلم في بناء الفرد وإصلاح أحوال المجتمع وحمل رسالة الدين وفهمها وتفهيمها للناس. لقد بلغ شرف مهنة التعليم أن جعلها الله من جملة المهمات التي كلف بها رسول الله محمد ﷺ، بقوله تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

ولا يمكن للتربية الدينية الإسلامية أن تبلغ مكانتها وتقوى على تحقيق أهدافها، وتعطي ثمارها إلا إذا أحسن تخطيط مناهجها، بحيث نراعي عند بنائها كلاً من خصائص النمو عند التلاميذ، ومشكلات المجتمع وربط الدين بها.

كما لا يمكن لهذه التربية أن تبلغ مكانتها وتحقق أهدافها إلا بتوفير معلم التربية الإسلامية المؤهل المعد إعدادًا جيدًا حتى يكون متمكنًا من الكفايات المطلوبة للقيام بدوره بنجاح.

وبالرغم من هذه الأهمية الكبيرة لعملية إعداد المعلمين لما لها من آثار فاعلة في تحسين مستوى المعلمين وتنمية قدراتهم التخصصية والتربوية، فإن واقع برامج إعداد المعلم تشير إلى ما يلي:

❖ أن برامج التكوين الحالية تعجز عن تزويد الطالب المعلم بمهارة التعليم الذاتي، الأمر الذي يجعله غير قادر على متابعة التغيرات التي تطرأ على محتويات المنهج نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي.

❖ لا يحظى الجانب العملي التطبيقي بالقدر الكافي من الاهتمام، بل تغلب عليه الطابع الشكلي في الإشراف والتنظيم، بينما تبالغ هذه البرامج في أهمية الدراسات النظرية ذات السمة غير الوظيفية مما أدى إلى معاناة حقيقية لدى خريج تلك المؤسسات من شعور بالفجوة بين ما مر به من خبرات خلال إعداده وما يواجهه في حياته العملية، ولا شك أن هذا ينعكس على المعلم في أثناء أداء أدواره في عملية التعليم.

❖ التكامل بين الجوانب الثلاثة للبرامج (التي تقدمها كليات التربية): الجانب الأكاديمي، والجانب الثقافي، والجانب المهني، موجود كفكرة، بينما هو غائب في

الممارسة العملية، فالتنسيق ضعيف للغاية بين أولئك القائمين على تعليم الجانب التخصصي والجانب الثقافي، مما ينعكس بدوره على عملية الإعداد بحيث يبدو البرنامج كأنه مجموعة من المواد المنفصلة، ويصبح الأمر بالنسبة للطالب مجرد دراسة كل مادة بصورة مستقلة لأداء امتحان فيها، بل غالبًا ما يخفى على الطالب مبررات ودواعي دراسة الموضوعات التي تعلمها أو ممارسة الأنشطة التي قام بها.

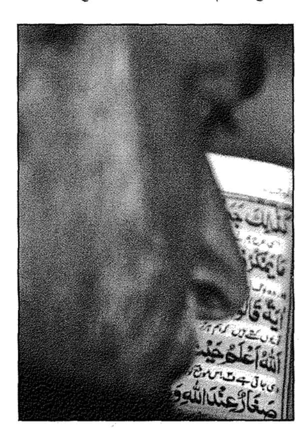
وإذا كان الأمر كذلك للمعلم بعامة، فإنه لمعلمي العلوم الشرعية أكثر خطورة، ذلك أنهم يتحملون مسؤولية خاصة في تنمية وجدان الأمة، وتأكيد قيمتها، وتحقيق تماسكها، والحفاظ على أصالتها والتهيئة لتحديثها، وهكذا يكتسب موضع إعدادهم وتدريبهم أهمية متميزة. ولكن تشير المتابعة الميدانية لمعلمي العلوم الشرعية إلى أن عددًا غير قليل منهم لا يحسن تلاوة القرآن الكريم ولا تفسيره، ولا يجيد فهم الحديث الشريف ولا توضيحه وفي الوقت نفسه لا يعنون بتزويد أنفسهم بالدراسات الدينية المتخصصة، وإنما يكتفون بقراءة الكتب المقررة، وقد يعمدون إلى ملخصات لها يلقنونها لتلاميذهم، وأمثال هؤلاء في حاجة إلى دراسات ميدانية، تحثهم على حفظ القرآن الكريم وتوضيح أحكام تجويده، وتعرض عليهم طائفة كافية من الحديث الشريف في المجالات الاجتماعية المختلفة، والمامة بمصطلح الحديث واطلاعهم على الفكر الإسلامي وقضاياه المعاصرة، وغير ذلك من الدراسات التي لم يقفوا عليها في أثناء إعدادهم ويحتاج إليها الميدان.

إن نجاح منهج دراسة القرآن الكريم في مراحل التعليم العام يحتاج إلى معلم معد إعدادًا جيدًا من خلال مناهج تربوية متكاملة في أبعادها الثلاثة: البعد التخصصي المتصل بقراءة القرآن، وفهمه وحفظه. والبعد المهني المتصل بفهم الطبيعة الإنسانية، وكيفية التعامل مع الناشئة، وفهم أنسب طرائق التدريس لهم. والبعد الثقافي المتصل بفهم طبيعة التصور الإسلامي للكون، والإنسان، والحياة، والارتباطات بينها، وفهم معايير الثقافة والحضارة في المجتمع المتحضر الإسلامي، وكيفية إعداد الإنسان للقيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق عمارتها، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. وإذا كنا ننشد دراسة القرآن الكريم كله للطلاب في مراحل التعليم، فإننا لا نتصور أن يتم ذلك من خلال مدرس فقير في معرفته بالقرآن الكريم دراسة وفهمًا وحفظًا كما هو الحال في برامج إعداد معلم العلوم الشرعية.

وما زال التربويون يربطون بين انخفاض مستوى تحصيل التلاميذ بمدارس التعليم العام ومستوى معلميهم، ومن ثم ما يقدم لهؤلاء المعلمين من برامج في مؤسسات إعداد المعلم. وتكشف بعض الدراسات والتقارير في مناطق متعددة من العالم أن نظم إعداد المعلم ما زالت في حاجة إلى الفحص والدراسة، وذلك بغية العمل على إيجاد أنماط من البرامج الأكثر قدرة على تلبية احتياجات المجتمعات من المعلمين ذوي الكفاءة في المعلومات والمهارات والاتجاهات اللازمة لممارسة العملية التربوية.

ولعل من أهم عوامل نجاح مقررات العلوم الشرعية في أداء رسالتها في المدارس الإعداد الجيد لمعلمها، ولا تعد المدرسة ناجحة في أداء رسالتها الدينية إلا إذا أعد لهذه المادة المعلم المتخصص.

وحيثما وجد المعلم المؤمن بأهمية المتخصص جيداً وجدت المدرسة الناجحة، لأنه اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم، وحجر الزاوية في نجاح تدريس أية



مادة. ولا يمكننا الوصول إلى هذا المعلم إلا إذا كانت عقيدته قوية وسليمة، وتربى بالتربية الإسلامية الحقة، ونهل من ينابيع المعرفة القرآنية التي لا ينضب معينها، واهتدى بهدي القرآن الكريم الذي يقول الله تبارك وتعالى عنه ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابًا أليمًا﴾.

وفي الوقت الذي يدرك فيه الباحث أهمية العناية بكتب العلوم الشرعية، ومنهجها وأدواتها ووسائلها، وطرق تدريسها إلا أنه يرى أن معلم المادة أهم العوامل لدوره الكبير والمهم في نجاح تعليم المادة أو فشلها. فالعوامل السابقة عوامل جامدة، ومعلم العلوم الشرعية هو الذي يبعث فيها الروح التي تحييها، وتجعل لها أثرها وقيمتها، وهو الذي يستطيع أن يخلع على المنهج، والكتاب، والمعنيات وغيرها من الوسائل ما يكمل نقصها إذا كان ثم نقص، وما يزيد من كفايتها إذا كانت في حاجة إلى مزيد من الكفاية. وقد تكون جميع هذه الوسائل في أعلى درجات الجودة ثم تهبط على يديه أو يوجهها توجيهًا سليمًا، أو يهملها ولا يستخدمها: «وقد أثبتت كثير من المحاولات التي بذلت لتطوير العملية التعليمية ولم تحقق أهدافها إنما أصابها الإخفاق لأنها ارتطمت عند التنفيذ بصخرة المعلم غير القادر، أو الذي لم يعد من قبل لمثل هذه المحاولات ولم يرتفع إلى مستواها».

وبالنظر إلى واقع العلوم الشرعية في الميدان نجد أن غالبية هؤلاء المعلمين ضعاف في مادتهم ضعفًا يعجزهم عن إجادة تلاوة القرآن الكريم تلاوة صحيحة يلتزمون فيها بقواعد وأحكام التجويد، ونجدهم عاجزين عن تفسير القرآن الكريم، وعن النطق الصحيح للأحاديث النبوية الشريفة مع قصر في معرفة الأحكام الدينية في العبادات والمعاملات، وتعوز عددًا منهم القدرة على الحديث بلغة عربية سليمة، وقد يلحنون فيما يكتبون، أو يتعثرون فيما يعرضون، وكثيرًا ما تند منهم أخطاء معينة، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى ميل الكثير منهم إلى استعمال العامية في أثناء تدريسهم مع ملاحظة أن مستواهم يميل إلى الانحدار عامًا بعد عام.

وقد أظهرت الدراسات الإسلامية العلمية أن مناهج التربية الإسلامية يعتريها كثير من القصور، من بينها أن كثيرًا من معلميها غير أكفاء لأن يتحملوا أمانة تدريسها، إذ لا يستطيعون ترجمة ما ألف لهم قولاً إلى مواقف تطبيقه، ذلك لأن إعدادهم فيه من النقص العلمي والفني ما يكفي لأن يصرفهم عن تنفيذ ما لا يستطيعون. وفي دراسة عن تقويم إعداد المعلم بكلية التربية جامعة الملك سعود توصلت إلى أن من أهم الأسباب في أن مستوى خريج كلية التربية في مجال التخصص أقل من جيد كما يراها أعضاء هيئة التدريس، هي: أن ما يدرس في كلية التربية في مواد التخصص لا يرتبط بشكل مباشر بما يدرس في الميدان. وعن أسباب عدم وجود العلاقة بين ما يدرس في كلية التربية والواقع الفعلي في المدارس من وجهة نظر أفراد الدراسة، هو: عدم تشجيع وزارة التربية والتعليم لأعضاء هيئة التدريس بالكلية على دعم الصلات بينها وبين كلية التربية.

وفي هذا يؤكد برستور وآخرون أن إصلاح التعليم يتم عن طريق الشراكة بين الكلية والمدرسة. ولذلك يتطلب إعداد المعلم التنمية المتواصلة لكفاءاته التخصصية والتربوية والتعاون الوثيق والعمل المشترك بين الأقسام الأكاديمية التخصصية والأقسام التربوية من جهة، وبينها وبين المدارس ووزارة التربية والتعليم من جهة أخرى، فيما يتصل بعمليات تطوير برامج إعداد المعلمين، وتطوير المناهج المدرسية وأساليب التدريس والتقويم وغيرها من مكونات منظومة التعليم. مثل هذا التعاون تظهر فائدته في اتجاهين، فمن ناحية تستفيد جهات التطبيق من خبرة أعضاء هيئة التدريس الجامعية ومن نتائج دراساتهم وبحوثهم، ومن ناحية أخرى تتاح الفرصة لأعضاء هيئة التدريس المعنيين بإعداد المعلمين باستمرار الاتصال بالواقع الميداني، والتفاعل مع مشكلاته، والإحساس باحتياجاته، مما يزيد من واقعية ارتباط تدريسهم بالواقع الذي تعيشه المدرسة والإسهام في تطويره.

فمن الضروري ألا تنفصل المقررات المهنية النظرية عن الممارسات الفعلية في المدارس، وألا تنفصل المقررات التخصصية عن محتوى المناهج في مدارس التعليم العام، فقد وصفت برامج إعداد المعلم على أنها شذرات لا رابط بينها، وأنها تفتقد الاستمرارية وأنها ترتكز على المادة المقررة وتؤدي إلى ثنائية النظرية والتطبيق. ■

الأساتيذ في ذاكرة التلاميذ (٥ - ٥)

خواطر عن المعلمين

إبراهيم مضواح الألمعي - عسير

يذكر الطنطاوي أيادي معلميه عليه، ويخص بالفضل ثلاثة من معلميه في مكتب عنبر (المدرسة الثانوية في دمشق) آنذاك هم: عبدالرحمن سلام والمبارك وسليم الجندي، فيقول: «الثلاثة الذين منَّ الله بهم عليَّ في مكتب عنبر، فقبستُ منهم، وأخذتُ عنهم: سلام، والمبارك، والجندي.

أما الشيخ عبدالرحمن سلام، فهو الذي جرأني على امتطاء صهوات المنابر، ومقارعة الفرسان في ميادين البيان والذي كان عجبًا من العجب، إذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه إلا أن يفتح فمه، ويحرك لسانه، فإذا المعاني في ذهنه، والألفاظ على شفته، والسحر من حوله، والأنظار متعلقة به، والأسماع ملقاة إليه، والقلوب مربوطة بحركات يديه، وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب، شعرًا دون أشعار المطبوعين المجودين وفوق شعر الفقهاء، وكان يرمي الكتاب (كتاب النحو) لا يحفل به، ويتكلم من أول الساعة إلى آخرها في اللغة والأدب وفي كل شيء، كأنه كان يريد أن يربينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمران، وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان.

وأما المبارك فما رأيت وما أظنُّ أني سأرى مدرسًا له مثل أسلوبه في الشرح والبيان، وفي امتلاك انتباه الطلاب، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة فصلاً من فصول العلم.

وفي يوم من أيام سنة ١٩٢٣م دخل علينا الشيخ سلام، ولكن لا كما كان يدخل كل يوم، وألقى خطبة الوداع، ثم ذهب وذهبتْ معه قلوبنا.

وجاءنا مدرسٌ جديد فقعد على الكرسي، وما كان الشيخ سلام ولا الشيخ المبارك يقعدان قطّ. وفتح كتابه وجعل يقرر الدرس، بصوت خافت لا يكاد يُسمع، وكان هو الأستاذ الجندي.

... وكانت صدمة، وكانت خيبة للآمال، وكانت فجيعة... ووصل إليَّ (الدور) فأقامني على اللوح، وأملى عليَّ بيتين للمعري، وقال اقرأ، وفسّر، وأعرب.

وانطلقتُ أخطب في موضوع البيتين خطبة حماسية مجلجلة كما علمنا الشيخ سلام، وإذا بالأستاذ الجديد يبتسم ابتسامة أحسست كأنها كوب ماء على نار حماستي، بل كأنها سكين غُرستْ في قلبي، وقال بهدوئه الساخر، ولهجته التي لها نعومة السكين وحدّها، وقال: بعد، بعد، فسّر أولاً معاني الكلمات، الغريبة. فوقفتُ، ثم سألني عن دقائق الإعراب فوقفتُ وقفة أخرى، فقال لي: أرأيت؟ أتبني الدار قبل نحت الحجارة؟

ورأيتني حقًا، أبني الدار قبل نحت الحجارة، أي أبني دورًا في الهواء، وصغرت عليَّ نفسي، بمقدار ما كبر الأستاذ في نظري.

وعدت أبدأ قراءة النحو والصرف من جديد، وكان الكتاب الذي نقرؤه هو قواعد اللغة العربية. وهو الجزء الرابع من الدروس العربية لحفني ناصف، وقد قرأت الأجزاء الثلاثة من قبل.

وهذا الكتاب يغني الطالب بل المدرس بل

الأديب، عن النظر في غيره، وهو أعجوبة في جمعه وترتيبه، وإيجاز عبارته، واختياره الصحيح من القواعد، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب، ومن ابن عقيل.

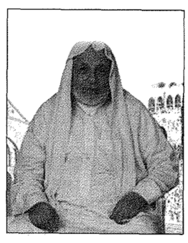
وعكفنا عليه وملأنا حواشيه البيض بتعليقات الأستاذ وفوائده، ثم ضاقت عنها، فألحقنا بين كل صفحتين من الكتاب، صفحتين أو أكثر نملؤها بما نستفيده منه، وعرفنا يومًا بعد يوم مقدار النعمة التي أنعم الله بها علينا حين جعلنا تلاميذ سليم الجندي»[١].

خواطر القط عن معلميه

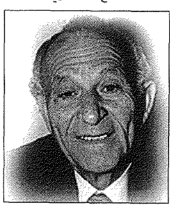
وفي مقال للدكتور عبدالقادر القط[٢] في مجلة العربي عام ١٩٩٨م يسوق خواطر له مع معلميه فيقول: «لم يكن المدرس في المدرسة الثانوية بأقل تأثرًا من تلاميذه، بطبيعة العصر وما جلب من تحولات في رؤية الحياة والتعبير عنها بالشعر والقصص والمقال، فكان يُقدم النصوص(المقررة)بحرية وتوسع وذوق شخصي، ويوجه طلابه في موضوعات(الإنشاء) إلى التعبير الحر عن الذات. وأذكر - في هذا المجال - أن مدرس اللغة العربية طلب إلينا ذات يوم أن نكتب في موضوع عنوانه (خواطر في ليلة أرقت فيها) فأرقت له ذات ليلة وكتبت مقالاً طويلاً، لا بد أن أغلبه كان مقتبسًا - دون أن أفطن - مما ترسب في خاطري من كتابات المنفلوطي[٣].

وأعجب الأستاذ بالمقال إعجابًا كبيرًا، وكتب تعليقًا في نهايته، مُجاريًا إياي، أو على الأصح مجاريًا المنفلوطي المصدر الأول لخواطر أرقي. وكنت قبل أن أنتهي من الدراسة الثانوية قد عقدت العزم على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، يدفعني حبي للغة والأدب، وتشدني أسماء كبيرة لامعة تجاوز وجودها الجامعة إلى المجتمع المصري والعربي في الأدب والفكر والسياسة.

وكانت محاضرات طه حسين تتجاوز تقديم (الحقائق) إلى إثارة (التساؤل) ودراسة النحو للأستاذ المجدد إبراهيم مصطفى لا تقنع بتقديم (القواعد) بل تحاول أن تصل إلى مناهج جديدة وتربط النحو بالمنطق، في كتابه الرائد(إحياء النحو).



الشيخ الطنطاوي



عبدالقادر القط

وكان المؤرخ الكبير عبدالحميد العبادي (يفسر) أحداث التاريخ ويفلسفها ولا يسوقها لطلابه مجرد أحداث ووقائع.

أما أمين الخولي، فقد تميز من بين الأساتذة جميعًا بقدرته على إثارة الجدل حول الرأي الواحد، وبقسوته (الظاهرية) في مناقشة ما كنا نقرأ في المحاضرة من بحوث، وكان بادي السخرية أحيانًا، لكنها سخرية يقصد من ورائها أن يصرف الباحث عن الالتفات إلى رأي واحد دون النظر في وجوه أخرى ممكنة للموضوع أو القضية»[٤].

لقاء بنت الشاطئ بأستاذها أمين الخولي

وعندما يتطرق الحديث للشيخ أمين الخولي فلا بد من ذكر تلميذته الدكتورة بنت الشاطئ التي بلغ إعجابها بعلمه ومنهجه وشخصيته غايته، حتى ارتبطت حياتهما بصلة الأستاذ والمريد، ثم برباط الزواج الذي استمر حتى وفاة الخولي سنة ١٩٦٦م، وبقيت بنت الشاطئ وفيَّةً له حتى لحقت به عام ١٩٩٧م. ومن حديثها عنه في كتابها (على الجسر) قولها عن أول درس حضرته له:

«ودخل(الأستاذ الخولي) بسمته المتفرد، فألقى علينا التحية واقترح لكي نتعارف، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن، ولكل طالب أن يختار مبحثًا منها، يعده ويعرضه للمناقشة في الوقت الذي يحدده.

وبادرت فأعلنت اختياري للمبحث الأول، في(نزول القرآن).

وعندئذ سَرَتْ في القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته، لكنه لم يلق إليها بالاً، واستطرد يعرض بقية المباحث، وأنا أتشاغل عن غيظي المكظوم، بالتفرج على عدد من الزملاء، في صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة، إرجاء للموقف الصعب.

وعاد الأستاذ يسأل كلَّ طالب منَّا، عن الوقت الذي يحتاج إليه في إعداد بحثه، فأجبت في عناد وشموخ:

- يكفيني يوم أو بعض يوم!

قال في نبرة إشفاق وتحذير:

- كذا؟! فكري مليًا، فربما بدا لكِ أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت.

وأبيت أن أتراجع!

ولماذا أتراجع، ومبلغ علمي أن المادة مبذولة جاهزة، ومصادرها الأصلية في متناول يدي، فلن يحتاج الأمر معي إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!

ولم يفتني أن الأستاذ يراني تورطت في هذا التعجل، فكأني خشيت أن يأخذ عني فكرة خاطئة، فقلت أسأله، مُدِلَّةً بما أملك من ذخائر علمه:

- هل يكفي أن أراجع في موضوعي، كتاب(البرهان) للبدر الزركشي، وكتابي(الإتقان، واللباب) لجلال السيوطي، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير الطبري؟

أجاب:

- كتاب واحد منها يكفي الآن، لو أنك عرفت حقًا كيف تقرئين!

وكان هذا، آخر ما توقعت أن أسمع!

أمثلي يقال ذلك، وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعييني أن أقرأه؟

وكبحت غضبي وأنا ألتمس للأستاذ العذر، فلعله يتصور أنني كغيري من الطلاب، وفيهم حقًا من لا يعرف كيف يقرأ!

- ما ذكرت هذه الكتب إلا لأني قرأتها واستوعبت ما فيها، وإنما كان سؤالي عن مصادر أجنبية، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعي!

فما زاد على أن قال:

- لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع، لما تورطت في مثل هذا السؤال المنكر!

وتحيرت لا أملك سؤالاً ولا ردًا، فما كنت حتى تلك اللحظة، قد فكرت في التمييز بين المصدر والمرجع.

وتابعت الإصغاء إلى الأستاذ، وهو يلقي علينا مبادئ منهجه، حريصة على ألا تفوتني كلمة واحدة مما يقول!

وبجهد مرهق، تشاغلت عن عالمي النفسي المائج بشتى الخواطر، لأعي ما أسمع، ولا شيء يزعجني غير دقات ساعة الجامعة، معلنة عن سير الزمن.

وكنت أتمنى لو توقف الزمن، ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغي وأتعلم!

من ذلك اللقاء الأول، ارتبطتُ به نفسيًا وعقليًا، وكأني قطعت العمر كله أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول.. ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالي بظروف وعوائق، قد تحول دون قربي منه، فما كان يعنيني قط، سوى أني لقيته، وما عدا ذلك، ليس بذي بال!

وقد انصرفت من درسه الأول، في اليوم السادس من نوفمبر عام ١٩٣٦م وأنا أحس أني ولدت من جديد.

وما كان أشق الطريق بعد ذلك!

لقد ظننت حينًا أنني ما أكاد أصل إلى مرحلة الدراسة العليا حتى يهون الأمر عليَّ، إذ يصير لي حق اختيار المجال الذي أتخصص فيه وأفرغ له.

غير أني ما لبثت أن أدركت أن تلمذتي للأستاذ الخولي، جعلت ما فات من مصاعب الطريق، أهون من أن تقاس بما أستقبله منها.

كنت أشعر بالأستاذ الخولي معي، في كل ما أقرأ

وما أكتب، فأخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه وجبروت منطقه، فأطيل الوقوف عند كل كلمة، حتى ألمح سرها...

وحين أفضيت إليه بأنني في ريب من إمكان الوصول ببحثي إلى غايته، كان جوابه الذي ظل ملء مسمعي على طول المدى:

- ومن قال إن الطالب يستطيع أن يصل بالبحث إلى غايته؟ نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين إلى ما نستشرف له في كل خطوة من جديد الآفاق والغايات. وما من باحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة في موضوعه، وجهد طالب العلم لا يقاس بمدى ما قطع من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الطويل الممتد إلى غير نهاية ولا مدى.

وهكذا كنت أجد لديه لكل معضلة حلاً ولكل سؤال جوابًا، فأشعر بالرضا عن نفسي إذ لم يخنها صدق الإلهام وسلامة الفطرة، فاتجهتْ بي إلى من أحس كلما لقيته أنني أولد من جديد، وأحس كلما جلست إليه وحضرت درسه، أن عالمي يرحب حتى لتضيق الدنيا عن أن تتسع له!»(٥)

نقاش حاد بين الغزالي وأمين الخولي

ويدعونا الاستطراد في الحديث عن أمين الخولي إلى تسجيل هذا اللقاء بين الشيخين محمد الغزالي الباحث عن وظيفة، وأمين الخولي مُجري المقابلة مع المتقدمين لتلك الوظيفة، وقد سجل الإمام محمد الغزالي هذا اللقاء في مذكراته التي نُشرت مقتطفاتٌ منها في مجلة (إسلامية المعرفة) فقال: «وحصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئًا بعيد المنال، وهذا جزءٌ من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله.. ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف (الإمامة والخطابة والتدريس) الخالية بمساجدها.

وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من (العلماء العاطلين) وكانت تحريرية وشفوية..

وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة، بدأت بعمل مني كان طائشًا.. كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيدًا، وأجبت عن كل ما سُئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، ويتنقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماضٍ في التلاوة..

وردَّني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقًا؟ فأنا أحفظ جيدًا..!

وشتمني رئيس اللجنة - وكان الأستاذ أحمد حسين أخا طه حسين - وهو يومئذ مفتي الأوقاف.

وجاء دور الأستاذ أمين الخولي الذي طلب مني تفسير آيات قرأتها، وأجبت فخطأني وذكرت رأيًا آخر في التفسير فخطأني، فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددت لو أعرف الحق، فقد ذكرتُ كل ما أعرف! قال: ذلك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ سيد زهران قائلاً للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه فدُله على الجواب! فقال مرة أخرى: ليس هنا.

فقلتُ بنزق: لا جواب إلا ما قلتُ، وأتحدى إذا كان هناك جوابٌ آخر!

وعاد الشيخ أحمد حسين إلى توبيخي، أما الأستاذ أمين الخولي فأدار ظهره معرضًا عني ومنهيًا المناقشة.

ولكن سؤالاً وُجّه إليّ من مدير المساجد: ألق الخطبة التي أعددتها، فقلت: اقترح أيَّ موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت..

وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يُشبه خوارق العادات! وعُينت إمامًا وخطيبًا ومدرسًا بمسجد «عَزَبان» بالعتبة الخضراء، ولم يلق هذا الحظ أحدٌ من زملائي معي!»(٦) ومن خلال هذا الموقف نتعلمُ درسًا في التسامح مع المخالف، والإنصاف، ونبذ الضغينة، فها هو الغزالي يأخذ حقه، برغم حدته وتجاوزه مع ممتحنيه، ولكنها النفوس الكبيرة.

يعتبر الشاعر العراقي معروف الرصافي(٧) أستاذه محمود شكري الألوسي أكثر معلميه إفادة وأكثرهم تأثيرًا فيه ويعلل ذلك بقوله: «كان يعطيني كل فرصة لأجل الاستفادة منه فلم يكن يضجر من



الشيخ الغزالي



أحمد رامي

سؤالاتي واستفهاماتي المتكررة، والحق كان شكري أفندي من المتضلعين في العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وبيان وعروض وغير ذلك من علوم العربية»[٨].

الرصافي والألوسي وحكاية الرصافي

ويكشف لنا الشاعر معروف الرصافي، سر نسبته إلى الرصافة، وسر لقبه (الرصافي) فيقول: «أول من سماني بالرصافي أستاذي السيد محمود شكري الألوسي، وسبب التسمية أنه ألّف كتاب (بلوغ الأرب في معرفة العرب) وطبعه في مطبعة أهلية تقع في سوق الجبقجية (في سوق السراي) تسمى مطبعة دار السلام لصاحبها علي أفندي، وعهد إليّ تصحيح الكتاب، فكنت أذهب كل يوم إلى المطبعة لأصحح المسودات وبعد أن تم الطبع قرّضته بعدة أبيات كانت مصدَّرة في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب، وكتبت أسفلها اسمي (معروف) فلما اطّلع الألوسي على قصيدة التقريض أعجب بها وقال: اكتب بعد اسمك الرصافي، لأنك معروف الرصافة كما كان الكرخي معروف الكرخ. فلم أقبل فكتب الألوسي ذلك بخط يده، وبالرغم من أني حذفت ذلك أثناء الطبع فإنه صار يناديني بالرصافي ويذيعه وينشره حتى غلب عليّ»[٩].

الأستاذة الأم

وعلى طريقة بنت الشاطئ مع أستاذها الخولي يفرد الدكتور جابر عصفور لأستاذته الدكتورة سهير القلماوي[١٠] مقالة نُشرت في مجلة العربي سنة ٢٠٠٢م فيقول: «أدين لأستاذتي سهير القلماوي بأشياء كثيرة، ربما كان أولها أنها جعلتني أدرك أن المرأة لا تقل كفاءة عن الرجل في الأعمال المختلفة، أو مجالات العلم المتباينة.

ازدادت الصلة بيني وبين سهير القلماوي بتعييني معيدًا في قسم اللغة العربية وبدأت أسعى لتسجيل أطروحتي الماجستير معها، واقترحت عليها أن أعمل في الإيقاع الشعري، فقالت لي إنها لا تحبذ أن أبدأ حياتي الجامعية بموضوع لا أمتلك الكثير من أدواته، واقترحت أن أنتقل من دراسة الإيقاع الشعري إلى دراسة التصوير في الشعر، وأخذت أعمل في الموضوع، وانتهى الأمر بتسجيلي رسميًا لدرجة الماجستير. واكتشفت في سهير القلماوي خلال ذلك الوقت أمًا حنونًا إلى جانب الأستاذة، فكانت أمي التي ذهبت لآخذ موافقتها عندما قررت أن أخطب زميلتي التي أحببتها وأصبحت زوجتي وأم أولادي ورفيقة العمر إلى اليوم وشجعتني سهير القلماوي على أن أمضي فيما فعلت، بل قامت بدور الأم فعلاً، وكانت كذلك في حفل الزفاف الصغير الذي أقمناه، بل كانت الأم التي تلقت ابنتي الأولى التي أطلقت عليها - أنا وزوجتي - اسم سهير التي أصبحت أستاذة جامعية اليوم، ولا تزال تذكّرنا بأستاذتنا التي ندين لها بالكثير»[١١].

«رامي» و«أمين» وصفعة الـ Full

ويروي الأستاذ مصطفى أمين[١٢] قصته مع أستاذه الشاعر أحمد رامي[١٣] في كتابه (أسماء لا تموت) فقال: «كنت تلميذًا في السنة الأولى بمدرسة المنيرة الابتدائية، وذات يوم دخل الأستاذ أحمد رامي مدرس الترجمة، وبدأ الحصة بأن ناداني وراح يمتحنني في المعنى العربي لبعض

الكلمات الإنجليزية. وأجبت على السؤال الأول والثاني والثالث والرابع إلى التاسع إجابة صحيحة وسألني الأستاذ رامي ما معنى كلمة FULL وأجبت على الفور: مجنون يا أفندي.

وصاح الأستاذ رامي غاضبًا: معناها (مملوء) وليس(مجنونًا) يا حمار! ثم رفع يده وهوى بكفه على وجهي، وقفز طربوشي من أول الغرفة إلى آخرها. اسودت الدنيا في وجهي. رأيت نجومًا سوداء وحمراء تتراقص أمام عيني. أحسست بقوة الصفعة. تهاويت وكدت أسقط على الأرض. لكني تمسكت بيدي اليمنى بالمقعد واستندت إليه، وأخفيت مكان الصفعة باليد الأخرى والدموع تنهمر من عيني. كانت الصفعة مؤلمة. بقي مكانها محمرًا فوق خدي. عدت إلى بيت الأمة - حيث كنا نقيم - وذهبت إلى أمي وشكوت لها الأستاذ رامي. فقالت لي: إنني أستحق هذه الصفعة لأنني لم أحفظ الدرس. ذهبت إلى سعد زغلول[١٤] أناديه(يا جدي) ورويت له ما حدث. وتصورت أن جدي الذي يحبني سوف يسخط على الأستاذ رامي، ويهاجمه... وفوجئت بسعد زغلول يخذلني، ولا يثور ولا يغضب وإنما يبتسم ويقول: إن معنى ذلك أنك ستنبغ في اللغة الإنجليزية! وعدت إلى غرفتي في بيت الأمة باكيًا. رفضت أن أتناول العشاء.

ومضيت طول الليل أطلب من الله أن يأخذ الأستاذ رامي! يأخذه من مدرسة المنيرة الابتدائية.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت أنا وأخي علي إلى مدرسة المنيرة. وحلَّتْ حصة الترجمة، ولم يحضر الأستاذ رامي. وبُهِتُّ أنا وأخي. إن الله استجاب إلى دعائي وأخذ الأستاذ رامي. سمع صلاتي وأخذ روح الأستاذ رامي. وسألت المدرسين أين الأستاذ رامي فقالوا إنه لم يجئ بعد اليوم.. وسكتوا.. وتأكدت أن يد الله صفعت الأستاذ رامي! إن يد الله أقوى طبعًا من يد الأستاذ رامي. لا بد أن صفعة الله كانت قوية فقضت عليه قضاءً مبرمًا!

وعشت عدة سنوات وأنا أؤمن أن الله أخذ الأستاذ رامي انتقامًا لي.. وبعد أربع سنوات ذهبت مع والدي إلى صالة سانتي بحديقة الأزبكية



معروف الرصافي

لأسمع أم كلثوم، وفوجئت بالأستاذ رامي على قيد الحياة، وفوجئت به يقف في الاستراحة وهو يداعب أم كلثوم وتداعبه وفي يدها دستة جاتوه.

ولاحظت أن رامي ليس العملاق الذي صورته لي الصفعة المؤلمة. كان رجلاً قصير القامة، رقيق الجسم، نحيف القوام، ليس فيه أي شبه بالمصارعين والملاكمين، وعلمت عندئذ فقط أن الله لم يأخذ الأستاذ رامي إلى جهنم.. وأن سر انقطاعه عن مدرسة المنيرة أن وزارة التربية والتعليم أوفدته في بعثة إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية، وأنه بعد ذلك أصبح شاعر الشباب!

وأصبحنا الضارب والمضروب صديقين حميمين، وكلما كنت ألتقي برامي على مر السنين كنت أذكره بالصفعة فيضحك رامي ويقول: حذار.. أن تضربني الآن! إنني لا أحتمل الآن لطمة من إصبع!».[١٥]

الطنطاوي يودع تلاميذه

ويحسن هنا أن أودع القراء الكرام بذكر كلمة الطنطاوي التي ألقاها مودعًا بها تلاميذه في درسه الأخير، إذ حدثهم بحديث لم يعهدوه وقد نقل من مدرسته في بغداد سنة ١٩٣٦م فقال:

«أولادي! انتظروا! لا تخرجوا كتبكم، ولا تفتحوا دفاتركم، فما جئت لألقي عليكم درسًا، وإنما جئت لأودعكم لأني نقلت من مدرستكم. إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق، وما آلام

الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق: فالموت فراق الحياة، والثكل فراق الولد، والغربة فراق الوطن، والفقر فراق المال، والمرض فراق الصحة.

إن الوداع صعب ولو إلى الغد، فكيف إن كان المودع صديقًا عزيزًا، فكيف إن كان ولدًا، فكيف إن كانوا أولادًا؟ أنتم أولادي، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال، ولكن تنطق بها كل جارحة فيَّ، وأحسها من أعماق قلبي!

ولِمَ لا؟ ألستم تحبونني وأحبكم؟ ألم أفكر فيكم دائمًا وأخف عليكم؟ ألم تروني آلم إذا تألم أحدكم، وأثور إذا تعدى أحد عليكم؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم إليَّ وأنستم بي، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم، كما يكون بين معلم وتلاميذه، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم، وتقصون عليَّ أخباركم وتبثونني أحزانكم، وتنبؤنني بأسراركم، وتشكون إليَّ ما يصيبكم من آبائكم وأهليكم؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة، وأي سبب أقوى من هذا السبب؟

أنتم أولادي. فهل رأيتم أبًا يودع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل الدموع من عينيه؟ لقد شغلتم نفسي زمانًا، وأخذتم عليَّ مسالكي في الحياة، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة، عن الصداقة الكاذبة، والود المدخول.

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة، ثم أمضي لطيتي لا أدري أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبدًا»[16].

وبعد:

فيا قارئي الكريم، ليت شعري لو قرأ الأساتذة ما سطرته ذاكرة التلاميذ، ما حالهم إزاء تلك المواقف التي نسوها وحفظها التلاميذ؟! فيا لهم من مساكين أولئك المعلمين الذين وقعوا ضحية طبائعهم، واستهانتهم برسالتهم، وانقلب أمرهم مع تلاميذهم ليمسوا ضحايا لذاكرة وأقلام ضحاياهم، وهنيئًا لأولئك المعلمين الذين علوا برسالة التعليم وعلتْ بهم، لتخلد أسماؤهم ومواقفهم في ذاكرة التلاميذ وفي مذكراتهم. ولو أنعمنا النظر لوجدنا أكثر الذين قرأنا طرفًا من أخبارها قد رحلوا عن دنيانا، وسيلحق الباقون، وسيدرك السابقين جميعًا هذا المتأمل في حكاياتهم..

مات المُداوي والمُداوَى والذي

جَلَبَ الدواء وباعه، ومن اشترى!!

ولي ولأولئك جميعًا أسأل الله العظيم عظيمَ مغفرته وكريمَ إحسانه وجميلَ عفوه. ■

المراجع

(١) ذكريات علي الطنطاوي/ ج١ ص.ص (١٥٤ـ ١٥٦) دار المنارة ـ جدة ـ ط٢/ ١٩٨٩م.

(٢) د. عبدالقادر القط: (١٩١٦م ـ ٢٠٠٢م) أستاذ جامعي وناقد مصري بارز، نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي، له عدد من المؤلفات النقدية.

(٣) مصطفى لطفي المنفلوطي: (١٨٩٥م ـ ١٩٢٤م) نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه.

(٤) مرفأ الذاكرة (سلسلة كتاب العربي ٥٤) ١٥أكتوبر ٢٠٠٣م - ص.ص (١٤٤ـ ١٤٦).

(٥) على الجسر: عائشة بنت الشاطئ ـ ص.ص (١٣٢ـ ١٣٩) مرجع سابق.

(٦) مجلة (إسلامية المعرفة) ص.ص(١٧٧ـ ١٧٨) مرجع سابق.

(٧) معروف الرصافي (١٨٧٧م ـ ١٩٤٥م) شاعر العراق في عصره، بغدادي المولد والنشأة والوفاة.

(٨) الرصافي يروي سيرة حياته: د. يوسف عز الدين ـ ص ٢٢٨ ـ دار المدى ـ سوريا ـ ط١/ ٢٠٠٤م.

(٩) المرجع السابق ـ ص ١٨٣.

(١٠) د: سهير القلماوي: (١٩١١م ـ ١٩٩٧م) أكاديمية ومثقفة مصرية من جيل الرواد.

(١١) مجلة العربي ـ العدد(٥١٨)يناير ٢٠٠٢م ص.ص (١٠٨ ـ ١١٠).

(١٢) مصطفى أمين: (١٩١٤م ـ ١٩٩٧م) كاتب صحفي مصري شهير.

(١٣) أحمد رامي:(١٨٩٢م ـ ١٩٨١م) شاعر مصري كتب بالفصحى والعامية، لُقب بشاعر الشباب.

(١٤) سعد زغلول: (١٨٥٧م ـ ١٩٢٧م) زعيم نهضة مصر السياسية، وأكبر خطبائها في عصره.

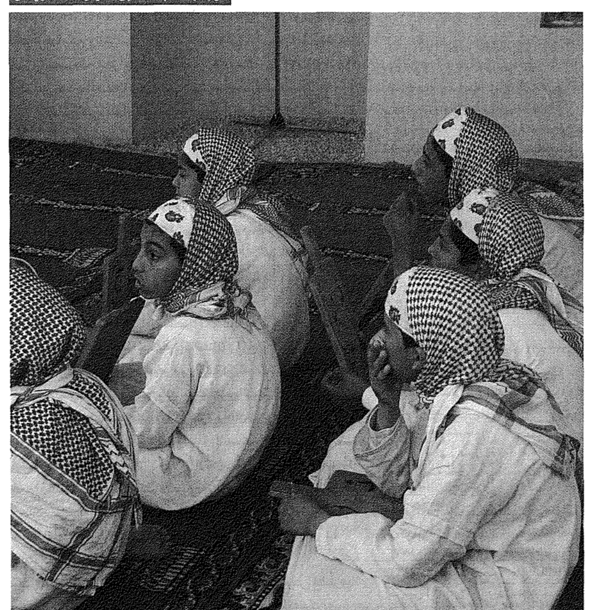
(١٥) أسماء لا تموت: مصطفى أمين. ص.ص (٢٧٣ـ ٢٧٦) العصر الحديث للنشر ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.

(١٦) من حديث النفس: علي الطنطاوي ـ ص.ص (١٩٢ ـ ١٩٣) دار المنارة ـ جدة ـ ط٤/ ١٩٩٠م.

التعلّم التعاوني (١من٣)

التعليم في التاريخ الإسلامي سبق إلى نظام «المجموعة»

نورة بنت عبد الله بن عدوان * - الرياض



*أستاذ المناهج وطرق التدريس المساعد- جامعة الملك سعود .

تتفق طريقة التعلم التعاوني cooapretive learning بما تشمله من مبادئ وأساسيات مع العديد من مظاهر التعليم في الحضارة الإسلامية، حيث ظهرت أصول التعلم التعاوني في التربية الإسلامية منذ صدر الإسلام، واستمرت إلى حين ظهور المدارس في العصور المتأخرة، وقد تأثرت بما اكتسبه المسلمون من مبادئ وقيم إسلامية ترجمت إلى سلوك في مجالس العلم. ولعل من أهم هذه الأصول التي وجدت جذورها في النظام التربوي الإسلامي والتي تتفق تمامًا مع مبادئ التعلم التعاوني بمفهومه الحديث ما يلي:

الحلقة:

إن نظام المجموعة في التعلم التعاوني هو ما يعرف بالحلقة في النظام التربوي الإسلامي، والمسلمون أول من وضع أسس الحلقات التعليمية، حيث بدأها علماء الصحابة الذين استقروا في حواضر البلاد الإسلامية من أمثال أبي الدرداء، وأبي موسى الأشعري، وأبي بن كعب، وغيرهم من الصحابة الذين أخذوا على عاتقهم تبليغ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم للمسلمين، فكان «أبو الدرداء يجلس في جامع دمشق بعد صلاة الظهر حيث يجتمع الناس للقراءة عليه، وكان ينظمهم عشرة عشرة، ويجعل على كل عشرة عريفًا، ثم يقف في المحراب يراقبهم بحيث إذا أخطأ أحدهم رجع إلى العريف يسأله، وإذا أخطأ العريف لجأ إلى أبي الدرداء نفسه ليصحح له ما يريد، وبلغ عدد الطلبة في حلقة أبي الدرداء ألفًا وستمائة ونيفًا، لكل عشرة منهم مقرئ»[١].

فتنظيم الطلاب في حلقات لكل منها عريف يديرها ويوجه مناقشاتها طريقة إسلامية،[٢] وهو ما يسمى في النظام التربوي الحديث بالفريق أو المجموعة، وهي عبارة عن عدد من الطلاب يجتمعون على شكل حلقة يناقشون مهمة دراسية معينة.

وتعد المجموعات التعاونية جوهر التعلم التعاوني، وأساسه الذي يستند إليه عمل الطلاب في طريقة التعلم التعاوني في مفهومه الحديث، حيث يوكل أمر المهمة الدراسية إلى الطلبة أنفسهم، فيتحملون مسؤولية التأكد من فهم جميع أفراد المجموعة لها. كما أن تعليم الطلبة مرتفعي التحصيل للطلبة منخفضي التحصيل في مجموعات التعلم التعاوني، أمر شائع في النظام التربوي الإسلامي، وهو ما كان معمولاً به في الكتاتيب والحلقات. وهناك العديد من المواضع التي توثق ذلك ومنها ما أورده الهيتمي (١٤٠٧هـ) في «تحرير المقال» من أن ابن حجر الهيتمي كلف أحد تلامذته بالتعليم في الكتاب، وعندما استفسر هذا المكلف: «هل له إلزام حاذقهم بإقراء أو تعليم بليدهم، لأن في ذلك مصلحة للحاذق بترسيخه ما حفظه عنده فيأمن من تشتته منه أو لا؟»أجابه ابن

حجر الهيتمي أن له ذلك؛ لأن ذلك من جملة التعليم الواجب على المعلم لأنه باعث على بقاء حفظه [٣].

ووجه الاستدلال هنا أن تكليف الطالب مرتفع التحصيل بتعليم الطالب الأقل تحصيلاً يستفيد منه الطالب مرتفع التحصيل في تثبيت المعلومات لديه، وفي بقاء الحفظ واستمراره وتدريبه عليه. فعندما يشرح الطالب مرتفع التحصيل المعلومات للطالب ذي التحصيل المنخفض فإن ذلك يساعده على الحفظ وبقاء المعلومات لوقت طويل في ذاكرته، وذلك يتفق مع ما توصلت إليه عدد من دراسات التعلم التعاوني الحديثة.

ويذكر علي مدكور: «أن الأستاذ في النظام التربوي الإسلامي يلقي محاضرته، وبعد أن ينتهي منها يترك الطلاب مع واحد من تلاميذه النابغين ليناقش الطلاب فيما خفي واستغلق عليهم فهمه من المسائل، وقد سُمي هذا التلميذ المساعد لأستاذه فيما بعد باسم المعيد، لأنه كان يعيد على مسامع الطلاب ما قاله الأستاذ في كل نقطة من النقاط، ثم يشرحها ويفسرها لهم» [٤].

ويضيف زكي بدوي: «أن التلميذ الأقل استيعابًا كان يستفيد من زميله الأكثر استيعابًا فقد كان الأخير يتفهم عوائق ومزايا الدارس البطيء» [٥].

وبالإضافة إلى تعليم الطلبة مرتفعي التحصيل للطلبة الأقل تحصيلاً، استفاد المعلمون في الكتاب من كبار الطلبة في تعليم المبتدئين من الأطفال، فيذكر الأبراشي في طريقة دراسة القرآن الكريم أن الأطفال قبل تعلم القراءة والكتابة كانوا يحفظون سورًا قصيرة من القرآن الكريم بطريقة التلقين، «بأن يلقنهم المعلم في الكتاب بعض السور الصغيرة، فيقرؤها أمامهم، ويكررونها معه عدة مرات عن ظهر قلب، وكان المعلم يستعين بالعريف وكبار التلاميذ في تعليم المبتدئين من الأطفال» [٦].

ويطلق الزرنوجي والحاجي خليفة على «الزميل» في المدرسة لفظ (الشريك) ولعلهما لاحظا أن هناك منفعة مشتركة تربط الزميل بالزميل وأن تعاونهما ينتج الخير لهما جميعًا كالذي يحدث بين الشريك والشريك في التجارة، إذ إن تعاونهما وإخلاص كل منهما للآخر سيدر الربح عليهما معًا، وسيعمل على نجاح الهدف المشترك الذي يسعى له الاثنان [٧].

ويفيد لفظ الشريك (partner) في التعلم



التعاوني حديثًا المعنى ذاته في كون الطالب وزميله مرتبطين بعضهما ببعض في التحصيل الدراسي وكونهما يعملان على نجاح الهدف المشترك الذي يسعيان له.

وفي شأن السلوكيات الاجتماعية الواجب مراعاتها في حضور حلقات العلم يذكر كشاجم: «أن على الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام. وحسن الاستماع إمهال المتحدث حتى ينقضي حديثه، والإقبال عليه بالوجه والنظر، والوعي لما يقول فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر، ولا أطرافه بعمل، ولا قلبه بفكر»[8].

وجميع ما ذكر آنفًا مماثل للسلوكيات التعاونية والاجتماعية التي يلتزم بها الطالب في المجموعات التعاونية الحديثة، ومنها عدم مقاطعة المتحدث، وإعطاء الفرصة للآخرين للحديث، والنظر في وجه المتحدث، والاستماع إليه باهتمام ومتابعة ما يقول، وعدم الإكثار من تحريك أطرافه كاليدين والرجلين في أثناء العمل في المجموعات التعاونية، وتشجيع المتحدث والإنصات إليه والتفاعل مع ما يذكره، والتوسع في الأفكار بهدف الفهم، والاستيعاب.

المناقشة:

يعتمد نظام التعلم التعاوني على أسلوب المناقشة في المجموعات التعاونية، والمناقشة تقليد رفيع عُرف في النظام التربوي الإسلامي حيث كان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة، ويوجبون عليهم التمرن عليها.

وقد نقد ابن خلدون في مقدمته الركود الذهني في بلاد المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي وعزاه إلى رداءة الطرائق في التدريس لأنها أهملت المناقشة والمناظرة في طريقة التعليم حيث قال: «وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها، ويحصل مرامها، فنجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتًا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في التعلم والتعليم».

فابن خلدون يرى أن المناظرة في المسائل العلمية تساعد في قدرة التعبير عنها، وينتقد سكوت الطلبة وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم، كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة،

و عد ابن خلدون هذا اللون من حرية المناقشة في حلقات الدراسة عنصرًا مهمًا من عناصر الاحتفاظ بحيوية التعليم[9].

فكان الأساتذة يشجعون الطلبة على المناقشة، ويشتركون في حلقات أشبه بالمناظرة، يتبادل فيها كل فريق بيان الرأي والإدلاء بالحجج، وكان لهذه الحرية في نظام الحلقات الدراسية أثرها في شحذ أذهان الطلاب وتعويدهم الثقة بالنفس. ويرى الزرنوجي أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل في الحفظ والتكرار!![10].

ومع عناية علماء الإسلام بالحفظ والمذاكرة لم يهملوا مطلقًا العناية بالتفكير فيما يحفظ وشرحه وتحليله وفهمه حق الفهم، فقد جعلوا الحفظ وسيلة لا غاية، لقلة من يجيد القراءة والكتابة في بدء الإسلام. وقد نادى الحاجي خليفة بأهمية الفهم والاستنباط، والانتقال من المنطوق إلى المفهوم والمدلول. وقد أشار موفق الدين البغدادي إلى أن العلم لا يكتمل إلا بمراعاته بقوله: «ولا تظن أنك إذا حصلت على علم فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته». ومراعاته تكون بالمذاكرة، والتفكير، واشتغال المبتدئ بالحفظ والتعلم، ومباحثة الأقران. فالبغدادي ينصح المتعلم بالمذاكرة والتفكير، والحفظ والتعلم، ومناقشة الزملاء للمحافظة على ما تعلمه وتنميته.

> ويرى الزرنوجي أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل في الحفظ والتكرار!!

فالممارسات التربوية في عصور الدولة الإسلامية الأولى قد عنيت عناية كبيرة بأسلوب المناقشة، فحرية السؤال كانت مكفولة للجميع، كما كان للطلاب الحرية المطلقة في التعبير عن آرائهم، وقد يختلفون فيها مع أساتذتهم.

ويرى مدكور أن طريقة المناقشة من أفضل الطرق التربوية وأقربها إلى روح التربية الإسلامية، فقد اتبع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه الطريقة في تبليغ الرسالة بوحي من الله ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

وتتفق المناقشة والمناظرة عند المسلمين الأوائل مع ما يتم داخل المجموعات التعاونية الحديثة من ممارسات، فيذكر مدكور أن المناظرة من الأساليب التربوية التي مارسها المسلمون في تربية أبنائهم، فهي تعتمد على اختلاف الآراء، واختيار الصحيح منها، كما تعتمد على المقارنة والموازنة وقرع الحجة بالحجة، وتفنيد الآراء بالعقل والمنطق والأدلة المقنعة. ولا يمكن إنكار أثرها في شحذ الذهن وتقوية الحجة، والتمرن على سرعة التعبير وإتقانه، وتعويد المناظرين الثقة بالنفس، والقدرة على الارتجال. ولهذا كله عُني بها المسلمون عناية كبيرة، وعدوها طريقة من طرق التعليم المهمة، وأشاروا إليها في كتبهم الأدبية.

وجميع ما ذكر آنفًا يتفق مع ما توصلت إليه الأبحاث من أن تعلم الطالب من خلال المناقشة والتفاعل في المجموعات يحقق له تحصيلاً أكثر مقارنة بالتعلم في وضع منفرد، وأن السماح للطلبة بإبداء وجهات نظرهم يساعدهم على الاستيعاب، وأن طرح الأسئلة مفيد في تذكر المعلومات، وأن التعلم من خلال المحادثة والمناقشة من العمليات العقلية الضرورية جدًا للفهم[١١]، وأن طريقة المناقشة تعطي الطلبة حرية أكبر في التعبير عن أنفسهم، واستقلالية أكثر، وإحساسًا بالمسؤولية، كما تساعدهم في النظرة الإيجابية للنفس، والقدرة على اتخاذ القرارات، وعلى اكتساب مهارات التعبير عن النفس من خلال مشاركة المجموعة في الحوار والمناقشة، و تزيد قدرة الطلاب اللغوية وقدرتهم على التفسير والتوسع.[١٢]

المراجع

(١) العدوي، إبراهيم (١٤٠٣هـ)التعليم الإسلامي في الماضي وميراثه الحاضر- المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، المركز العالمي للتعليم الإسلامي.

(٢) الكناني، عبدالحليم (١٤٠٣هـ) تخريج المعلمين حسب الشريعة الإسلامية- المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، المركز العالمي للتعليم الإسلامي.

(٣)الهيتمي، ابن حجر (١٤٠٧هـ) تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال - بيروت، دار ابن كثير.

(٤) مدكور، علي (١٩٩٠م) منهج التربية في التصور الإسلامي- بيروت، دار النهضة العربية.

(٥) بدوي، زكي (١٤٠٣هـ)التربية الإسلامية التقليدية أهدافها وأغراضها في الوقت الحاضر- المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، المركز العالمي للتعليم الإسلامي.

(٦) الأبراشي، محمد عطية (١٩٧٦م) التربية الإسلامية وفلاسفتها(ط٣)- الكويت، دار الفكر.

(٧) خليفة، الحاجي (١٨٢٥م)كشف الظنون. (ذكر في أحمد شلبي١٩٥٤م) تاريخ التربية الإسلامية- القاهرة، دار الكتاب للنشر والطباعة والتوزيع.

(٨) كشاجم، (١٣٢٩هـ) أدب النديم.ذكر في أحمد شلبي (١٩٥٤م) تاريخ التربية الإسلامية-القاهرة، دار الكتاب للنشر والطباعة والتوزيع.

(٩) ابن خلدون،عبدالرحمن (١٩٨٦م). المقدمة - بيروت، دار القلم.

(١٠) شلبي، أحمد (١٩٥٤م) تاريخ التربية الإسلامية-القاهرة، دار الكتاب للنشر والطباعة والتوزيع.

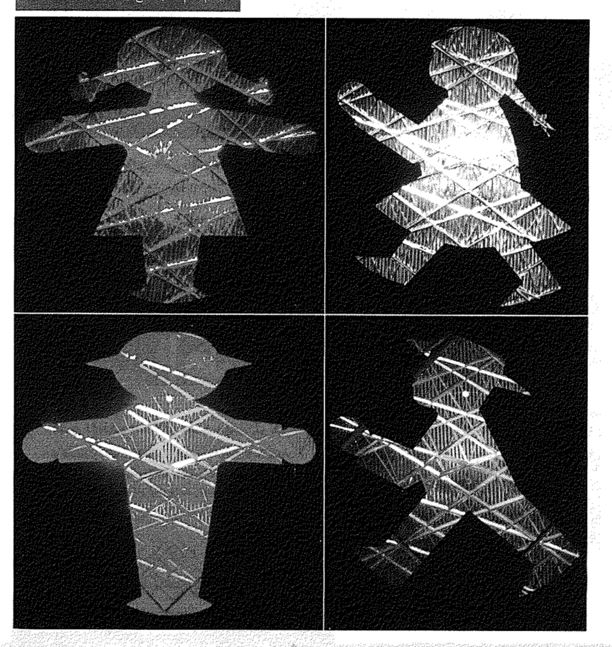
(11) Sinatra.M 1993) How Knowledge Influenced Tow Interventions Desgigned to Improve Comprehension.Reading Psychology.14.2.141-163.

(12) Relations.Handbook of Research on (Slavin.R (1995 Multicultural Education.628-634. Cooperative Learning and Intergroup.

سقوط قانون (IX):

«الجنس» يرفع درجات الطلاب ويخفضها

بقلم الطبيب: ليونار ساكس
ترجمة الأستاذ الدكتور: محمود الذوادي
قسم علم الاجتماع - جامعة تونس



شعر جون فارهارست John Fairhurst بالفشل. وكمدير للمدرسة الثانوية شانفيلد Shenfield الموجودة بإنكلترا كان قد لاحظ سنة بعد أخرى التراجع البطيء للعمل الأكاديمي عند تلامذته مثل ذوبان قصر رمل في مد وجزر البحر. ولم يكن يقتصر الأمر على تدني معدلات درجات التلاميذ في اختبارات موحدة، بل يبدو أن التلاميذ لم يعودوا يولون أهمية للتعلم. فما العمل يا ترى؟

واعتمادًا على دراسات تفيد أن لتلاميذ مدارس الجنس الواحد رغبة أكبر في التعلم، قرر فارهارست تعديل نظام مدرسته بجعلها مدرسة تدرس التلاميذ الذكور والإناث كلاً على حده. أي أن التلاميذ يتلقون الدروس نفسها من الأساتذة أنفسهم، ولكن الفتيان والفتيات يحضرون تلك الدروس في قاعات منفصلاً بعضهم عن بعض. وضع فارهارست هذا التغيير في حيّز التنفيذ في عام ١٩٩٤م. ومنذ ذلك الوقت ارتفعت نسبة معدلات درجات تلاميذ مدرسة شانفيلد في الاختبارات الموحدة بـ٢٦٪. أما التلميذات فقد تحسن أداؤهن التعلمي أقل بقليل فقط، بنسبة ٢٢٪. ومع ذلك بقيت الفتيات متفوقات على الفتيان!!

وحظي نجاح نظامها التعليمي الجديد بتغطية واسعة من وسائل الإعلام في كامل المملكة المتحدة، ويجري الآن تقليدها في مدارس بريطانية أخرى.

قرر عدد من الباحثين بجامعة منشستر Manchester (التي هي أيضًا بإنكلترا) دراسة هذه الأعجوبة (اللغز) لاختبار إمكانية تكرار النجاح التعليمي الذي حققته مدرسة شانفيلد في مدارس أخرى. فاختاروا خمس مدارس عامة متنوعة حيث عملوا على أن يتلقى قسم من التلاميذ دروسهم في قاعات أحادية الجنس، ويتلقى القسم الآخر الدروس في قاعات مختلطة بين الجنسين. لقد أوضحت النتائج أن هناك تفوقًا بارزًا في التحصيل الدراسي لكل من التلميذات والتلاميذ في القاعات الأحادية الجنس، إذ نجح ثمانية وستون من الفتيان الدارسين فيها في اختبارات موحدة للمهارات اللغوية، مقابل نجاح ٣٣٪ من التلاميذ الذين درسوا في قاعات مختلطة من الجنسين. أما بالنسبة للفتيات اللائي درسن في قاعات أحادية الجنس فقد نجح منهن في الاختبار ٨٩٪، مقابل ٤٨٪ من اللواتي تلقين دروسهن في قاعات مختلطة.

قانـون IX

يقال إن العقول العظيمة تتشابه في التفكير. ففي نفس الوقت الذي كان فيه فارهارست منكبًا على اختراعه الجديد لمدرسته الثانوية كمزيج من نوعين من قاعات التدريس الأحادية الجنس، توصل أنثوني بيلون Anthony Pilone مدير مدرسة Myrtle Avenue Middle School في مدينة إرفنجتن Irvington في ولاية نيوجرزي الأمريكية إلى الفكرة نفسها بالضبط. (تكاد المدرستان تكونان مختلفتين بالكامل. فمدينة شانفيلد هي ضاحية ينتمي سكانها كلهم إلى الطبقة العليا في إساكس

Essex ببريطانيا. أما مدينة إرفنجتن فيقطن فيها السود الأمريكيون من أصل إفريقي وذوي الدخل المتدني في ضواحي مدينة نووارك Newark فكما هو الأمر في مدرسة شانفيلد فإن كل التلامذة في مدرسة Myrtle Avenue Middle School استمروا في تلقي الدروس نفسها، لكن أصبح الفتيان والفتيات يدرسون الآن كل مقرر في قاعات منفصلة بعضها عن بعض. ولم يمر وقت طويل حتى ظهرت النتائج، فبعد عام فقط بدأت درجات الاختبارات في الارتفاع، والأهم من ذلك أن المدير بيلون شعر بوجود تحمس جديد للتعلم بين تلامذته الست مئة.

قدم بعد ذلك مسؤول جديد إلى مدينة إرفنتجن يدعى بيتر كارتر Peter Carter. أعلم هذا الأخير بيلون بأن تنظيم الفصل بين الجنسين في التعليم هو انتهاك للتشريع المسمى Title IX، هذا القانون الاتحادي (الفيدرالي) الذي يمنع الفصل بين الجنسين في التعليم في المدارس الحكومية. أمر كارتر بيلون بإنهاء برنامج التعليم قائلا: «أنا لا أقول إن الأمر كان حسنًا أو سيئًا، وإنما كان ببساطة غير شرعي». غضب بيلون غضبًا شديدًا، فإنشاء محيط تربوي أحادي الجنس في قاعات التدريس كان - حسب عباراته - «ربما الشيء الوحيد الذي قمت به كمدير، وكان يتمتع بمساندة كاملة من المدرسين والأولياء والتلامذة والإدارة. فالأمور سارت على ما يرام»، «أما الآن فقد عدنا إلى حيث كنا».

خيال الفروق

❖ هل الفروق بين الجنسين حقيقة أم خيال؟

نشرت ناعومي فايستاين Naomi Weisstein في سنة ١٩٦٩م مقالة مثيرة بعنوان «المرأة الزنجية»، أكدت فيها أن النساء من كل المجموعات العرقية هن ضحايا التمييز العنصري بالمجتمع الأمريكي مثلهن مثل ما كان عليه الأمريكيون السود، وكتبت: «وفيما عدا الفروق بين أعضائهم الجنسية فإني لا أعرف ما هي الفروق الثابتة التي توجد بين الرجال والنساء!!». وفي وقت نشر مقالها كان لايزال نشاط الحقوق المدنية مقتصرًا في المقام الأول على العلاقات بين البيض والسود. احتلت حقوق النساء بطريقة واضحة مكانة ثانوية وعلى ذلك اتفقت قيادات الحركة النسوية «feminist» مع فايستاين على أن النساء كن ضحايا اضطهاد النظام الأبوي المتسلط للرجل الأبيض، ونادت تلك القيادات النسوية بأن حركة الحقوق المدنية ينبغي أن تشمل حقوق المرأة.

في شهر يوليو ١٩٧٠م كانت إديث جرين Edith Green تنتمي إلى الحزب الديمقراطي من ولاية أورجن Oregon، إنها أول عضوة في مجلس الشيوخ تدعو إلى جلسة لسماع مختلف الشهادات حول التمييز الجنسي في نظام التعليم. وفي السنة التالية قدمت خمسة مشروعات قوانين لحظر التمييز الجنسي في كل الوسائل والفضاءات التعليمية التي تتلقى التمويلات من الحكومة الاتحادية (الفيدرالية). أزالت لجنة ندوة مجلسي النواب والشيوخ الاختلافات بين مشروعات قوانين التعليم للمجلسين منشئة في نهاية الأمر ما أصبح يعرف بقانون IX لتعديلات نظام التعليم لعام ١٩٧٢م. صوت مجلس الشيوخ لصالح قانون IX في مايو ١٩٧٢م، وبقليل من النقاش سار مجلس النواب على المنوال نفسه. في ٨ يونيو وقّع الرئيس نيكسون على

مشروع القانون ليصبح قانونًا في ٢٣ يونيو ١٩٧٢م.

كان الدافع الرئيس وراء قانون IX هو منع التمييز الجنسي السافر في المدارس الحكومية ومؤسسات التعليم العالي. فقبل المصادقة على هذا القانون كان من الأمور العادية رفض ترشح الأستاذات ذوات المستوى الجيد للحصول على الترسيم بالجامعة وذلك لمجرد أنهن نساء!! كما كان عاديًا في عهد ما قبل هذا القانون أن تخصص المدرسة الثانوية أو الجامعة ٩٠٪ من ميزانية الرياضة إلى رياضة الشباب الذكور. أما رياضة البنات فتأتي في المؤخرة!!

ومع ذلك، فمن بين الآثار العرضية لهذا القانون هو الإلغاء الواقعي لنظام التعليم غير المختلط كاختيار في المدارس الأمريكية الحكومية.

إن أحد بنود تطبيق هذا القانون المعلنة يحظر على كل مدرسة حكومية «أن تقدم أي مقررcourse أو أي برنامج آخر تعليمي أو أي نشاط يفصل بين الأولاد والبنات على أساس الجنس»، ويبدو أن ذلك يمنع أي شكل من التعليم غير المختلط في المدارس الحكومية، ولكن أحد البنود الأخرى للقانون تحديدًا يسمح بالتعليم غير المختلط في المدارس الحكومية بشرط أن تكون المقررات والخدمات والتجهيزات المتشابهة متوفرة لكل من الجنسين.

إن المشرعين الذين كتبوا قانون IX كانوا يعتقدون أنهم ببساطة يقومون بتمديد طبيعي لمرسوم الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤م الذي يمنع المدارس من أن تقوم بالتمييز العنصري على أساس العرق أو الدين أو الأصل الوطني. وكان من ذلك التمديد إضافة عامل الجنس أيضًا إلى تلك القائمة. وبالطبع فذلك أمر مرغوب فيه.

ومثل فايستاين، ادعى علماء الاجتماع لأكثر من ثلاثة عقود أن الفروق الجنسية عند بني البشر هي حصيلة للمحيط الاجتماعي، فلو أنك نشّأت ابنك على اللعب بالدمى وابنتك اللعب بالشاحنات، عندئذ ربما يكون كل شيء مختلفًا.

وفي كتاب هام صدر عام ١٩٧٨م أكدت سوزان كاسلر Suzanne Kessler ووندي مكانا Wendy McKenna فيه أنه حتى معالم الجنس البيولوجية نفسها تتأثر بالعوامل الاجتماعية. فهما

ادعى علماء الاجتماع لأكثر من ثلاثة عقود أن الفروق الجنسية عند بني البشر هي حصيلة للمحيط الاجتماعي، فلو أنك نشّأت ابنك على اللعب بالدمى وابنتك اللعب بالشاحنات، عندئذ ربما يكون كل شيء مختلفًا

تعتقدان بجدية أن تقسيم الجنس البشري إلى إناث وذكور هو اختراع اجتماعي وليس حصيلة مباشرة لواقع بيولوجي ناتج عن فروق في الصبغيات «chromosomes» بين الأنثى والذكر. كتبتا: «تشير كل الأدلة العلمية إلى أن للصبغيات قليلاً من الأثر المباشر أو لا شيء على شعور الناس بأنهم إناث أو ذكور»، وتضيفان قائلتين: «ليس هناك من دليل يربط نوع جنس الصبغيات «gender chromosomes» بأي نوع معين من السلوك. لا يوجد دليل على أن للصبغيات نفسها أي أثر مباشر على دور النوع الجنسي».

يرى العدد المتزايد من المنادين بهذا الموقف، مثل عالمة الاجتماع جودث لوربر Judith Lorber «أنه يجب أن نحلل نوع الجنس كبنية اجتماعية يعود أصلها إلى تطور الثقافة البشرية وليس إلى البيولوجيا أو الإنجاب... فنوع الجنس هو اختراع إنساني». وتؤكد لوربر على وجوب «تحدي مصداقية واستمرارية وضرورة نوع الجنس».

هل هن على حق؟ وإذا لم تكن هناك أي فروق فطرية ذات معنى بين الفتيات والفتيان فإن تبني التعليم الأحادي الجنس لا يصبح له حينئذ معنى كبير. وإذا لم تكن هناك فروق حقيقية بين البنات والفتيان بخصوص كيف يتعلمون أو كيف تعمل أمخاخهم - فإن فصل الجنسين بعضهما عن بعض قد يؤيد (بالفعل) نمطيات السلوكات المقترنة بنوع الجنس.

نشرت الأكاديمية الوطنية للعلوم في أبريل/

نيسان ٢٠٠١م تقريرًا بعنوان: «هل لعامل الجنس أهمية؟» وأعلنت الأكاديمية أن لعامل الجنس أهمية فعلاً، إذ إن هناك فروقًا بيولوجية ثابتة بين الجنسين تتجاوز فروق الأعضاء التناسلية. وجاء في التقرير «أن هناك عديدًا من الفروق الموجودة في كل أجزاء الخلايا الأساسية لكمياء وبيولوجيا الذكور والإناث، وأن هذه الفروق لا تأتي بالضرورة من الفروق في النظام الهرموني الذي يتعرض له الذكور والإناث، بل هي نتيجة مباشرة للفروق الجينية (الوراثية) بين الجنسين». ركز أحد فصول التقرير على تحليل الفروق الجنسية في علم النفس والسلوك والتي خلص فيها إلى أنها تعود أولاً وفي المقام الأول إلى «فروق جينية وفيزيولوجية أساسية»، وأنها لا تتأثر إلا جزئيًا بعوامل المحيط. ومن ثم تبين أن المقدمة المنطقية الأساسية لقانون IX (والقائلة إنه لا توجد فروق تربوية ذات معنى ولا فروق بيولوجية محددة بين الجنسين) مخطئة.

وإذا وجهنا انتباهنا إلى المخ فإننا نجد معطيات هائلة تجمعت في السنوات الثلاثين الماضية تبين أن هناك فعلاً فروقًا رئيسة بين الجنسين في بنية المخ والنمو. فأمخاخ البنات تنمو بسرعة أكبر في البداية. يوضح عالما الأعصاب روون Reuwen وأنات أشرن Anat Achiron أن مجرد القيام بالاختبار فوق الصوتي (الفوق السمعي) -ultra sound examination على امرأة حامل عند بلوغها أربعة وعشرين أسبوعًا من الحمل يمكنك من تمييز الجنين إن كان ذكرًا أو أنثى فمخ البنت الجنين هو الأكثر نضجًا.

فمخ البنت يبقى أكثر نضجًا من مخ الولد ابتداء من الولادة وخلال الطفولة والمراهقة وحتى الكهولة!!. فمخ الولد البالغ من العمر ست سنوات يشبه مخ البنت التي يكون سنها أربعة أعوام، ومخ الولد البالغ من العمر سبع عشرة سنة يشبه مخ البنت البالغة أحد عشر عامًا!! والرجال لا يلتحقون في نمو أمخاخهم بالنساء إلا في سن الثلاثين وفي بعض المجالات ربما لا يلتحق الفتيان بالفتيات أبدًا!!

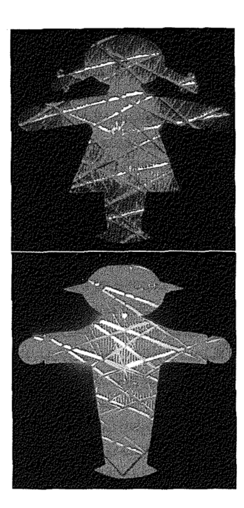
مخ البنت يبقى أكثر نضجًا من مخ الولد ابتداء من الولادة وخلال الطفولة والمراهقة وحتى الكهولة!!

استعمل علماء الأعصاب بجامعة هارفرد أجهزة تصوير صوتي معناطيسي رفيع المستوى لمعرفة كيف يتعامل الأطفال الذين تتراوح سنهم بين سبع سنوات وسبعة عشر عامًا مع العاطفة. فوجدوا أن النشاط العاطفي في كل الأطفال الصغار يقع في الأقسام البدائية الفرعية من المخ. في المراهقة ينتقل مركز التحكم العاطفي إلى اللحاء الدماغي cerebral cortex الذي هو أكثر عقلانية وتطورًا لكن عند البنات فقط. وعند الفتيان يبقى مركز التحكم في العاطفة متجذرًا بقوة في المراكز المخية الفرعية الرئيسة.

ونظرًا لأن مخ الأنثى ينمو بسرعة أكبر من مخ الذكر، فليس من المفاجأة عمومًا أن تتعلم الفتيات المهارات اللغوية بسرعة وبراعة أكبر من الفتيان. عندما يبدأ الأطفال في الكلام، يتجلى أن الفتيات ينطقن بوضوح أحسن من الفتيان. وجمل البنات تكون أيضًا أطول وأكثر تعقيدًا. فالذي يبدو أن تفوق الفتيات في المقدرات اللغوية أمر مستقل عن الأصل العرقي والثقافة.

وجدت دراسة في جنوب إفريقيا أن الفتيات يتفوقن على الفتيان في كل الأنشطة الشفوية المدروسة، وأن حجم الفرق بين الجنسين كان تقريبًا نفس الشيء بين السود والبيض والهنود.

قارنت دراسة أخرى تلاميذ يابانيين في المدارس الثانوية بنظرائهم في مدينة ميامي بولاية فلوريدا. ومرة أخرى تتفوق البنات على الفتيان بفرق كبير، كان الفرق في اليابان مماثلاً تقريبًا لذلك الذي يوجد في ميامي. ففي المعدل تحصل الفتيات على درجات أفضل من الفتيان في كل مادة في المدرسة بما فيها الرياضيات والعلوم. يفيد قسم التعليم الأمريكي US Department of Education بأن قدرة الكتابة عند التلاميذ الذكور المنتمين إلى



السنة الثانية الثانوية تتساوى مع قدرة بنات السنة الثانية الإعدادية.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن أساليب تعلم الفتيان والفتيات تختلف بطرق أصبحت مفهومة جيدًا الآن (والتي لم تكن معروفة أيضًا في عام ١٩٧٢م) ومن هذه الاختلافات:

- الفتيات ينجحن في الأوضاع التعليمية التعاونية غير التنافسية، بينما يجد الفتيان أنفسهم مدفوعين للعمل الفعال في محيط تنافسي يعرف فيه بوضوح الرابحون والخاسرون.

- تميل البنات أكثر من الفتيان إلى المحافظة على مدونات وتحديد الأهداف واستشارة الكبار للمساعدة في العمل المدرسي. أما الفتيان فيميلون أقل إلى استعمال أي من تلك الخطط الاستراتيجية في تعلم المهارات الأساسية في الرياضيات.

- تنحو الفتيات الشابات إلى استعمال إجراءات علنية مثل العد بواسطة الأصابع أو استعمال آلات عد يدوية، بينما يميل الأولاد أكثر إلى استعمال إجراءات خفية مثل حل المشكل داخل رؤوسهم.

- إن أهم النتائج المكررة التي توصل إليها البحث التربوي تتمثل في الفروق في أفضلية القراءة عند الفتيان والفتيات، فالبنات يفضلن قراءة القصص القصيرة والطويلة، أما الأولاد فيميلون أكثر إلى اختيار تفسيرات واقعية للأحداث الحقيقية (المعارك، الألعاب الرياضية، والمغامرات)، أو الأوصاف ذات الرسوم التوضيحية للطريقة التي تعمل بها الأشياء (المركبات الفضائية، والثعابين، والبراكين).

ترنيمة المدح

في السنوات الخمس الماضية، برهنت عدة دراسات كبيرة بطريقة قاطعة على أن الأولاد يتعلمون أفضل في المدارس ذات الجنس الواحد. نشر أخيرًا المجلس الأسترالي للبحث التربوي أكبر مقارنة على الإطلاق بين المدارس ذات الجنس الواحد ونظيراتها المختلطة. فتحليل معطيات هذه الدراسة التي دامت ست سنوات لعينة من الطلاب زادت على ٢٧٠,٠٠٠ طالب، وشملت ثلاثًا وخمسين مادة أكاديمية، برهن أن كلاً من الفتيات والفتيان الذين تعلموا في قاعات تدريس أحادية الجنس حصلوا بصفة عامة على درجات أعلى بـ١٥ إلى ٢٢٪ من الأولاد والبنات الدارسين في فضاءات تربوية مختلطة. فبحسب نتائج هذه الدراسة فإن الفتيان والفتيات المراهقين «نيسوا في حالة انسجام بعضهم مع البعض الآخر بسبب فروق في تكوينهم العضوي (الفيزيولوجي) ونموهم المعرفي العقلي».

والحقيقة أن الدراسة الأسترالية كررت نتائج دارسة بريطانية سابقة أجراها الديوان البريطاني لتقييم مستويات التعليم «The British Office for Standards in Education (OFSTED)»، حيث قام بتحليل نتائج من ثماني مئة مدرسة أحادية الجنس ومختلطة ينتمي طلبتها إلى كل الأصول الاجتماعية المختلفة، فوجد (الديوان) أن تفوق نتائج طلبة المدارس الأحادية الجنس لا يمكن تفسيره بعوامل اجتماعية واقتصادية، ولكنه (بدلاً من ذلك) كان نتيجة مباشرة للمحيط الأحادي الجنس. ووجد الديوان أيضًا أن لطلبة المدارس الأحادية الجنس موقفًا أكثر إيجابية إزاء التعلم.

ولا تقتصر فوائد المدارس الأحادية الجنس على تحسن الأداء الأكاديمي عند التلاميذ، فقد برهن عدد من الدراسات أن خريجي المدارس الأحادية الجنس يتمتعون بثقة أكبر بالنفس، ولهم توجه أكثر جدية بالنسبة للدراسة. ففي مقارنة بين فتيات بمدرسة ثانوية أحادية الجنس ونظيراتهن في مدرسة ثانوية مختلطة، وجدت دراسة إيرلندية أن أفضل مقياس تنبؤ بالثقة بالنفس عند الفتيات بالمدرسة الثانوية المختلطة تمثل في رأيهن في مظهرهن الخارجي. فإذا اعتقدت فتاة (في مدرسة ثانوية مختلطة) أنها جميلة، فهي تتمتع عندئذ بثقة بالنفس عالية، والعكس صحيح. أما فتيات الدراسة في المدرسة الأحادية الجنس فكن أقل اهتمامًا بالمظهر الشخصي. يبدو أيضًا أن الطلبة في المدارس الأحادية الجنس أكثر انفتاحًا نحو الانخراط في دراسة عدد أكبر من المواد. بينت دراسة أخرى أن الفتيات في المدارس الأحادية الجنس كان لهن اهتمام أكثر بالرياضيات والعلوم من الفتيات بمدرسة مختلطة. وبالمثل شعر الفتيان بالمدارس الأحادية بحرية أكثر لدراسة موضوعات تميل إلى دراستها في العادة الإناث مثل الموسيقى والفن.

في عام ١٩٩٨م نشرت الجمعية الأمريكية للنساء الجامعيات The American Association of University Women AAUW تقريرها حول التعليم الأحادي الجنس. كان العنوان الصحفي الذي رافق نشر خبر الدراسة «تشير نتائج التقرير أن فصل الجنسين ليس الحل للإنصاف بينهما في المدرسة». وقد أوردت النشرة الصحافية خمسًا من خلاصة «نتائج الدراسة». كانت كل النتائج الخمس سلبية بالنسبة للتعليم الأحادي الجنس. فعلى سبيل المثال، قالت النتيجة الأولى: إنه ليس هناك دليل بصفة عامة أن التعليم الأحادي الجنس ذو تأثير مباشر أو هو أحسن للبنات من التعليم المختلط. وأبرزت «خلاصة» التقرير ملاحظات لأحد المشاركين تثير الشك حول قيمة القيام بدراسات إضافية للتعليم في صفوف أحادية الجنس، وذلك نظرًا لوجود دليل صغير للفرق في حصيلة النجاعة والشرعية المشكوك فيها للتعليم الأحادي الجنس.

إن الناس القلائل الذين قرؤوا النشرة الصحفية والخلاصة بعد قراءة التقرير نفسه، حصلت لهم مفاجأة حين ثبت لهم أن النشرة الصحافية والخلاصة يتضمنان تشابهًا قليلاً لما ورد في خلاصة وصف التقرير!! إن مقالة باملاهاج Pamela Haag التي تفتتح التقرير نفسه، تخلص إلى القول: إن «الدراسات المنشورة المستعملة في موضوع تفضيل البنات للرياضيات والعلوم وموقفهن منها كمؤشرات خلصت كلها إلى القول إن للفضاءات التربوية للتعليم الأحادي الجنس أثرًا إيجابيًا في الفتيات». وفي مراجعة لاحقة للتقرير نقرأ لكورنليوس ريوردن Cornelius Riordan: «المدارس الأحادية الجنس ذات أثر إيجابي على التعلم، فهي ذات نفع للفتيات والفتيان وللنساء والرجال وللبيض والملونين... تتجلى المنافع الإيجابية للمدارس الأحادية الجنس أكثر بين الإناث السود أو اللائي ينحدرن من الأصول الأمريكية اللاتينية والمنتميات إلى مستويات اجتماعية اقتصادية دنيا». وهكذا يطلق ريوردن ما يمكن وصفه فقط بترنيمة المدح للمدارس الأحادية الجنس «فالمدارس الأحادية الجنس هي فضاءات

تربوية يذهب إليها الطلبة في المقام الأول قصد التعلم، وليس للعب أو من أجل لقاء أصدقائهم للمتعة. إن المدارس المختلطة، باستثناء تلك المدارس في جماعات الطبقات الوسطى الغنية، ليست هي على الإطلاق فضاءات للتعلم والدراسة».

تجاوز الانقسام الحزبي

أشارت جريدة The Wall Street بفظاظة إلى التباين بين التقرير وما نشر في وسائل الإعلام التي صاحبته. خلصت الجريدة إلى القول: إن الجمعية أخفت عمدًا دراستها. «فالمرء ربما يتساءل بمعقولية لماذا شعرت الجمعية الأمريكية للنساء الجامعيات أنها مجبرة على أن تدير بسرعة تغطية الأخبار ضد دراستها؟!»

ومن الصعب عدم الانتباه لمجريات الأقدار. فنفس القانون IX الذي اعتبر في الماضي انتصارًا نسائيًا أصبح ينظر إليه الآن كعائق رئيس للتعليم الأحادي الجنس للفتيات!! ورغم أن البحث العلمي يظهر منافع التعليم أحادي الجنس لبنات، يبدو أن الجماعات النسائية منقسمة على نفسها، أحيانًا على مستوى أصولها العرقية، وعلى قضية كيفية التعامل مع ازدياد حجم الوثائق المدعمة لإيجابيات التعليم الأحادي الجنس!!

كان هذا التوتر داخل الحركة النسائية أشد وضوحًا في النضال حول «القيادة الأكاديمية لشرق هرلم East Harlem للنساء الشابات» فبعد زمن قصير على تأسيس هذه المدرسة العامة للبنات فقط فإن فرع مدينة نيويورك للمنظمة الوطنية للنساء «NOW» بصحبة الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية «ACLU» قام بتقديم شكوى للحكومة المركزية (الفيدرالية) بدعوى أن وجود المدرسة ينتهك القانون IX. استشهدت آن كونرس Anne Conners رئيسة المنظمة الوطنية للنساء لنيويورك بلغة براون Brown في مقابل موقف مجلس التعليم Board of Educatio عندما صرحت بوجوب غلق المدرسة لأن «الفصل بين الجنسين رغم التساوي في ذلك أمر غير مقبول».

احتشدت نساء هارلم لمساندة المدرسة ساخرات من تدخل المنظمة الوطنية للنساء في شيء لا يعنيهن باعتبارهن نساء من الطبقة الوسطى البيضاء وهو

> نفس القانون IX الذي اعتبر في الماضي انتصارًا نسائيًا أصبح ينظر إليه الآن كعائق رئيس للتعليم الأحادي الجنس للفتيات!!

وضع لن يسمح لهن بالفهم. أما ماريا إيريزاري لوباز Maria Irizarry-Lopez، إحدى قادات مجموعة النساء المنحدرات من أمريكا اللاتينية، فقد ساعدت على تنظيم المدرسة وقالت: «لا أعتقد شخصيًا أن لهن الحق في الاعتراض على المدرسة، لم يهتممن أبدًا بحاجياتنا، فلماذا إذًا ينبغي لهن أن يأتين هنا ويقلن لنا إننا لا نستطيع امتلاك هذا؟!».

وفي هذا الوقت تمكنت القيادة الأكاديمية للنساء الشابات من تسجيل أكثر من أربع مئة فتاة من الصف المدرسي السابع حتى الصف المدرسي الثاني عشر. لم تكن هناك امتحانات لقبول الطالبات، فكل طالبة لها معدل درجة C أو أحسن تستطيع تقديم طلب للقبول. كانت طالبات المدرسة، مثل سكان محيط مدرستهن، فهن تقريبًا ١٠٠٪ من السود والأمريكيين اللاتينيين. تأتي الفتيات من كل المستويات الأكاديمية بما فيهن بعضهن اللائي كن في السابق في صفوف تحسين المستوى!! ورغم ذلك ففي عام ٢٠٠١م نجحت الفتيات ١٠٠٪ في امتحان الإنجليزية المسمى «New Yok Regents» والذي كان معدل النجاح فيه من قبل في كامل المدينة ٤٢٪ فقط.

تخرج أول صف للقيادة الأكاديمية للنساء الشابات في شهر يونيو ٢٠٠١م. وجرى قبول كل المتخرجات من المدارس الثانوية، (ماعدا واحدة منهن)، في جامعة تدوم الدراسة فيها أربع سنوات. وفي وقت لاحق التحقت الفتاة المرفوضة بالقوة الجوية. حصل أكثر من نصف الفتيات خريجات

القيادة الأكاديمية للنساء الشابات على منح دراسة جامعية كاملة. ٩٠٪ منهن كن الأوائل في أسرهن بالجامعة، مما أهل الصف الثاني من المتخرجات في شهر يونيو ٢٠٠٢م أن يلتحقن كلهن بالجامعة للدراسة مدة أربع سنوات!

كل ذلك لم يؤثر أي شيء منه في نورمن سيجل Norman Siegel المدير التنفيذي لاتحاد الحريات المدنية لنيويورك، فقد صرح لجريدة مدينة نيويورك Daily News قائلاً: «إن موقفنا لم يتغير، نعتقد أن المدرسة غير شرعية. يتمثل استياؤنا في أننا قدمنا شكوانا منذ نصف سنة وأن غياب عمل مسؤولي الحكومة المركزية (الفيدرالية) سمح بحدوث هذا التوسع في المدرسة». بقيت الإيديولوجيا النسائية معارضة للمدرسة دون تغيير، كما عبرت عن ذلك بتريشيا إرلند Patricia Ireland رئيسة المنظمة الوطنية للنساء: «يستطيع معهد مانهاتن وآن روبنستاين Ann Rubenstein (مؤسسا القيادة الأكاديمية للنساء الشابات) أن يديرا أكاديمية تفصل بين الجنسين إن هما أرادا ذلك، لكن يجب عليهما أن يفعلا ذلك دون تشريع استعمال المال العام».

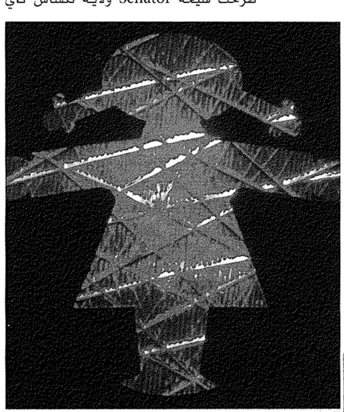
طرحت شيخة Senator ولاية تكساس كاي بايلي هتشيسن Kay Bailey Hutchison في عام ١٩٩٨م تعديلاً للقانون يشرع التعليم الأحادي الجنس في المدارس العامة. الشيخة هتشيسن هي محافظة من الحزب الجمهوري، وليس من المفاجأة أن يعارضها عدد من الشيوخ الليبراليين من الحزب الديمقراطي. شجب تاد كندي Ted Kennedy اقتراحها على أنه مشؤوم وغير دستوري، ووصفت الشيخة كارول موسلي براون Carol Mosely-Braun هذا الأمر بأنه مخيف.

عندما طرحت الشيخة هتشيسن نفس التعديل في يونيو ٢٠٠١م وجدت حليفة غير منتظرة تمثلت في الشيخة هيلاري كلنتون Hillary Clinton المنتسبة إلى الحزب الديمقراطي من ولاية نيويورك. صرحت الشيخة كلنتون: «بأن اختيار المدرسة العمومية ينبغي أن يتسع قدر الإمكان، وبالتأكيد لا ينبغي وجود أي عقبة داخل النظام المدرسي العام أمام اختيار التعليم الأحادي الجنس. ينبغي للمناطق التي توجد بها المدارس أن يكون لها الفرصة لصرف الأموال الفيدرالية الخاصة بالتعليم لتدعيم فرص إقامة مدارس أحادية الجنس طالما أنها متفقة مع القانون المعمول به».

وفي مجلس الشيوخ نفسه، مدحت هيلاري هذه المدرسة باعتبارها «أولى المدارس العامة للبنات في بلدنا»، مضيفة «نحتاج إلى مدارس أكثر مثل هذه». اعترفت الشيخة كلنتون بأن قضية التعليم الأحادي الجنس تتجاوز الانقسام الحزبي العادي.

والذي يبدو أن نجاح القيادة المدرسية للنساء الشابات كان عاملاً رئيسًا وراء إقرار الشيخة هيلاري للإعلان عن مساندتها للتعليم الأحادي الجنس.

إنه عهد جديد في التعليم الأمريكي. فهي المرة الأولى في فترة ثلاثين عامًا يصبح فيها للمدرسين والإداريين الحرية في تقديم تعليم أحادي الجنس للتلاميذ في المدارس العامة. وللمرة الأولى في التاريخ الأمريكي يوجد الآن تشريع قانوني واضح يصرح بأن التعليم الأحادي الجنس يؤدي دورًا في المدارس العامة الأمريكية. وبهذا فتح الباب للابتكار الحقيقي. ولكن يبقى السؤال مطروحًا: هل المدرسون الأمريكيون مؤهلون لمواجهة التحدي؟ ■



إعداد: منى الخضيري - الرياض

برنامج مفيد

Mp3 Audio Mixer

الحجم: ١,٦٣ ميغا بايت تقريبًا.

الإصدارة: ٢,٤.

الموقع: www.acoustica.com

كثيرًا ما نبحث عن برامج لعمل مؤثرات على الصوتيات، كاقتباس مقاطع مثلاً، أو دمج أكثر من صوت في الوقت نفسه، ولتغيير أنساق الملفات، ولتسجيل الأصوات. هذه المرة سنقدم أحد البرامج التي تقوم بهذه الأعمال كلها في الوقت نفسه، وهو برنامج صغير الحجم نسبيًا مقارنة ببعض برامج الملتيميديا. يمكننا من التحكم بالأصوات لعمل مقاطع شعرية، أو إيقاعات، أو عمل مقاطع صوتية لإضافتها إلى الهواتف الجوالة.

تغيير أنساق الملفات

من واجهة البرنامج الرئيسة ننقر نقرًا مزدوجًا على المساحة على شريط الصوت، ونقوم باختيار الملف الذي نريد تغيير امتداده، سيتم استيراد الملف إلى البرنامج، عندها نقوم بحفظ الملف على أي صيغة نريد وذلك باختيار الامتداد من أسفل نافذة الحفظ.

اقتباس مقطع من الصوت

نقوم باستيراد الملف بالطريقة نفسها، ونقوم بتحديد المواضع التي لا نرغب فيها من الصوت بالفأرة، ونحذفها إما بالنقر بالزر الأيمن للفأرة واختيار cut أو بالنقر على زر Delete على لوحة المفاتيح، كذلك نستطيع تغيير مدة بدء الملف الصوتي بسحبه بالفأرة ونقله. عند الانتهاء من التعديل على الملف، نقوم بحفظه بالطريقة نفسها.

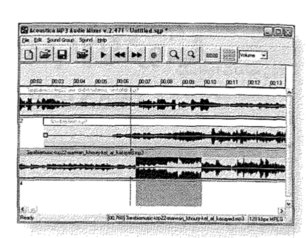
لدمج الملفات

ننقر على المساحة الخالية أسفل شريط الصوت، ونقوم باستيراد الملفات التي نريد دمجها، وبالطريقة نفسها نستطيع حذف مقاطع من الأصوات وتغيير حدة الصوت وغير ذلك.

سؤال وجواب

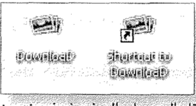
- يحدث أحيانًا أن يقوم حاسبي الشخصي بإقفال نفسه تلقائيًا، أو أن تنقطع الكهرباء عنه، فيضيع كل ما قمت بكتابته في برنامج مايكروسوفت وورد هباء، كيف يمكنني حفظ العمل بدون الرجوع إلى الحفظ اليدوي كلما قمت بإضافة شيء ما، أو في حال نسيان ذلك؟

نستطيع أن نجعل برنامج مايكروسوفت وورد يحفظ العمل تلقائيًا كل فترة وذلك لحماية عملنا من الضياع، ولتفعيل هذه الخاصية نقوم بالنقر على أدوات Tools ومن ثم اختيار خيارات Options ومن القوائم المنسدلة نختار حفظ save وأخيرًا نختار حفظ معلومات الاسترداد التلقائي

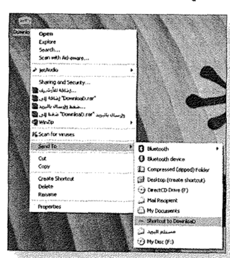


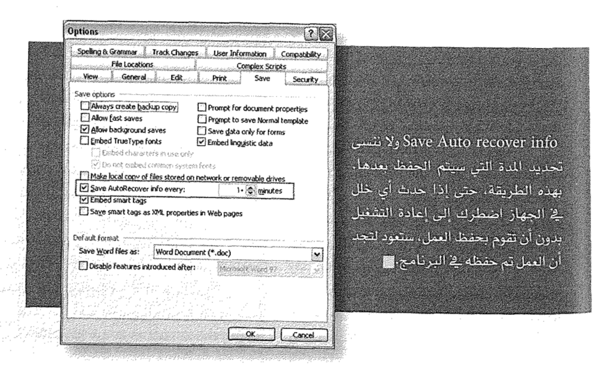
قائمة إرسال إلى

في الخيارات التي تظهر عند النقر على الزر الأيمن للفأرة، خيار إرسال إلى، وهو الذي يمكننا من إرسال أي ملف إلى أي مجلد أو قرص بشكل سريع، وهو الشيء الذي نرغب فيه كلنا من الخدمات التي تقدمها التكنولوجيا الحديثة، لكن غالبًا الخيارات الموجودة في القائمة المنسدلة لـ «إرسال إلى» هي افتراضية توجد في جميع الأنظمة. لكن ماذا لو رغبنا في إضافة مجلد خاص بنا لإرسال ملفاتنا إليه بسرعة، لهذا الأمر، نقوم بالنقر على المجلد الذي نريد إضافته إلى القائمة ونختار إنشاء اختصار Create shortcut وسيظهر لنا نسخة أخرى للمجلد سنعود إليها لاحقًا.



ننتقل إلى مجلد الويندوز ونبحث عن مجلد إرسال إلى Send to، وعند عدم العثور عليه في مجلد الويندوز، سنجده في مجلد Documents and Settings داخل القرص الصلب. ننقر على اسم المستخدم الذي نعمل عليه ونبحث عن المجلد المطلوب، ثم ننقل الاختصار السابق إلى المجلد. حينها سنجد في قائمة إرسال إلى، أمرًا جديدًا لإرسال الملفات إلى المجلد الذي أنشأناه سابقًا.





Save Auto recover info ولا ننسى تحديد المدة التي سيتم الحفظ بعدها. بهذه الطريقة، حتى إذا حدث أي خلل في الجهاز اضطرك إلى إعادة التشغيل بدون أن تقوم بحفظ العمل، ستعود لتجد أن العمل تم حفظه في البرنامج.

يتصدرها (www. hriders. com)

سباق محموم بين المواقع الإلكترونية لتقديم خدمة الإيميلات الضخمة

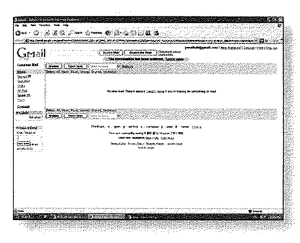
قبل هذا الوقت، كان الحصول على إيميل مجاني بسعة عشرة ميغا حلمًا لأي مستخدم للإنترنت، حيث كانت شركة ياهوو تقدم ما يقال إنه أكبر سعة للإيميل على الإطلاق وهي ستة ميغا، في وقت يظل - حتى وقت كتابة هذا المقال - أشهر مقدم لخدمة البريد الإلكتروني هوت ميل يقدم إيميلاً مجانيًا بسعة اثنين ميغا فقط!

وفي وقت تشتد المنافسة بين المواقع في تقديم أكبر سعة للإيميل، فحالما تقدم موقع محرك البحث الشهير غوغل بطرح خدمة بريد إلكتروني مجاني بمسمى جي ميل www.gmail.com بسعة خيالية لم يصدقها الكثير من مستخدمي الإنترنت، وهي ١٠٠٠ ميغا بايت (١ غيغا) وهي بازدياد حتى وصلت حاليًا إلى الضعف، وهي التي أشعلت الحرب بين مقدمي الخدمة لزيادة سعة الإيميلات، حيث إن الكثير من مستخدمي الإنترنت اتجهوا إلى موقع غوغل للحصول على إيميل لا يضطرون فيه إلى حذف رسائلهم حتى لا يمتلئ الصندوق ولا يتمكنوا من استقبال المزيد من الرسائل.

لهذا سنقدم عرضًا مختصرًا وليس على سبيل الحصر لبعض المواقع التي تقدم خدمة بريد إلكتروني مجاني بسعة كبيرة تفوق المئة ميغا .

من أهم وأقدم المواقع التي تقدم بريدًا إلكترونيًا مجانيًا موقع هوت ميل www.hotmail.com، لكن للأسف، لم يأبه حتى الآن بازدياد الطلب على البريد الإلكتروني الأكثر سعة لثقته بأن مستخدمي الهوت ميل لن يستغنوا عن خدماته، حيث تظل حتى الآن تقدم اثنين ميغا بايت فقط لكل مستخدم، لكن ذكرت مصادر مؤكدة أن مايكروسوفت وهي الراعي الرسمي لموقع هوت ميل، تعتزم زيادة سعة البريد الإلكتروني لتقف في صف المنافسة مع المواقع مرة أخرى.

كذلك من أهم وأقدم المواقع في تقديم خدمة البريد الإلكتروني هي شركة ياهوو www.yahoo.



com، التي تقدم مساحة ٢٥٠ ميغا بايت مجانية والتي تذكر حتى وقت كتابة هذا المقال أنها ستزيد سعة البريد إلى ١ غيغا بايت أي ما يعادل ألف ميغا بايت.

كذلك هناك موقع جواب www.gawab.com، العربي، الذي تحدثنا عنه سابقًا، والذي أصبح من أوائل المواقع العربية التي تقدم خدمة راقية للبريد الإلكتروني بسعة لا يعادلها أي موقع آخر وهي سعة ٢ غيغا بايت. ويمكنك على سبيل المثال أن تحتفظ بجميع رسائلك لمدة طويلة دون أن يصلك إشعار بامتلاء صندوقك.

ومن المواقع التي تقدم مساحة كبيرة للتخزين موقع www.myway.com الذي يقدم سعة ١٢٥ ميغا بايت مجانية لكل مستخدم، بالإضافة إلى خدمات رائعة تشجع الكثير للحصول على حساب فيه.

كذلك موقع www.walla.com يقدم سعة واحد غيغا بايت مجانية، وموقع www.hriders.com الذي يقدم رقمًا خياليًا لم يصل إليه موقع آخر وهو سعة ١ تيرابايت، أي ما يعادل ألف غيغا بايت تقريبًا. وقد يكون موقع www.unitedemailsystems.com من أقوى المواقع، ويقدم مساحة مجانية بحجم ٣ غيغا بايت لكل مشترك، ودعم كامل للغة العربية ومجموعات الياهوو.

مواقع مميزة



ملتقى معلمات الحاسب

☞ www.pc4sc.com

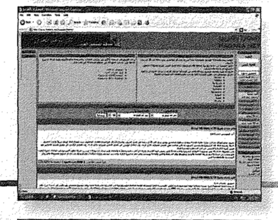
موقع قامت بإنشائه معلمة حاسب سعودية، تهدف من خلاله إلى زيادة الاطلاع على المستجدات وتبادل الخبرات بالمشاركة مع معلمي الحاسب في المملكة.



كليب آرت

☞ www.clipart.com

موقع يهم المعلمين للحصول على أفضل الصور لإضافتها إلى مستنداتهم، يحوي موسوعة كاملة لمواقع تقدم هذه الخدمة التي تسمى Clip Art.



الحضارة العربية

☞ www.hadara.net

موقع يهتم بالحضارات وتفاعلها الحضاري، بلغة عربية، وبشكل موضوعي بعيد تمامًا عن كل الصبغات الأخرى.



شبكة الطفل العربي

☞ www.arabian-child.net

موقع خاص يهتم بثقافة الطفل العربي، ننصح الآباء بزيارة الموقع للاطلاع على السبل التي تمكنهم من زيادة حصيلة أطفالهم الثقافية.

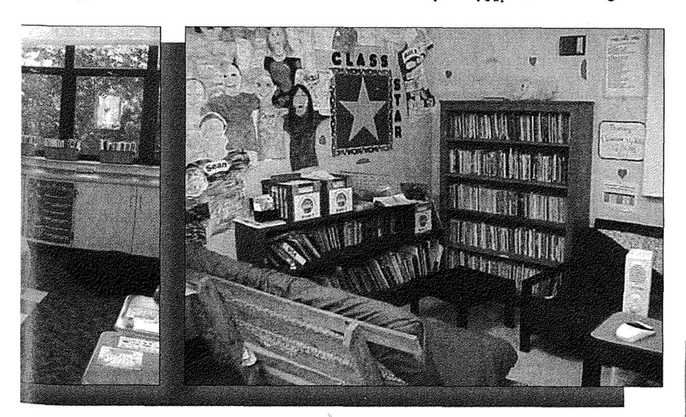
أسبوع روضة جامعة الملك فهد للكتاب ..

أربع ابتسامات في انتصار واحد

إيمان الكرود-الدمام

تقدمت المعلمتان رانيا إبراهيم ولمياء شاهين بفكرتهما المبتكرة بكل شجاعة وثقة إلى مديرة المدرسة . تطلعت إليهما في دهشة قائلة بسؤال تشجيعي في باطنه: «فكرة جبارة ولكن هل أنتما (قدها)؟، فأجابتا بإذن الله وانطلقتا في تنفيذ الفكرة.

صباح يوم السبت الموافق ٢٣ صفر الماضي، دخل أطفال روضة الملك فهد للبترول والمعادن فصولهم تزغرد فوق رؤوسهم صراخات الصباح البيضاء البريئة، وإذا هي قد اكتست بحلة مرحبة وقشيبة أرجاؤها مزدانة بملصقات جديدة لم تكن موجودة الأسبوع الماضي، وشعارات براقة تبتسم أكثر من أن توجه وتوجِّب، تروج لضيف الشرف المحتفل به «الكتاب»، ولتعلن للأطفال أن هذا الأسبوع لن يكون أسبوعًا عاديًا بل سيكون حافلاً بالمرح والأنشطة المتميزة، ولتعلن عقول الصغار المدهوشة حينها سؤالها المختوم بمئة علامة استفهام وتعجب، لماذا كل هذا الاحتفاء الكبير بـ«الكتاب».



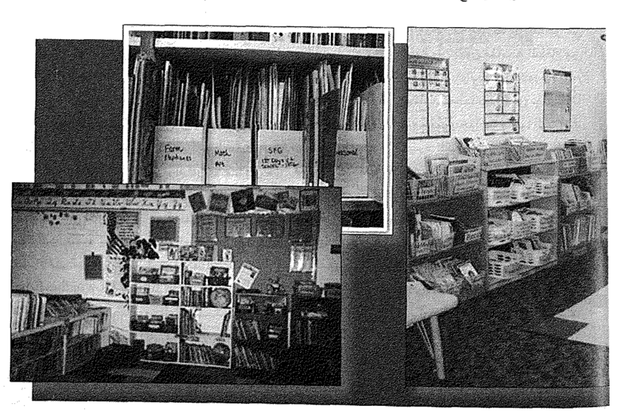
في نفس اليوم المفاجئ والمصخوب، وانطلاقًا من قاعدة تنمية روح المناقشة وحرية التعبير، تناقشت كل معلمة مع تلاميذها الصغار عن الكتاب، وأهميته والمتعة التي يحملها بين طياته، ثم تطرقن بعد ذلك إلى الكتب وأنواعها المختلفة، وكيفية التمييز بين الكتب الموجهة لأطفال الحضانة التي لا تحتوي غالبًا إلا على الصور، وبين تلك الموجهة لأطفال الروضة التي تجمع بين الصورة والكلمة وأخيرًا تلك الموجهة لعالم الكبار، التي تحتوي في مجملها على الكثير الكثير من الكلمات التي كتبت بخط صغير يفضله الكبار. تقول رانيا إبراهيم وزميلتها لمياء شاهين صاحبتا الفكرة ومنفذتاها: «أردنا من ذلك أن يتعلم الصغار كيف يختارون ما يناسبهم من كتب بأنفسهم مفرقين بذلك بين الكتب الموجهة للسنوات الأصغر والأكبر. كان شيئًا رائعًا لا يوصف وأنت تقرئين دهشة الأطفال وتناقلهم أسئلة غير مكتوبة بالأعين عن هذا الشيء الكبير المتنوع».

اليوم الثاني كان تطبيقًا عمليًا لما تعلموه في يوم السبت، جاء كل طفل مع والدته إلى معرض الكتاب الذي أقامته المدرسة بالتعاون مع مكتبة جرير الذي استمر طوال الأسبوع فرحًا بزيارة هؤلاء الأطفال بأيديهم الناعمة الطرية، واطلع بنفسه على الكتب بأنواعها المختلفة ووالدته بجواره مؤيدة ومشجعة لتوجهه نحو الكتاب الذي كادت تطمسه الثورة التكنولوجية، ثم اختار ما وافق هوى نفسه منها.

يوم الاثنين تحادثت المعلمات مع أطفالهن عن أهمية المحافظة على الكتاب، وكيفية استخدامه، وتصفحه، ثم بعد ذلك ولترسيخ هذا المفهوم الجديد أحضرت كل معلمة مجموعة من الكتب المهترئة والممزقة وقامت بإصلاحها وترميمها مع تلاميذها الصغار، كان المنظر حنونًا خلابًا يبشر بجيل يبجل الكتاب وفائدته فاحت منه رائحة تربوية عطرة.

اليوم الرابع قام الأهالي بإغلاق التلفاز و الألعاب الإلكترونية داخل منازلهم ليكون الكتاب ولو لمرة واحدة بطل المكان والزمان والأطفال المحبب، موفرين لأطفالهم الجو الهادئ لممارسة القراءة وغيرها من البدائل التي اقترحتها الروضة.

اليوم الأخير كان هو اليوم الكبير، إذ تخللته الكثير من حوافز التشويق لأذهنة الأطفال، ففي الصباح الباكر جاء كل طفل إلى الروضة وقد ارتدى ملابس النوم، وهناك تجمع الأطفال حول معلماتهن اللاتي قرأن لهن بعض القصص الشيقة الممتعة، ثم تحلق الأطفال في دوائر ليصنعوا فاصلاً للكتب حمل رسومهم البريئة و ألوانهم الجريئة، الممزوجة بابتسامة خضراء



بعد أن عقدوا الصداقة مع «الكتاب». بعد ذلك توجه الأطفال إلى مسرح المدرسة حيث قامت المعلمات بعرض مسرحي باستخدام العرائس تحدثن فيه عن الكتاب وأهميته، ولكم أن تتذكروا تأثير هذه العرائس في مشاعر الطفل وحواسه الخمس وأسئلته.

لم ينته اليوم، بقي شيء آخر ألذّ للطفل من سابقه، ففي المساء استضافت الروضة مهرجان القراءة الرابع الذي تنظمه منظمة تارا سنويًا، الذي تميز عن المهرجانات السابقة بشدة التنظيم وتنوع الأنشطة، التي وجهت هذه المرة لكل من الأم والطفل على حد سواء. إذ بينما استمتع الأطفال بسماع القصص من القارئات المتطوعات المشوقات بأسلوبهن من خلال ثماني عشرة قصة بين عربية وإنجليزية استفادت الأمهات من محاضرة «من أجل طفل يحب القراءة» التي ألقتها الدكتورة ازدهار منصور الحريري الأستاذ المساعد في قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بالدمام التي تطرقت إلى بعض الأساليب المقترحة لتعزيز القراءة مثل قراءة الكرتون في المجلات وتنفيذ مسرح العرائس وعمل الخرائط للأماكن المألوفة لدى الطفل وتشجيعه على قراءة قائمة الطعام عند الذهاب للمطعم وأن يقوم بطلب الطعام الذي يرغب فيه. مؤكدةً في جزء هام من محاضرتها أهمية أن يقوم الطفل بنشاط تطبيقي بعد الاستماع للقصة ذلك - حسب الدكتورة الحريري - أننا نتذكر ٢٠٪ مما نقرأ و٣٠٪ مما نسمع و٥٠٪ مما نقرأ و نسمع و٧٠٪ مما نقول و٩٠٪ مما نقول ونسمع.

أما الأنشطة التي قام بها الأطفال بعد الاستماع للقصص التي فتحت لهم النوافذ لعالم أكثر غرابة وتشابكًا وبهجة، فهي أجمل من أن تحصى، إذ توجه الأطفال إلى المطبخ لصنع البيتزا اللذيذة بعد استماعهم لقصة الأميرة والبيتزا. كان مشهدًا تاريخيًا لعيون الأم لن تنساه في حياة ابنها، كما مثلوا بربكة فضفاضة أقل ما يقال عنها إنها جميلة أحداث القصة متقمصين شخصيات الحيوانات المختلفة التي تحدثت عنها القصة، وذلك بعد استماعهم لقصة I Was Walking Down the Road التي قدمتها جمعية فتاة الخليج، قاموا أيضًا بهمة ولهفة المستكشف بصنع سفينة نوح عندما استمعوا إلى قصة السفينة، وغيرها من الكثير من الأنشطة التي أعقبت الاستماع بالعمل.

الأستاذة الفاضلة ليلى الحربي مديرة الروضة قالت وعلامات الفوز تقفز بين حروفها «غاية المهرجان توصيل هدف تعليمي للطفل بطريقة ترفيهية ومحببة ومرحة والخروج عن مبدأ اللعب لمجرد اللعب، وغرس حب القراءة لدى الأطفال والتعرف على أنواع الكتب وإكساب الأطفال كمًا من المفردات الجديدة. و ما تفاعل كل من الأطفال والأمهات مع الأنشطة والفعاليات التي أقيمت خلال ذلك الأسبوع إلا دليل على نجاحنا في توصيل الكتاب لعقل الطفل ونجاح الطفل بتفوق في هذا المهرجان». وتعزو الأستاذة ليلى النجاح الذي حققه هذا الأسبوع إلى التخطيط البعيد المدى حيث إن إدارة الروضة تقوم على مبدأ التخطيط المسبق وذلك من خلال عمل تقويم للسنة الجديدة، يشمل الأيام الخاصة والمنهج مما يعطي متسعًا من الوقت للتفكير في آراء ومقترحات المعلمات والأمهات المطروح، ثم تقوم الروضة بتوزيع هذا التقويم في بداية كل سنة.

كان من بين الأمهات الحاضرات في ذلك اليوم الدكتورة صباح عبدالكريم العيسوي أستاذ أدب طفل المساعد في كلية الآداب في الدمام التي أثنت على المهرجان فهي تعتقد أن الطفل يحتاج إلى تكوين علاقة جيدة بالكتاب منذ الصغر، قائلة:«والقصة مدخل جيد ووسيلة فاعلة في ربط الطفل بالكتاب وتعليمه القراءة وتنمية مهاراته اللغوية. إضافة إلى تنمية جوانب عديدة في شخصيته وعقله ووجدانه بشرط أن تتوافر في القصة العناصر الفنية وأن تكون مناسبة للطفل من الناحية اللغوية والإدراكية». وأبدت الدكتورة صباح إعجابها بمعرض الكتاب المصاحب الذي جاء أنيقًا ومنتقى بعناية واعية. وعلقت وبجوارها طفلها المشارك «هذا المهرجان نصرة للكتاب من هجمة لأساليب الترفيه التقنية المفترسة لعقلية الطفل ووقته وجهده».

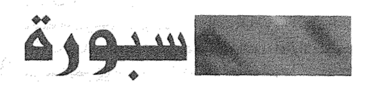
أسبوع الكتاب في هذه الروضة الفتية خرج بطفل جديد أضيف إليه حب الكتاب وصداقته. كانت الابتسامات متقاطعة متناغمة، ابتسامة الإنجاز لمنسوبات الروضة وابتسامة الأمهات بتميز أطفالهن بالفرحة والدهشة، وابتسامة الأطفال بصديقهم الجديد والكبير، وابتسامة الكتاب بلذة الوفاء وعظمته. كان المنظر فائق الألوان وكانت الصورة تخبئ أشياء معنوية لا تقدر بقيمة، بحق كان أسبوعًا ليس كمثله أسبوع. ■

- «التربية الجنسية» أكذوبة الثقافة

- بعد معايشة الواقع . . شعورنا عظيم بأهمية الموضوع

- عنق الزجاجة

- موضوعات الملف يحتاج إليها كل تربوي



تعقيبات على ملف التربية الجنسية

لا اعتراض

فاطمة خوجة ـ ينبع الصناعية

لا اعتراض على مفهوم الثقافة الجنسية والمهارات التي تهدف التربية الجنسية إلى تنميتها، ولكن تحويل «التربية الجنسية» إلى منهج دراسي يعيقه الواقع التعليمي في مدارسنا. فمدارسنا كما قال عالم النفس جان بياجيه: «تضم الكثير من المعلمين والقليل من المربين».

هناك من المعلمات من ترفض شرح درس الحيض «الذي كان مقررًا على الصف السادس الابتدائي حتى العام الدراسي الماضي في مادة الفقه»، وتحوله لمعلمة أخرى بحجة أنها تستحي! ما الفائدة من طرح مناهج جديدة وطرق جديدة لتقويم الطالب، والمعلمون هم كما هم لا يتطورون وليس لديهم الاستعداد لتطوير أنفسهم إلا من رحم ربي؟!

ما نخشاه هو أن يؤدي استعجالنا في تدريس «التربية الجنسية» إلى أن تصبح على أرض الواقع مادة للحفظ والاختبار، لا مادة تؤدي دورها في تغيير سلوكيات الدارسين لها. ولكني أضم صوتي إلى صوت الأستاذ محمد الجهني في رؤيته لأسلوب تدريس منهج التربية الجنسية في أن يتم بث مفردات مقرر التربية الجنسية في ثنايا المقررات الدراسية التقليدية، فتتناول كتب الفقه مثلاً موضوعات الزنا واللواط والسحاق... ومادة الحديث آداب الاستئذان والتفريق في المضاجع وغض البصر... ومادة التفسير سورة يوسف، وسورة النور، وسورة الأحزاب... ومادة العلوم العلاقات السوية وغير السوية جنسيًا...، وأن تزوّد مكتبة المدرسة بالكتب الجادة الرصينة التي تناقش الثقافة الجنسية مثل الكتب التي أعدتها منظمة الصحة العالمية باللغة العربية باسم التثقيف الصحي للمراهقين والمراهقات.

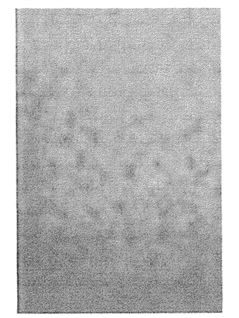
كذلك أرى مناسبة تأسيس قناة تربوية خاصة من ضمن أهدافها التثقيف الجنسي، وإعداد الفتى والفتاة ليكونا زوجين ثم والدين، والاهتمام بالعلاقات السوية وغير السوية جنسيًا، والأمراض الجنسية، والبيئة الصحية للعلاقة بين الجنسين، وكيفية التعامل في حالات التحرش الجنسي، وتنمية روح الحوار في مثل هذه الموضوعات لدى المعلمين. يشرف على هذه القناة مختصون وأهل علم ومعرفة ودراية، ولا سيما قد أصبح الناشئة يتقبلون من الفضائيات أضعاف ما يتقبلونه من والديهم ومعلميهم!! ■

لم أتخيّل!!

خليل سليمان خياط ـ جدة

حسن حظي قادني للعدد ١١٨ من مجلة المعرفة. سعدت به واستفدت كثيرًا وأصدقكم أني لم أتخيل أن مجلة سعودية تطرح مثل هذا الموضوع «التربية الجنسية» وبهذا الأسلوب الراقي من خلال أهل العلم ورواده. بصفتي والدًا وجدًا كنت أجد الحرج في تناول مثل هذا الموضوع، ولكن أجدني الآن أقدر بعد أن وجدت في ثنايا العدد ما أفادني خصوصًا أننا (معشر السعوديين) لا نثق بمعظم الطروحات المستوردة.

أتمنى لكم التوفيق والعون في مواجهة التحديات والاعتراضات التي ستأتيكم. ■



«التربية الجنسية» أكذوبة الثقافة

أسماء العقلاء - سكاكا

أثارت موضوعات عدد شهر محرم لعام ١٤٢٦هـ المعدّة لقضية التثقيف والتربية الجنسية حاجتنا الحقيقية للتصدي للعولمة الجديدة التي أحاطت بغيومها صفاء سمائنا. فكوننا نتعامل مع هذه القضية فكأننا نعاني ما تعانيه المجتمعات من الاحتضار العالمي والسقوط في ظل إفرازات المدنية والمجون السائد في الإعلام ونسينا أو تناسينا أننا أمة كفانا ديننا ما ينشده الغرب وبحثه المستميت عن خيوط الفضيلة ليصل إلى طوق النجاة وحاجته إلى هذا النوع من الثقافة نتيجة الفراغ التربوي والديني الذي تشهده مجتمعاتهم.

وقد يقول البعض إننا لا نبتعد كثيرًا في إثارة هذا النوع من الثقافة عن دائرة الدين وما يأمرنا به ولكن قد يغفل البعض عن أن تحدينا الحقيقي يكمن في وجود فكر مضاد لما تفرزه قنوات الإعلام المختلفة من مجون وحرب أخلاقية بدأت رياحها تطرق أبوابنا وبقوة، ولا يكون الفكر المضاد أو الفكر الوقائي لما نشهده إلا في تقوية الوازع الديني الذي بدأت تهتز أركانه نتيجة الضربات المتتابعة ليطل البعض برؤوسهم مدعين ضرورة التربية والتثقيف الجنسي، وما هي إلا أكذوبة ثقافية ادعوها ورسموا بتصوراتهم ضرورة وحاجة أبنائنا لهذا النوع من الثقافة!!

الثقافة الجنسية التي يطالب بها البعض ليست هي اللبنة التي يفتقدها جيل اليوم لتتكامل لبنات القوة في فكره، وإن عقول أبنائنا لا تحتمل هذا التزييف في الحقائق وهذا التشويه السافر على فكره وثقافته؛ فهو يتطلع لما ينتشله من ضحالة الفكر وضيق أفقه لدائرة التأثير في مجتمعه ووطنه. فحري بنا كمؤسسات تربوية أن نكون ذلك الجسر الذي يعبر منه لصناعة التقدم لمجتمعنا ووطننا بتربية واعية جادة مستمدة أصولها من ثقافة إسلامية هدفها تقوية الوازع الديني في النفوس بعيدًا عن تخبطات الغرب الفكرية.

نحن بحاجة إلى تربية دينية وخلقية لا تجعل من أبنائنا ضحية بين سندان الإعلام ومطرقة التربية. ■

موضوعات الملف يحتاج إليها كل تربوي

لياء أحمد الحاج - جدة

أنا من أشد المعجبات بمجلة المعرفة التي تخرج دائمًا في حلتها عن حيِّز المألوف والنطاق التقليدي للمجلات التربوية الأخرى، كونها تحرص على التنوع والتميز في موضوعاتها من العلمية والتربوية إلى الثقافية والأدبية، وقد اطلعت على عدد المجلة لشهر الله المحرم رقم (١١٨) للعام الهجري الجديد ١٤٢٦هـ، وقرأت موضوعاتها (ملف التربية والتثقيف الجنسي) التي شدتني في جرأتها وصراحتها ووضوحها في تناول هذه الموضوعات (المحرم على جميع التربويين التطرق إليها أو ذكرها). وسرني أن نرتقي بفكرنا وأسلوبنا في الخروج من دائرة مغلقة ومكررة ومظلمة إلى دائرة مستنيرة، لذا فأنا أحيي جميع من أسهم في إخراج هذا العدد بموضوعاته المنوعة القيمة الجديدة علينا والجريئة التي يحتاج إليها كل تربوي، بل كل أم وأب، وكل طالبة وطالب، ولا يمكن لنا أن نفر من الواقع والحقيقة، أو ننكرها بالابتعاد عنها، خصوصًا أن المجتمع العالمي (القرية الكونية) والعولمة والإنترنت (الشبكة العنكبوتية) والقنوات الفضائية، والأفلام، وغيرها اقتحمت منازلنا وغزت أفكارنا من خلال ما تبثه إلينا من هذه الموضوعات، التي يتم تناولها بأشكال وصور مختلفة أغلبها مشوهة ومثيرة للغريزة الجنسية. ■

سبورة

سبورة

لماذا هذا العنوان المزعج؟!

محمد علي درع - أبها

لقد قرأت العدد الثامن عشر بعد المئة (١١٨) من مجلة المعرفة، وكان لي بعض الملحوظات حول هذا العدد تختص بموضوع التربية والتثقيف الجنسي:

❖ إن طريقة الإسلام في التربية الجنسية تختلف تمامًا عن إثارة العواطف الجنسية. إننا نلحظ التعبير القرآني حول هذه الأمور الجنسية يكون تعبيرًا بالتلميح دون التصريح أو بالكتابة (أحيانًا) من باب الأدب في ذكر هذه المعاني لقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث﴾، ﴿أو لامستم النساء﴾، ﴿فأتوا حرثكم﴾.

❖ إن تخصيص مادة للتربية الجنسية سوف يجعل من هذه الأمور مسرحًا للطلاب والطالبات لأخذ هذه الأمور بنوع من التطبيق والممارسة والتجريب أو الضحك واللامبالاة.

❖ إن غرس هذه المادة (أعني التربية الجنسية) في أذهان الطلاب هو غرس للجنس والشهوة فيه بدلاً من غرس التربية الإسلامية التي تشحذ من همته وتفي بمطالب الجسد كله، وتحقق الغاية التي يريدها التربويون. وإشغال فكر الطالب بالجنس يجعله يحاول البحث عن طريقة لإشباع غرائزه وإرواء ظمئها.

❖ إذا كان التربويون يريدون الوصول بالطالب إلى العفة في عصر انتشرت فيه القنوات الفاضحة فهذا عمل محمود. ولكن الرأي أن يغير العنوان أو المفهوم إلى مادة «بناء الأخلاق» تكون من مهام مفرداتها معالجة قضايا تهم الشباب ولاسيما ظاهرة الجنس ولكن دون ترسيخ.

وبذلك نكون قد حققنا الأهداف المرجوة والمنشودة من التربية والتهذيب.

إن تدريس الموضوعات الجنسية ينبغي أن يكون بطريقة حذرة، فإن تحريك الكوامن العاطفية والغرائز الجنسية للمراهقين والمراهقات أمر في غاية الخطورة، وعليه فإن التربية الإسلامية للنشء في حياته الأولى مع والديه كفيلة بتوجيه الطالب أو الطالبة إلى تلقي قسط وافر من العفة والكرامة وحفظ حقوق الآخرين وعدم التعدي على الأعراض المصانة.

❖ إن كانت هذه المادة (التربية الجنسية) قد درست في الغرب فما ذلك إلا لبعدهم عن الله جل وعلا، وللدعوة الإباحية في مجتمعاتهم الفاجرة. فكانت الحاجة بالنسبة لهم ماسة لتدريسها. أما في ديار الإسلام فإن هناك تربية للمسلم وقيمًا ودينًا تمنعه من الوقوع في هذه الفواحش. أولها وأعظمها مراقبة العبد لربه قال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾، ﴿قال معاذ الله﴾ وفي الحديث «ورجل دعته امرأة... فقال إني أخاف الله». فلماذا هذا العنوان المزعج؟! ولماذا الإصرار على وضعها في مقرر مستقل مع أنه بالإمكان دمجها ضمن مفردات الدراسة والمواءمة في اختيار النصوص، فليس من المعقول تدريس آيات الحيض في سن مبكرة. وليس من المفروض تدريس آيات الجماع والنكاح في مرحلة المراهقة.

❖ هل التربية الجنسية هي القضية الوحيدة في عصرنا التي بحاجة إلى تفعيل أم أن هناك قضايا أخرى لا تقل أهمية عن هذا؟! وهل الشباب في هذا الوقت بحاجة إلى الثقافة الجنسية؟ وهم سيهدمون ما درسوه وما يدرسونه في المدرسة عن طريق القنوات الفضائية أو مقاهي الإنترنت، وخطوط الصداقة والتسكع أمام مدارس البنات!! الواجب أن يكون الموضوع تحصينًا للشباب من الأفكار الهدامة والقنوات الفاسدة والمجلات الهابطة والأغاني الماجنة والمخدرات...

❖ جاء في العدد «أن من مناهج هذه المادة استعراض الاختلافات العضوية التي تطرأ على جسم الشاب أو الفتاة في فترة المراهقة وذلك عن طريق عرض صور توضيحية توضح هذه التغيرات...». والسؤال: ماذا سيحدث للطلاب عندما تُعرض لهم هذه الصور؟! وما يمكن أن تحدثه في نفوسهم؟!

ثم متى كانت العروض الجنسية مثيرة للبهجة والتفاعل وتنمية مهارات الشباب؟!.

❖ جاء في العدد: «ومن الأهمية بمكان عدم التأخر في تزويد الشباب بالمعلومات، بل يجب البدء في تلك العملية في سن مبكرة...». سبحان الله!! هل كانت التربية الجنسية في مجتمع الصحابة هي الأهم أم أن هناك ما هو أهم من ذلك؟ لقد كانت الصلاة هي اللبنة الأولى والأساسية في التربية، قال عليه الصلاة والسلام: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع». لقد لاحظ الرسول عليه الصلاة والسلام أن التربية الدينية وغرس القيم الأخلاقية هي الأولى والأصلح.

يغفل كثير من التربويين دور العبادة في منع الشباب من الوقوع في المعاصي والرذائل، فالشاب والشابة إذ ما حافظا على الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وابتعدا عن أماكن الشيطان وعلما حرمة الزنا وعلما عقوبته ارتدعا وتحصنا بإذن الله. فالصلاة الصلاة هي السلاح الواقي لكل مصائب البشر.

ليس عيبًا تدريس الطالب آثار الفاحشة وضررها على الفرد والمجتمع أو الأخلاق ومساوئ الاختلاط وانتشار الفواحش من الصنفين أو العبث بالأعضاء التناسلية أو تدريس بعض القضايا المصاحبة للجنس من الاغتصاب والتحريش، لكن يجب أن يوضع كل شيء في مكانه المناسب ضمن الموضوعات الخاصة بالمناهج. أما أن تفرد هذه الأمور على شكل مادة مستقلة فإنه «عمل غير صالح» ■

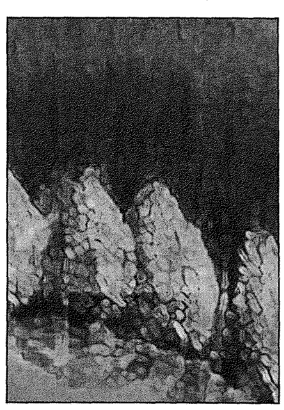
سبورة

جاء متأخرًا

سعود المزعل - الكويت

أعتقد أن الجدل حول هذه المسألة قد أشبع كثيرًا من خلال المنتديات الإلكترونية (على الأقل)، وطرحها في هذه المجلة الموقرة قد جاء متأخرًا كثيرًا، خصوصًا أنها تعد منبعًا ورافدًا مهمًا للفكر الحر والنير، وأن كثيرًا من الناس قد نسي ولم نجد له عزمًا! نعم التربية الجنسية أمر ضروري، وتهذيبها وعقلنة الغرائز فيها مطلب مصلح في ظل (روبنة) المشاهد العربي وتشويه صورة الغريزة « ولكل قوم هاد ».

يبقى أمام التربويين العرب مهمة جليلة، أن تنزل هذه الأفكار إلى أرض الواقع، فالشارع أو الفضائيات ليست بمكان (مع الأسف) طاهر كي يتزود من خلاله أبناؤنا بتعاليم وضوابط العملية الجنسية. ■



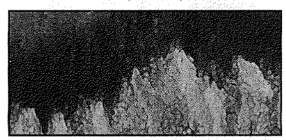
معهد التربية الفكرية بعنيزة :

بعد معايشة الواقع.. شعورنا عظيم بأهمية الموضوع

سامي صالح الغرير - عنيزة

اطلعنا بإعجاب وتقدير على ملف «التربية والتثقيف الجنسي» الذي تضمنه العدد ١١٨ في شهر الله المحرم من العام الهجري الجديد ١٤٢٦هـ من مجلة المعرفة وألفيناه شاملاً واضحًا معززًا لخبرات تعليمية غائبة أو مغيبة قسرًا عن حياة الكثير من أبنائنا الطلاب (الأطفال، المراهقين، الشباب) من دون مبرر واقعي ولا وجه حق وبأدلة لا يعضدها دليل ديني ولا يقويها سند علمي إلا اللهم نظرة اجتماعية قاصرة تتخذ منه عنوانًا للشر ومكمنًا للخطر وبؤرة للفساد والخراب ورجسًا من عمل الشيطان، ما لم يتخذ من فحش الكلام مسلكًا ولم يتبع سقط الكلام دربًا ولم يتجاوز الضوابط الدينية والمحاذير الشرعية ولم يُعرض ولم يتخذ مطية لتحقيق أغراض خاصة وطرح بأسلوب عف طاهر بعيدًا عن الإثارة والابتذال، مؤكدًا على الفضيلة والعفة، مراعيًا لبعض الضوابط (العمر الزمني، المستوى العقلي ودرجة الذكاء، احتياج الطفل أو المراهق، مستوى النضج النفسي والاجتماعي).

سبق لنا في معهد التربية الفكرية في محافظة عنيزة خلال العام المنصرم إصدار كتيب بعنوان



«التربية الجنسية للمعوقين عقليًا، الأطفال والمراهقين، دليل للآباء والمدرسين» كتبناه مدفوعين من إيماننا التام بوجاهته كجانب خفي وشبه مجهول لدى الكثير من الآباء والأمهات في المنازل والمربين في المدارس، وبأنه أحد جوانب التربية المسكوت عنها والتي تتداخل مع جوانب تربوية أخرى (التربية الدينية والأخلاقية والصحية والنفسية والوقائية)، ولشعورنا العظيم بأهميته التي اتضحت وتأكدت لنا من خلال الممارسة والمعايشة لأبنائنا الطلاب زهاء عشر سنوات، ولأنه يستمد أهميته وقوته وشرعيته من كونه مما جبل الله سبحانه وتعالى عليه كل نفس إنسانية فأودعها غريزة جنسية تحتاج إلى الضبط والرعاية والتوجيه وهو ما لن يكون ويتأتى ما لم تمارس وتقدم برامج تربوية علمية واقعية تفي باحتياجاته وتحقق غاياته وتغني مطالبه.

ويعضدنا في طرحه ديننا الإسلامي القويم الذي تحدث وطرح بكل صراحة ووضوح هذا الموضوع في العديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فهل نغيب أيضًا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؟!

لذلك فقد صممنا على إصداره وتزويد كل من له علاقة مع أبنائنا المعوقين عقليًا وجميع الإدارات التعليمية وبرامج التربية الفكرية في بلادنا المملكة (بشقيها البنات والبنين) بنسخ منه، بالإضافة إلى العديد من جمعيات ومؤسسات التربية والرعاية والتأهيل الخاصة والعامة داخل المملكة وخارجها.

خناق الإحراج

أحمد خالد العبد القادر - الأحساء

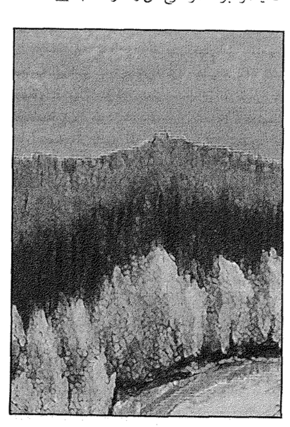
كانت خطوة جريئة قد أقدمت عليها مجلة المعرفة بطرح موضوع شائك وحساس يحمل رفضًا مبدئيًا (أو امتعاضًا) لطرحه في أوساط مجتمعاتنا المحافظة، مع أن هذا الموضوع (التربية الجنسية) مطعم في مناهجنا عبر موضوعات توحي به إيحاء واضحًا يبدو من خلال سطور المقررات الدراسية، إلا أن مكمن الخلل في تقاعس المدرسين وتحرجهم من شرحه وبثه بين الطلاب، فأبواب: كالغسل وأحكام الزواج والجماع وغيرها تتعرض لمقص يبترها من مقررات المنهج الدراسي!! وقد جرّني ذلك إلى واقعة كنت فيها عندما طلب أستاذ مادة الحديث وضع الدرس الجديد المفترض شرحه تحت قيود (قراءة)، يعني أنه لن يشرح ولن يكون ضمن مادة الامتحان!!

وامتعضنا حقيقة لأن الموضوع يبدو غريبًا بالنسبة لأعمارنا حينها، إلا أن الأستاذ انطلق في شرحه للدرس الآخر غير مبال بنظرات الغضب والاستفسار، ليتوج أحد الطلاب بعد ذلك نفسه أستاذًا ويستعرض ما يعرفه عن هذا الموضوع بطريقة أوقعتنا تحت صدمة مهولة نتلقاها لأول مرة.

إنه الإشكال الذي ظل معوقًا لسير التربية الجنسية على وتيرة متسقة مفترضة، فحرج الأساتذة يمنع إيصال هذه المادة إلى الطلاب. ومع تخاذل الأب عن كشف طلاسم هذا الموضوع ومحو إشكالات تتراص على مخيلة ابنه المراهق، يقع عندها الابن في دوامات الادعاء من قبل زملائه عن معلومات جنسية قد يتلقاها بطريقة سلبية تجتمع مع عنفوان ملتهب في قلبه ليسير على طريق لا قاع له!!

ولعل من الإشكالات الموصدة لهذا الباب يبرز في المسمى «التربية الجنسية» فنحن نعير للأسماء أكثر ما نعير لما تحتمله، فلو كان مسمى «التربية الزواجية» أو «أحكام المعاشرة» وما يسير على معناهما من دلالات لأُطفئت نيران الرافضين الذين أمعنوا في الاسم وغفلوا عما يبطنه من موضوعات وإشارات وأحكام توصل الحقيقة المتجلية للعقول بعد أن شوهتها مواقع الإباحية الداعرة في الإنترنت وقنوات الجنس. إن البعض يحمل هذا الموضوع على ما يقرأ عبر روايات ذات إيحاء جنسي صارخ ويثير الموضوع على هذا الجانب الأحادي دون أن يدرك ماهية الموضوع وأهميته الحقيقية!!

لقد أفلح كتّاب الموضوع وباقتدار في نبش حقائق هذا الموضوع من جميع المناحي (الاجتماعية والنفسية والسلوكية) وكشفوا عن عواقب الإغفال عن تفعيل هذه التربية وحبس موضوعاتها بين الأدراج وبين دفتي الكتاب دون الإشارة إليها، وقد حملت لنا كتبًا عظيمة من سلفنا الصالح تشير إلى هذا الموضوع بأدب رفيع وأسلوب راق وعبارات رائقة بديعة، سبكها نفر من علماء الأمة الأجلاء الذين أدركوا أهمية هذا الموضوع وملامسته للفطرة واحتكاكه مع القلب، فكان لهم الدور الفعال الذي غيبناه تحت طائلة العيب وقلة الحياء وهبوط الموضوع عن ركائز الأدب. ■



سبورة

عنق الزجاجة

مصطفى محمد ياسين - الأردن

كيف يمكن للإنسان أن يواجه في كل يوم، يذهب فيه إلى عمله، شعورًا بأن «المقصلة» تنتظره على باب المدرسة لتطيح برأسه؟!

والمقصلة آلة سيئة السمعة في التاريخ، وهي تشبه مقص الأوراق الكهربائي، اشتهرت إبان الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، عندما بدأت الأحقاد والتصفيات الجسدية تأخذ طريقها إلى رفاق الأمس من الثوار، فيما عرف بـ«الثورة تأكل أبناءها». لكن، ما الفلسفة التي انطلق منها «صاحبنا» ليواجه ذلك الكيد الذي نصب تلك الآلة لتطيح برأسه؟!

بعد أن أنهى «البيان والتبيين» للجاحظ، معلم العربية الأول وقارئها النهم وعاشق أدبها، نصحه أحدهم أن يقرأ «العقد الفريد» لابن عبدربه الأندلسي.

وبقي في ذاكرته من «العقد» أكثر مما بقي من «البيان»، ولعل مرد ذلك إلى إعجابه بجواهر العقد المتلألئة أكثر من إعجابه أو قل تأثره ببيان الجاحظ الساطع!!

ومما بهره في «العقد الفريد» أخبار أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، شيء يزيد على الحكمة التي حفظها صغيرًا «لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، إن أرخوها شددتها، وإن شدوها أرخيتها»!! ما أعجبه، أن أمير المؤمنين، وبعد أن استقرت له الدولة في سلطانه وأمره، راح يبحث عن بعض أعداء الأمس، ممن عرفوا بأثرهم في التأليب عليه ومناصرة خصومه، يجلس معهم ويستفزهم ويستخرج ما في صدورهم، حتى لو كان في ذلك انتقاص منه أو سب له أو لأهل بيته! ثم يحسن إليهم بعد ذلك، إحسانًا يملأ أكفهم وأفواههم بالمال الوفير، فلا يجد منهم بعد إلا الولاء.

حدث ذلك، في مكة مع «الدارمية الحجونية»، عندما انتقدها في سمرتها وجسمها، فأجابته «إنما يضرب المثل في ذلك بأمك هند»!!

ومع الأحنف بن قيس، في مجلسه في دمشق عندما ذكره أمير المؤمنين بموقفه يوم صفين، فرد الأحنف بعنف: «إن السيوف التي حاربناك بها لا تزال في أغمادها...» ويقوم الأحنف وعندما سئل معاوية: من هذا؟ قال: إنه الأحنف، إذا غضب غضبت معه مئة ألف سيف من بني تميم!!

دهاء لا مثيل له في دنيا الرجال، وسلوك عز نظيره في دنيا السياسة، وفهم للنفس البشرية في قيادتها وتطويعها وإدارتها لا تجتمع لرجل واحد إلا كل قرون!!

وصاحبنا يروي ذلك لما له من أمثولة في السيطرة على الأحداث، واحتمال الأذى، ورسم السلوك، فمن لم تنفعه العظة، فقد فاتته الحكمة، وركب من الحمق مركبًا، قد يورده الهلاك والبوار.

جاءه النقل إلى مدرسة أخرى، وأغضبه ذلك غضبًا شديدًا، لأنه حرمه من مدرسة أحبها ووجد فيها مكانًا لقدراته ونفسه، ولأنه شعر بكيد من وراء ذلك. لقد مضى من العام الدراسي شهران، واختيرت له تلك المدرسة اختيار «أمر بُيّت بليل».

في تلك المدرسة «مدير ديكتاتور» يرى كل مدرس قادم إليه إنما جيء ليعاقب عنده!! لهذا لا يرضى معلم أن ينقل إلى مدرسته. ولقد نقل في شهر واحد سبعة مدرسين لأنهم ليسوا على هواه!!

انصاع صاحبنا للنقل، بعد تلكؤ مرغمًا، وذهب يقدم رجلًا ويؤخر أخرى!!

وجد دروسًا لا تناسبه، ولم يعلّمها قط، في خلال سنوات عمله التي تجاوزت ربع قرن!

إنه الصف الأول الابتدائي!! ذلك الصف الذي يتهرب منه المعلمون، لحاجته إلى الصبر والجلد والمثابرة والخبرة لتجعل هؤلاء الصغار يقرؤون ويكتبون ويحسبون أيضًا. في نصف عام دراسي !! وقد بدا ذلك لصاحبنا (برغم خبرته) أمرًا فوق الطاقة، وأرغم على ذلك إرغامًا، وبدأت تتراءى له «المقصلة» في نومه وصحوه وعند باب المدرسة!! ثم هداه تفكيره وحيلته، وما اختزنت ذاكرته من أحوال الحياة ومكابدتها و«عنق الزجاجة»، وكيف ينعتق منه إلى النجاح.

ذهب إلى أحد أصدقائه وعاد إلى مراجعه العلمية، مستشيرًا وقارئًا مستنيرًا، ووضع لنفسه خطة عمل.

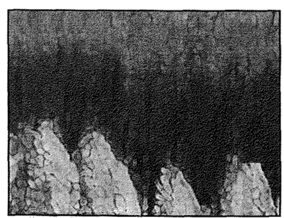
كان يحمل في كل حصة أثقالاً ينوء بها كاهله، فصار يشكو ألمًا في كتفه. وهداه ذلك إلى تصور «لعربة الوسائل» لتحمل كل ذلك العبء وتلك الأدوات، وهمَّ أن يوصي على صنعها، لكنه عاد عن ذلك في اللحظة الأخيرة حمل بيديه «لوحة الجيوب» للرياضيات، و«اللوحة الوبرية» للهجاء، و«علبة العيدان الملونة»، و«الأشكال المنطقية»، و«كيس طباشير» و«مساحة للسبورة»، وحمل كتبه و«شنطته» ودفاتره. كان لانفراده بهذا الحمل يرى في عين من يقابله همسًا أو غمزًا أو ضحكة، بعضه مكتوم تشي به العيون، وبعضه سافر يصدع به اللسان.«لكل ذلك الذي لا لزوم له».

يدرك صاحبنا، من خلال تجربته في الحياة والعمل، دوافع ذلك كله وأسبابه، لأنه بعمله ذاك، قد أحدث أسلوبًا في العمل، بعضه لا قدرة لزملائه على فعله، وبعضه الآخر مما لم يعتادوا رؤيته. ولم يفلح النقد بثني صاحبنا عن عمله الذي عرف به!!

بعد شهر من تلك التجربة المثيرة، بدأ صاحبنا يشعر بتلاميذه يتسابقون على التعلم بتلك الوسائل التي يدخلها إليهم. وكان شعور صاحبنا لا يقل في فرحه، عن فرح تلاميذه!!

بدأ المدير، يكثف زياراته لصاحبنا، بعد أن أحكم الرقابة عليه. ويتأكد مما يجده في دفتر ابنه من جهد واضح. وقد راح يبحث في دفاتر التلاميذ كلهم، ليتأكد من أن التلاميذ يجدون عناية متساوية، وأنهم فعلاً يقرؤون ويكتبون ويحسبون. تلك الكتابة التي يجدها في دفاترهم تسر الناظرين وليست «مفبركة».

كان صاحبنا يصر على أن يتجاهل «المراقبة» الشديدة، والزيارات المكثفة، وذلك البحث الحثيث والدقيق في دفاتره ودفاتر التلاميذ، فلا يسأل المدير عن شيء مما وجده، ولم يكن المدير يبدي له مما في نفسه شيئًا!!



سبورة

وكان صاحبنا، أيضًا، يحسب حسابًا، لذلك «المفتش» الذي كان سبب نقله، وسببًا في شقائه بهذا المدير. فقد كان يرى في الرجلين نموذجين لرجل التعليم الذي لا يمتلك مهارات القيادة ولا نصيبًا من علوم التربية، وليس له ملكات الحوار، ولا الموضوعية في تقدير العاملين.

لقد كان حرصه على أن ينجح، خشية من أمور أخرى تعقب ذلك، كان صاحبنا يخشى من أن ينقل إلى خارج المدينة، حيث لا يجد طعامًا شهيًا يوافق معدته، ولا ماء نقيًا يبل به ريقه، ولا أهم من ذلك، صحيفة أو مجلة مما يحبها وينتظر صدورها على أحر من الجمر. كان يخشى انقطاعه عن أسباب الحياة المدنية.

ويدخل المفتش على صاحبنا في الصف الأول الذي يعلمه بغته، ويبدأ في سؤال التلاميذ واحدًا واحدًا ويأخذ المعلم كرسيه ويجلس يستمع ويرى في آخر الصف ليرقب نتيجة ذلك كله.

التلميذ الحديث التعلم، تشتبه عليه في الحساب بعض الأعداد (٦،٢)، (٨،٧)، والعد المتتابع شفهيًا وكتابيًا صعودًا وهبوطًا، ويعدها المعلمون من المهارات التي يصعب إتقانها وتعلمها، وتشكل تحديًا للمعلم لابد من أن يتغلب عليه. لم يترك المفتش شيئًا من ذلك إلا واختبره، كمن يبحث بحثًا دقيقًا عن نقيصة في قدرات المعلم ليقرعه بها!!

وينجح صاحبنا في «الاختبار» نجاحًا باهرًا، وتنسد بذلك الثغرات في وجه المفتش وكذلك المدير، الذي جعل نفسه في مشروعات المفتش لإيذاء ذلك المعلم الصابر!!

ويصرح المدير في لحظة صدق مع نفسه ومع الواقع برأيه في ذلك المعلم: «ليس عندي من المعلمين إلا هو...». وكانت تلك الشهادة التي تناقلها معلمو المدرسة قد حركت كل نوازع الحسد السلبية في بعض زملائه الذين أظهروا له العداء وشحذوا سكاكينهم واستطاعوا أن يفسدوا ذلك المدير عليه ويحرموه من أثر جهده. وقد أنقذه الله من ذلك السيل العارم من الرغبة في الانتقام، فيسر له من ينقله إلى مدرسة أخرى، على غير رضا المدير والمفتش ليلتقط صاحبنا أنفاسه مؤمنًا بأن الصراع والتصارع جوهر الحياة الإنسانية، وأن ذلك سوف يستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم تبعث الخلائق جميعًا، وينصب الحق - سبحانه وتعالى - ميزان العدل، ليحكم بين الناس، فيما شجر بينهم. ■

بالأقدمية

قصة: شوقي محمود أبوناجي - مصر

وجدتها فرصة لا ينبغي أن أضيعها، أن ألتقي بزميل قديم كثيرًا ما يخطر ببالي وأتمنى أن تجمعني به الظروف. متعة كبيرة أن نستعيد صفحات من الماضي نسعد بكل ما فيها. ولم أشأ أن أرجئ اللقاء رغم كثرة مشاغلي فطلبت من السكرتيرة أن تؤخر عرض الأوراق ريثما أعود. وشعر «بهجت» أني أوليت موضوع نقله اهتمامًا غير عادي وقد كان يكفي لإنجازه بطاقة صغيرة أو كلمة عبر أسلاك الهاتف، ولم يكن ينتظر مثل هذه الحفاوة. وعزا ذلك إلى الأصالة التي أتمتع بها والتي تعكسها بشاشتي عند استقبال أحد من قريتي، وعدم التأخير في تلبية مطالبهم التي لا تنتهي!! الحقيقة التي لم يدركها بهجت أنني مشتاق إلى رؤية ذلك الزميل القديم الذي طالما أمتعنا بتقليد المدرسين والوجهاء من أهل القرية والمركز. وتتابعت إلى مخيلتي المشاهد والأحداث، فها هو ذلك الفتى النحيل الأسمر القادم من أعماق الصعيد يحمل جوال الخبز الجاف والوعاء الفخاري الممتلئ جبنًا قديمًا ومشًا، وكأنه بالأمس القريب يجلس على الأرض متكئًا على جوال الخبز الجاثم في ركن الحجرة المتواضعة في عزبة أبي قتاتة ويفتح الزلعة (الجرة باللهجة المصرية) فينتشر عبق «المش» المعتق ونحن نفرغ منه في أطباقنا لنلتهمه بنهم شديد، ونلاحظ الأسى في عينيه كلما انخفض منسوب المش في الزلعة وصوته الصارخ فينا: إنه ليس عسلاً، إنه «مش»!! وكنا نتعمد إغاظته فنتردد عليه أيامًا متتابعة لنسطو على خبزه ومشه ثم نردف هذه الأيام بوجبة من الكباب لنعوضه فجيعته في مشه. وإننا لنعجب من صاحبنا هذا الذي يقضي الأيام الطوال لا يأكل غير هذا الخبز الجاف ولا يأتدم إلا من الزلعة مع ما عليه أبوه من اليسار، وكانت دهشتنا أكبر عندما اكتشف أحد الزملاء خمسين جنيهًا مطوية في منديل قديم في أسفل القفة التي يضع فيها ملابسه، وإن أحدنا ليعيش في بحبوحة ولا يصله من أسرته أكثر من خمسة جنيهات في بداية كل شهر!! ولقد كان لصاحبنا نوادر أشعبية، فهو حريص على زيارة زملائه الذين يعلم أن لفائف من طعام وصلت إليهم من ذويهم. ولم نكن ندري كيف كانت أخبار هذه الزيارات تصل إليه فلا يكاد يفوته منها شيء. ويومًا

تواقيع

عدنان الصمادي - الرياض

نحن المخطئون لأننا متسرعون ولا نعرف للصبر طريقًا، نأمرهم لينفذوا، ونضربهم إذا رفضوا، ونقسو عليهم إذا تقاعسوا، ونسخف بعقولهم، وننسف تعبيرهم وتبريرهم إذا أخطؤوا، ونشتمهم ونوبخهم ونقمعهم إذا استقلوا واعتمدوا على أنفسهم، أتعرفون لمَ كل هذا؟!

لأنهم لا يفهمون ونحن المعصومون. نعم، نحن معشر الكبار أصحاب العقول فقط، فكل ما نقوله لهم هو الصحيح، وكل ما نقوم به فيما يخصهم هو المناسب لهم تمامًا، ونحن الموكلون عنهم، نفكر بدلاً منهم، ونرغب لهم، ونختار بالنيابة عنهم، فكيف يستقلون وهم عبيد في مملكتنا، إذا رغبوا شيئًا مهما كان بسيطًا وأحبوه وقد قررنا أنه حرام عليهم، فلا داعي للنقاش حوله؟!

اتفق الزملاء على مفاجأته قبل الغداء إثر عودته من إجازة عيد الأضحى وعزموا على أن يأتوا على كل ما أحضر من لحوم وبيض وفطير... ويبدو أنه تكهن بذلك فلم يكتف بإيصاد الباب وإغلاقه بالمزلاج ولكنه وضع خلفه أحجارًا ضخامًا الله يعلم من أين أتى بها وكيف احتملها جسده النحيل. ولكننا علمنا فيما بعد أنه استعان بعربة يد يتركها بائع متجول أمام داره وأحضر عليها هذه الأحجار ليتخذها مقاعد له ولزواره، وقد جعل من بعضها مكتبًا!!

هذه المشاهد وغيرها كانت تتوارد على خاطري من ذكريات الصبا وشوقي إلى لقاء الزميل القديم «خليفة» يزداد كلما عاقت سيارتنا إشارة من إشارات المرور التي تستأثر بوقت أطول من الوقت الذي تسير فيه السيارة!! وتخيلت صاحبنا الآن وهو يجلس على كرسي «المدير العام» وقد وقف أمامه أحد الموظفين الذين منحهم الله بسطة في الجسم، والمدير العام «الجرادة» ـ كما كنا نسميه ـ يصيح فيه آمرًا ناهيًا فيمتثل الموظف المسكين لهذه الأوامر والنواهي، وتخيلت أنه ربما عاقنا عن الوصول إليه رتل من الموظفين، حتى إذا علم بي خرج للقائي أو صاح بالموظفين لسرعة السماح لي بالدخول.

يممت شطر المصاعد في مبنى الوزارة الضخم، ولكن بهجت أشار إلى سلم يفضي إلى «بدروم» معتم ما إخاله إلا مخزنًا للمهمات القديمة. وهبطت الدرج مع بهجت ليقودني إلى غرفة نفضت الرطوبة ما عليها من طلاء، وأشار إليّ بهجت أن أتفضل فإذا أمامي الصورة نفسها التي عرفتها منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا لم تزد إلا شيئًا من التجاعيد والشعر الأبيض خلف مكتب يربض على ثلاث أرجل، واستعاض عن الرجل الرابعة بحجر أعاد إلى مخيلتي ذكرى الأحجار القديمة.

لم أتمالك نفسي من الضحك وأنا أتساءل: ما هذا يا خليفة؟! أهذا مكتب مدير عام أم مكتب أحد موظفي غرفة الحفظ في محكمة باب الخلق؟! وشاركني الرجل الضحك وهو يقول بلهجته الساخرة:

ـ أنا مدير عام فقير حصلت عليها بالأقدمية المطلقة، ليس هذا فقط، بل تخطّوني لعدة سنوات، كان يتحدث وهو يعالج مفتاحًا لجرس لا يريد أن يصدر ولو أنينًا فجعل يصيح بأعلى صوته:

ـ عبدالإله، عبدالإله، واستطرد: هؤلاء ليسوا عمالاً، إنهم بكوات!! وخرج بنفسه ثم عاد بعد قليل ينعي على الحكومة تعيين مثل هؤلاء البكوات.

وما إن وعدنا خيرًا في نقل بهجت حتى نهضت مستأذنًا وهو يتشبث بي لأبقى حتى أشرب القهوة.

خرجت وصوت يرن في أذني: مدير عام فقير، مدير بالأقدمية!! ■

نريدهم رجال المستقبل إذا كبروا، ونحرص على جرأتهم إذا شبّوا، بل ونوبخهم إذا خجلوا من مقابلة الرجال والحديث معهم وقد بلغوا من الطول عتيًا، ناهيك عن مواجهة العظماء. أنظن أنهم مفطورون على صفات الجبن والخجل والانكماش ومجبولون عليها؟!

ليت شعري كيف نذبح الرجولة في مهدهم، ونقمع الجرأة في مطلعهم، وندوس على نبتة الثقة لديهم فور بزوغها نحو صنع القرار، ثم نستنكر جبنهم وتقوقعهم!! ■



سبورة

مُعلِّمُ مدرسةٍ أهلية

شعر: أسامة عبدالرحمن - الرياض

ها قد وصلت فألقينّ حقيبةً ... وامسحْ برفقٍ دمعك المذروفا

إن العقود المبرمات شرائعٌ ... كمّمْ لسانك، سِرُّنا مكتوفا!!

زيّن فصولاً، حضّرنّ إذاعةً ... واجمع سجلاً، واملانّ كشوفا

حسّن خطوطًا، عدلنّ أناملاً ... نشّط عقولاً، دربنّ كفوفا

طبّب جراح النشء وارفع مستوى ... أظهرْ نبوغًا، رتبنّ صفوفا

وضّئ صغارك صُفّ شعث صلاتهم ... داو الضعافَ، وعلمن حروفا

داوم خميسًا، علمنّ خطابةً ... أحيي المسارحَ، وارفعنّ أنوفا

وتحدث الفصحى بكل طلاقةٍ ... أرجعْ لنا «سحبانها» مأسوفا

وارفعْ شعار الجد، شمّر ساعدًا ... وألبس جديدًا، قويّن كتوفا

لا تنظرنْ، لا تعتبنْ، لا تهمسنْ ... لاتلمسّن الغِرَّ راع ظروفا

أو قد نظرتَ إلى المجاور طفلنا ... نظراتُك الحرّى تُعد سيوفا!!

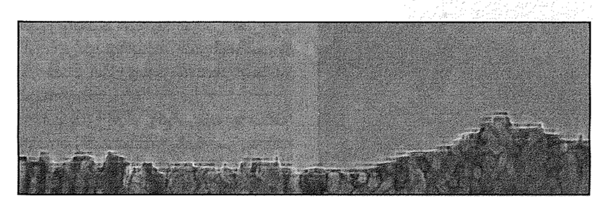
وإذا مرضتَ فلا تناومَ عندنا ... خاصمْ طبيبًا، وابلعّن سفوفا

نم مَغربًا، واستيقظنّ مسحّرًا ... كنْ طول يومك جاهزًا موقوفا

ودّع أهيلك كلَّ عام باسمًا ... واترك عيالك واهجر المألوفا

وكّلْ صغارك للإله بدارهم ... علم صغاري البر والمعروفا!!

مالي وجدتك تستقل عطاءنا ! ... يا صاحب (المئتين) نلت (أُلُوفا)





عمر الفرّا

حلمت بـ«بنات الجامعة»
وإذ بي في «بيارات تدمر»



سعدون الدليمي :

حزب البعث الاشتراكي كتب السطور الأولى لحكاية المنفى.



مسح الغبار عن.. الأحذية!!

أنا والفشل

حياة كل واحد منا جملة من النجاحات والإخفاقات . .
وأجمل شيء أن يترك الواحد منا الحديث عن نفسه، ويدع الآخرين يتحدثون عن إنجازاته ونجاحاته.
حسنًا . . وعماذا هو يتحدث إذًا، عن إخفاقاته؟ ربما!
الفشل ليس عيبًا، فهو وقود الانتصارات . .
«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول للشباب من الجيل الجديد إنه ليس هناك إنسان لم يذق طعم الفشل في حياته، نريد أن نقول لهم إن الجيل الذي سبقهم هو جيل إنساني يخطئ ويصيب . . ينجح ويفشل، ثم ينجح مع الإصرار.
ف: فرصة تمنحك إياها - المعرفة - لتسجيل اعترافاتك.
ش: شهادة.
ل: ليس عيباً أن تفشل . . ولكن العيب أن تزعم أنك لم تفشل في حياتك!
وضيف هذا العدد هوالشاعر السوري عمر الفرّا.

عمر الفرّا

التمزق المتكرر لبنطالي الوحيد كان يسبب لي مواقف محرجة

رحلتي مع الفشل كانت طويلة وشاقة والطريق إلى النجاح تخللته مطبات، وإحباطات كثيرة، ذقت خلالها ألوانًا من المرارة والمفارقات.. وكان سلاحي وزوادتي آنذاك الصبر، والمضي قدمًا في سبيل المعرفة والثقافة.

أذكر أنني حين انتقلت والأهل إلى المدينة (حمص) تاركين القرية كنت قد نجحت حينها إلى الصف الخامس، وهناك ولعت بالمركز الثقافي وبالنشاطات الثقافية، والشعرية على وجه التحديد وكلما حضرت أمسية شعرية كان يزداد شعوري بأنني أستطيع أن أقول ما يقوله الشعراء وأستطيع أن أكتب ما يكتبون.. لكنني لم أفعل يومها ليقيني أن ما يقوله الشعراء سهلاً عليّ.

في أثناء سيري في شوارع «حمص» كانت تتملكني رغبة التوقف عند «البسطات» التي يبيع أصحابها الكتب.. أتفحص العناوين فاختار كتابًا وأقرأ حتى أشعر أن الرجل صاحب البسطة بدأ يتضايق مني، عندها أترك الكتاب وأمضي لأعود بعد يومين أو ثلاثة لأبدأ القراءة من حيث كنت انتهيت. وهكذا حتى أنهي الكتاب، وكنت ألجأ إلى هذه الطريقة المجزأة المتقطعة في القراءة لأنه لم يكن لدي وقتها ثمن الكتب.

منذ طفولتي وأنا ذو جسم قابل للسمنة وبسرعة، الأمر الذي يؤدي دائمًا إلى تمزق مؤخرة بنطالي،

ابني «نزار» أخذ بثأري من وزير الإعلام

حلمت بـ«بنات الجامعة» وإذ بي في «بيارات تدمر»

كنا عائلة بلا بيت لا نرى المطر إلا كل ثلاثة عشر عامًا

وكنت أطلب من أمي أن ترقعه لي - ذلك أن والدي كان رجلاً بسيطًا وفقيرًا ولم يكن بمقدوره أن يؤمن لنا حتى الحاجيات الأساسية - والتمزق المتكرر لبنطالي الوحيد كان يسبب لي مواقف محرجة أتحاشاها قدر المستطاع، فكنت مثلاً أذهب إلى المدرسة مبكرًا كي أكون أول من يدخل قاعة الدرس لأختار المقعد الأخير، وفي نهاية الدوام أخرج آخر طالب، وعندما يسأل المدرس سؤالاً أعرف جوابه، وغالبًا ما كنت أعرف، لكنني أتجنب رفع يدي خجلاً متحسرًا كي لا يستدعيني المدرس إلى «السبورة» ويرى الطلاب بنطالي المرقع.

ورافقتني حالة الفقر إلى فترة المراهقة فكنت أتحاشى التعرف على أصدقاء كي لا أضطر إلى مصروفات زائدة، حتى إني فشلت في علاقتي العاطفية كي لا أضطر إلى الذهاب إلى أمكنة تستدعي دفع النقود (سينما، مسرح، مطاعم... عدا وسائط النقل) وكنت أقضي (مشاويري) وتنقلاتي سيرًا على الأقدام.

فشلت في إتمام أو إكمال دراسة الحقوق في جامعة دمشق؛ ذلك أنه لم يكن بمقدوري تحمل نفقات الدراسة والسكن. وبعد ما فشلت في الانتساب إلى الكلية الحربية وفي القبول في معهد إعداد المعلمين (وكان اسمه آنذاك الصف الخاص) سعيت للحصول على وكالة تعليم في حمص، وإذا أردتم الدقة، فأنا قبلت كمدرس وكيل في مدرسة لا أقول بعيدة بل بعيدة جدًا في قرية اسمها «بيارات تدمر»، ولم يكن أي من المدرسين يقبل التعليم فيها نظرًا لبعدها وظروفها الطبيعية القاسية وافتقارها إلى أدنى الخدمات. أما بالنسبة لي فكانت فرصتي الوحيدة المتاحة أمامي، فقلت لا بأس معها أتابع دراستي الجامعية وأغطي تكاليفها. وواظبت يوميًا على الذهاب إلى المدرسة ولم أتخلف يومًا واحدًا أو أتأخر ولو خمس دقائق، على الرغم من بعد القرية وافتقادها لوسائط النقل وبعدها عن الرقابة والتفتيش التربوي. وأتذكر أنه في أحد الأيام نزلت من الطريق العام باتجاه المدرسة (٨ كم) وإذ بـ(الطوز) هذا الذي يملأ الدنيا غبارًا - نزلت وأنا لا أرى أي شيء، بدأت السير وأنا أضع (الشماخ) فوق عينيّ.. واعتقدت أني في الاتجاه الصحيح. بعد مدة وجيزة صدمني رجل يركب دراجة، لم يكن كلانا يرى الآخر فسألني من أنت؟ قلت له: أنا مدرس «بيارات تدمر» فقال لي: إنك تسير في الاتجاه الخاطئ ودلني على الطريق الصحيح، هو ابن المنطقة ويعرفها. كانت الرمال الهائجة قد غيرت معالم كل شيء وكميات منها تكومت في غرفَتي المدرسة (غرفة التلاميذ وغرفتي)، المدرسة التي تقبع في العراء لا سور لها ولا جدار ولا ساحة. واليوم وبعد كل هذه السنوات أتساءل ما الذي كان يدفعني لعدم التأخر أو التغيب عن المدرسة.. هل كانت التربية والأخلاق، أم الفقر الذي كنت أعيشه، وخشيتي أن يعرف ذلك مفتشو التربية والتعليم وأطرد من وظيفتي؟!

في نهاية العام الدراسي سافرت إلى دمشق إيذانًا بالتقدم إلى الامتحانات الجامعية وفي اعتقادي أن الامتحان الجامعي مثل امتحان «البكالوريا» أو «الكفاءة»، وإذا كان وصولي إلى قاعة الامتحان تطلب في اليوم الأول الكثير من السؤال والركض والضياع هنا وهناك فإن اليوم الامتحاني الثاني كان مختلفًا، فقد ذهبت فيه واثقًا إلى المكان والمقعد نفسيهما وإذ بالمراقب يقول لي: «مكانك ليس هنا... عليك أن تذهب إلى المعرض» ذهلت وبدأت أفكر أي معرض يقصد؟ وأين يكون هذا المعرض؟

وبدأت رحلة الركض مجددًا إلى أن وصلت بعد استقصاء وتقص، لكن الوقت كان تداركني والامتحان بدأ ومنعت من الدخول.. حاولت ففشلت. وهنا كانت نهاية علاقتي بالجامعة ذقت خلالها في دمشق مرارة التعب والإرهاق جوعًا وبردًا والتسكع في الشوارع والنوم في الجوامع، وما زلت أذكر لحظات الجوع واشتهاء سندويشة الفلافل، ولحظات الإرهاق والحاجة إلى الراحة، فكنت أعود في اليوم نفسه بعد أن أتمم ما عليّ إتمامه وأستقل باصات (الهوب هوب) المزدحمة والمتكررة التوقف.. وهي نفسها الباصات التي كنت استقللتها فيما بعد لأنتقل إلى المدن الأخرى حينما أدعى إلى المشاركة في الأمسيات الشعرية التي كنت أحصل في كل منها على مبلغ/ ١٥٠/ ل.س، أدفع نصفه تكاليف السفر ويبقى لي نصفه الآخر.. وكنت أعتبره مبلغًا كبيرًا أقدمه كمصروف بيت لزوجتي التي تسعد وإياي بهذا المبلغ الذي هو في حقيقته مبلغ ضئيل جدًا.

أما اليوم فالأمور تغيرت، الشهرة تغير كل شيء، يقال :(إذا كنت مسمار لازم تلقى وإذا كنت مطرقة

أنا بدوي خوشاني متطرف لكنني لا أعرف تسويق «نزار قباني»

ما زلت أذكر اشتهاء سندويشة الفلافل الدمشقية


عمر الفرا

لازم تدق) وقد وصلت إلى مرحلة (المطرقة) والحمد لله.

بدأت كتابة الشعر وأنا في الصف الثامن وأذكر أول قصيدة لي قلت فيها:

ولقد رأيت حبيبتي بعد السهر
ترنو بطرف ناعس نحو القمر
والورد كلها بعاطر طيبه
وبدت كظبي جالس بين الزهر
فدنوت منها صامتًا فتبسمت
وجلست قرب حبيبتي تحت الشجر
وتكلمت بدلالها وحيائها
نار الهوى في أضلعي لا تستقر

لم أتجرأ بداية على أن أخبر أحدًا من أهلي أو جيراني أني أكتب الشعر، والوحيد الذي كان يعرف هو زوجتي، كنت أخاف أن أتهم بالجنون. والمرة الأولى التي عرفوا فيها أني أكتب الشعر رأوني في التلفزيون، ومن ثم هبطت عليهم محترمًا معروفًا فصاروا يهابون هذا الموضوع وهذا الشخص الذي يظهر على الشاشة ولسان حالهم يقول لو لم يكن معترفًا به لما ظهر على التلفزيون، وقبل ذلك لم يكن أحد يعرف ذلك أبدًا، حتى أبي وأمي لم يكن عندهما علم لأنهما لو عرفا لسخرا مني وضحكا عليّ تبعًا للبيئة وظروفها والمجتمع المعزول.

فالفشل تكرر كثيرًا في حياتي كلها وعلى الأصعدة كافة إلا على صعيد الشعر، فقد شاركت في مهرجانات كثيرة على امتداد الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه وفي عدد من الدول الأوروبية والأمريكية وسبق ذلك مراحل طويلة من الجد والتعب حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من شهرة، ولو حدث مرة واحدة أن دعيت إلى أمسية شعرية ولم يتقبل الناس شعري فلن ألقي الشعر طوال حياتي، وفيما لو كان الحضور (١٢-١٣) شخصًا كما نرى في كثير من الحالات فلن أصعد المنابر بعد ذلك ما حييت، وسيكون ذلك هو الفشل الذي لا نجاح بعده.. أقول هذا الكلام لأنني اعتدت الحضور الجماهيري الكثيف، وأستغرب ـ دون انتقاص من قيمة أحد ـ كيف أن شاعرًا يستطيع أن يقرأ الشعر على المنبر لعشرة أشخاص وهم على الأغلب أقرباؤه!

على الرغم من شهرتي وشجاعتي فإن الخجل يرافقني في كل حياتي وربما الحاجة هي التي ولدت هذا الخجل، وقد تسألون عن أي شجاعة أتحدث فأقول: حينما حصلت على «البكالوريا» ودرّست سنتين كمعلم وكيل وقد دعيت آنذاك إلى الجيش لأداء الخدمة الإلزامية وأنا لم أثبت نفسي في موقع معين بعد وكنت قد فشلت في الجامعة كما أسلفت، فذهبت يومها إلى وزير التربية (تصوروا طالبًا منذ عقود يذهب إلى الوزير) قرعت بابه بكل جرأة وقلت له: يا سيادة الوزير أنا تقدمت إلى كل المسابقات التي أعلن عنها في البلد ولم أقبل في أيٍّ منها، فسألني: لماذا؟.. قلت له: (لأنو ما لي حدا، تقدمت للصف الخاص فلم أقبل).. فما كان منه إلا أن قام بتعييني في الصف الخاص. وهكذا كانت جرأتي سببًا في قبولي في وظيفة دائمة.

مرت عليّ فترة من الفترات كانت كتابة الشعر بالنسبة لي مثل شرب الماء، في أي لحظة يمكن أن أكتب. كتبت وكتبت.. لكن الكثير مما كتبته ضاع إلى أن طلب مني السيد العماد مصطفى طلاس (وزير الدفاع السابق) أن أحضر له قصائدي، وطبع لي ديواني الأول في دار طلاس «مشكورًا»،

من أجمل المديح الذي سمعته في شعري ما قاله

لا زلت أتذكر أبي وأمي وهم يطرقون أبواب الناس ويشكون فقرهم

كانت زوجتي في حمص تحلم ببيت له «سور»

الرئيس حافظ الأسد رحمه الله إن شعر عمر الفرا يعادل فرقة دبابة. فالشعر له دور كبير في المعركة، وأنا كتبت الكثير للوطن والأرض والانتفاضة، بالإضافة إلى القصائد الاجتماعية التي تناولت فيها قضايا المجتمع بشكل مباشر: إجبار الفتاة على الزواج ممن لا تريد أو من ابن عمها (الحيار).. (الثأر).. (القمار).. (الطلاق).

وقد كان لهذه القصائد الأثر الذي أريد في البيئة والمجتمع، وقد غيرت في تفكير الناس ما أردت تغييره. من حوالي خمس سنوات وفي ريف حمص كان هناك أسرة تريد إجبار ابنتها على الزواج من ابن عمها فرفضت وقالت لأهلها (أنا ماني أقل من حمده) فالقصيدة دخلت إلى بيوت الكثير من الناس وتركت أثرها فيهم.. إضافة إلى أن قصائدي مقروءة ومحفوظة من قبل الصغار وبالتالي دخلت الباب الواسع، لكني فاشل من الناحية التسويقية. فأنا على استعداد أن أقف على المنابر وأمام حشود من الناس وأقرأ المئات من القصائد لكني لا أعرف كيف أسوق ديوانًا أو حتى قصيدة. نزار قباني مثلاً استطاع أن يصبح ثريًا جدًا من وراء دواوينه حين عمل دار نشر في بيروت وكان يطبع ويبيع.. أنا لا أعرف. وأنا أعترف بأن الفشل كان رفيقي في كثير من الأحيان بسبب إمكانياتي المحدودة وبسبب آخر (أني غير مدعوم.. ما إلي حدا) ليس لي عشيرة قوية.. ليس لي أهل أو متنفذون يقفون معي (أو ليس لدي ما أشد به أزري) لذلك كنت دائمًا محبطًا. تربيتي أصلاً فقيرة ومعدمة وخاطئة، ولكن الجميل بعد كل هذه الصعوبات والإحباطات أن يصل الشخص - أن يصل إلى مكان رفيع وأن يشعر أنه وصل بمحض جهوده وتعبه.

وأشكر الله كثيرًا لكل ما وصلت إليه من مكانة وشهرة فأنا الآن أستطيع طرق أي باب من أبواب المسؤولين عربًا أو سوريين، وأعرف أنه سيفتح ويلبى طلبي لأني أصلاً دخلت كل البيوت عبر شعري ودواويني، وحتى من ليس لديه اهتمام بالشعر لا بد أن يكون أحد أفراد أسرته مهتمًا به ويعرف عمر الفرا ويحفظ بعض قصائده، وبالتالي صار لي مكانة واحترام لديهم ولاسيما أني في كل ما كتبته توجهت إليهم كتبت لهم وعنهم، حتى عندما أكتب عن الوطن فالكل معني بذلك لأن الوطن وطن الجميع، وربما ما أفعل هو أن أجسد مشاعري ومشاعر الآخرين تجاه الوطن.

الوطن العربي هو وطني الكبير الذي أحب وسوريا وطني الصغير الذي أنتمي إليه وحمص بلدتي الرائعة التي ولدت ونشأت فيها.

أخذت مني حمص الكثير فقد كتبت عن غير شخص فيها..

(كوثر الصبية التي أصيبت بالسرطان) و(نصر النشيواتي) القائد العسكري المسلح أيام الاستعمار الفرنسي وأحد كبار الثوار والمناضلين.. واليوم حين أسافر إلى بلدان العالم المختلفة فإني أحمل حمص معي أحسها تسكنني كما أسكنها، ومن المعروف عنها أنها مدينة وادعة تحنو على سكانها وفقرائها.

من طفولتي البعيدة لا أذكر سوى التعاسة والفقر وقد يسألني أحدهم ماذا تذكر عن بيتكم الريفي فأقول لم يكن لدينا بيت ريفي لأنه أصلاً لم يكن لدينا بيت.

فالبيت الذي كنت أسكنه في القرية كان لأخوالي أهل أمي.. بيت فقير في بيئة فقيرة بعيدة خارج حدود خط المطر، لا يوجد فيها شيء من معالم الحياة، وحين أفكر الآن كيف يعيش الناس هناك أقول لنفسي إنهم يعيشون بالاعتبار ليس إلا. وبغير ذلك لا يمكن تفسير استمرار إقامتهم في منطقة لا يسقط فيها المطر إلا كل ثلاثة عشر عامًا أو أكثر. وحاليًا منعت الزراعة والفلاحة فيها كي لا تتصحر. لكل هذه الأسباب لم يكن في طفولتي أي وجه من وجوه السعادة، وحين انتقلنا إلى حمص لم يكن الحال أفضل بكثير، حتى بعد أن

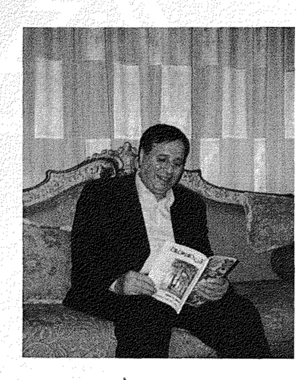
تزوجت وامتلكت بيتًا خاصًا فقد كان بيتًا صغيرًا في ضاحية نائية وفقيرة، وكان لزوجتي حلم أو أمنية متكررة، كانت تقول لي دائمًا لو أن هذا البيت «مسور» لو أن له باب دار يجعلنا نشعر قليلاً بالاستقلالية. وأحمد الله كثيرًا لأن كل أحلامنا تحققت وها نحن نعيش في بيت يفيض عن حاجتنا والحمد لله.

تحضرني من سنة ١٩٧٧م ذكرى لا أعرف إن كان يجب أن أصفها بالمحزنة أم المؤسفة أم غير المعقولة.

ففي تلك السنة أقامت وزارة الإعلام مسابقة للمذيعين فتقدمت إليها لأن أصدقائي كانوا يقولون لي صوتك إذاعي، أذكر حينها أن عدد المتقدمين كان حوالي ٥٠٠ شخص وكانت تجري المسابقة عن طريق التصفيات كل مرة يخرج عدد ويبقى الناجحون ليدخلوا في مسابقة جديدة وهكذا... وفي كل مرة كان ترتيبي الأول حتى انتهت المسابقة فقالوا لنا اذهبوا إلى بيوتكم وسنبعث لكم طلبات قبولكم للالتحاق بالعمل.. وكنت من الأوائل، كان وزير الإعلام حينها أحمد إسكندر أحمد. ومن عام ١٩٧٧م وحتى الآن وأنا أنتظر من وزارة الإعلام طلب الالتحاق بالعمل!.. وصادقًا أقول إن هناك أشخاصًا ممن تقدموا معنا وفشلوا طلبوهم بعد ذلك وأنا وغيري نراهم على الشاشة، نسمعهم في الإذاعة وأنا أعرفهم بالأسماء ولكن لا داعي لذكر الأسماء، وأنا أستغرب حالات كهذه و أعزوها للفقر وعدم وجود السند.

وبلا خجل أقول ما لم أستطع تحقيقه لنفسي حققته لابني، وبما أنني فشلت في أن أصبح مذيعًا لأنه ليس لديّ أحد يدعمني فقد كنت هذا (الأحد) الذي دعم (نزار الفرا) ابني، نعم وبلا خجل دعمت ابني وساعدته على الوصول إلى هدفه، ولكن صادقًا أقول لو لم أجد لديه المؤهلات التي تجعل منه مذيعًا ناجحًا لما ساعدته، لكني ربيته جيدًا واستمعت إليه وخبرت قدراته لذلك نصحته بأن يصبح مذيعًا وساعدته في هذا المجال..

مساعدتي لا تقتصر على أبنائي، فمعظم الناس الذين يقصدونني للمساعدة أبذل كل جهدي لهم، ففي كل مرة يأتيني شخص أشعر بشعوره لأني طالما كنت بحاجة إلى المساعدة والسند، وإذ أتذكر حرقتي لأن أحدًا لم يكن بجانبي أحاول أن أكون بجانب الجميع. حين أتذكر أبي وأمي وهم يطرقون أبواب الناس



ويتحسرون من فقرهم وضعفهم أحاول تجنيب الناس هذه الحسرة، وأحمد الله كثيرًا أنه كتب لي النجاح في كل المرات التي حاولت فيها مساعدة الآخرين، ولا أذكر أن أحدًا من المتنفذين أو المسؤولين قدم لي وعودًا كاذبة. كل الذين اتصلت بهم طلبًا لمساعدة الآخرين كانوا متعاونين وخيّرين، وفي هذا البلد الطيب من تقول له مرحبًا يقول لك مئة مرحبا فيبقى له عندك ٩٩ مرحبا.. حين نتكلم عن الفشل القومي فإننا نتكلم عن الفشل العام -الخاص- ولكن تختلف طريقة تعاطينا مع هذا الفشل. سنة ١٩٦٧م كنت عسكريًا وكان اختصاصي ألغام في منطقة الجبهة في الخط الأول وشاركت في المعركة وكتبت في تلك الفترة:

الأرض إلنا ولا نساوم على خطوة
ولا نفاوض على النخوة
اللي يساوم... يبتعد عنا
غريب اللهجة.. نعرفها
ما هو منّا
يا حيفك يا الـ تظن ظنون
أبعد عنك الظنة
ترانا ما تناسينا
أصبر من جمل احنا
وأغدر من جمل احنا
لو إن صحنا... تلاقي للأرض رنة
الأرض إلنا

عمر الفرا

يقولوا عني متطرف
يقولوا عني متخلف
يقولوا عني متصوف
عرب احنا.. وعرب كنا.. وعرب
ما زالت الصحرا نلاقيها
تساوي ألف جنة
الأرض إلنا من أولها لتاليها
لعاليها..لواديها
وكل اللي انسلخ منا
وكل اللي غدا عنا
لآخر قطرة من دمنا
ننادي بصوتنا العالي
الأرض إلنا.. الأرض إلنا.. الأرض إلنا

بالمناسبة أنا جذوري بدوية أنتمي لعشائر بني صخر عشيرة (الخوشان) والبدوي له ميزات، يحب كثيرًا ويكره كثيرًا.. صبور وحقود وفي ذلك يقول الجاحظ: «كل إنسان يتخلق بصفات الحيوانات التي يأكل من لحومها».

أبناء المناطق السهلية لطيفو المزاج والطباع لأنهم يأكلون لحوم الأغنام، أبناء الجبال سريعو الغضب والعصبية لأنهم يأكلون لحوم الماعز، البدوي صبور وحقود لأنه يأكل من لحوم الجمال، فأنا متطرف جدًا في قصائدي وحياتي. أنا لا أساوم على عروبتي، لا أساوم على وطني، بكل قصائدي هذا «التطرف» حتى في قصائد الحب. فمثلاً حمده تقول «ما أريدك ما أريدك حتى لو تذبحني بإيدك».

وأنا أعيش هذا «التطرف» منذ خلقت حتى الآن.

أكتب عادة بعد الواحدة ليلاً حتى الخامسة صباحًا أي حتى انبلاج الفجر. وأجمل ما أكتبه عادة أكتبه في اللحظات المدهشة التي يشق فيها الفجر قلب الليل وينبلج بهدوء ممتزجًا ثم مزيحًا العتمة.. ولا أخفيكم أني أعاني حاليًا قلة الزخم وأعزو ذلك إلى حالتي الصحية والمرض الذي يسبب لي الألم وانشغال الفكر بشكل شبه دائم، فأنا أذكر أنه مرت عليّ فترة كنت أكتب في الأسبوع الواحد قصيدتين والآن في السنتين لم أكتب قصيدتين.

وعلى الرغم من ذلك أقول إن القصيدة حين تأتي.. تأتي بدون استئذان وبلا موعد وما أجمل حضور القصيدة.. القصيدة مدهشة.. وقد أسأل كيف تحدد شكل القصيدة؟.. فأقول إنها تختار موعدها وتختار زينتها وتختار كحلتها وثيابها.

القصيدة ملكة تختار مفرداتها إن كانت محكية أو فصيحة، عمودية أو حديثة. لي صديق قال لي ذات يوم أنا أسمع وأرى عمر الفرّا في القصائد الفصيحة والعامية أي أني استطعت إيصال ما أريد والتأثير فيمن أريد بكل الأشكال التي كتبت فيها.

والشاعر عندما يكتب يظل نَفَسه في القصيدة مهما كان شكلها. أما إذا ما تميزت قصيدة عن أخرى أو أحبها القراء فأنا أعتبر ذلك نجومية للقصيدة صاحب الفضل فيها هو الله. بالنسبة لي قد تكون قصيدة «حمده» هي الأشهر بين قصائدي وفي كل مرة أذهب فيها إلى مهرجان أو أمسية لا بد أن يطلب مني إلقاؤها رغم أن الكثير من قصائدي أجمل منها. حين أقف على المنبر أحاول أن أعطي القصيدة شيئًا من روحي، ثم لا بد أن أحمد الله كثيرًا لكل ما منحني إياه من صفات نفسية وجسدية فأنا أعتبر أن لطولي وضخامتي وحتى لشكل فمي علاقة بتأثيري في المستمعين.

أعود بالذاكرة إلى فشلي في دراسة الحقوق فحين



سجلت في الحقوق لم يكن اختياري بل قدري لأن مجموعي هو ما فرض عليّ أن أسجل في الحقوق وليس رغبة في الحقوق نفسها، بل أذكر حينها أن حلمي الأكبر كان الجامعة بكل ما فيها وبكل ما أسمعه عنها: محاضرات.. مدرجات كبيرة.. شابات جميلات.. أصدقاء.. أذكر أني كنت أحسد كل من يذهب إلى الجامعة ولم يقدر لي الله وقتها أن أحقق هذا الحلم فانتسبت إلى الصف الخاص وحين صرت مدرسًا كان راتبي ٢١٠ ليرات، ومن ذلك الراتب اشتريت خزانة وسريرًا وحتى طقم لغرفة الجلوس.

تزوجت بطريقة تقليدية وبظروف صعبة وقد كنا صغارًا أنا وزوجتي التي هي أصلاً ابنة عمي، كان عمري ٢٣ سنة وعمرها ١٣ سنة، لكن حياتنا كتب لها النجاح والحمد لله وكانت لي نعم الزوجة ورفيقة الحياة. حاولت تمرير شريط حياتي أمامي لألتقط نقاط الفشل لكن حياتي كلها أو قسمًا كبيرًا منها على ما أظن (فشل بفشل). وأنا الآن راض عما حققته لأسرتي وعما يحققه أولادي وربما بشكل غير مباشر حاولت تعويض ما فقدته عبر أبنائي، فالكبير يعمل مذيعًا في التلفزيون والثاني دخل كلية الحقوق.

ما آخذه على أولادي أنهم لا يدركون أحيانًا النعمة التي نعيشها الآن، ربما لأنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا الحالة المزرية التي مررنا بها سابقًا..

والدتي رحمها الله كانت تضع الطعام في صينية واحدة تضعها على الأرض (ونتربع) حولها ونمد أيدينا جميعًا إلى طبق واحد وليس لكل طبقه كالحال الآن، ولم نكن نقوم حين نشبع بل حين ينتهي الطعام، وغالبًا ما كان ينتهي قبل أن نشبع.

حقق لي الشعر الكثير وأوصلني إلى أماكن لم أكن أتصور أني سأصل إليها.. لقد طرت على أجنحة الكلمات وزرت بلدانًا.. وبلدانًا. ■

إعداد : لينا كتّوب ـ سوريا

عمر الفرا

الحياة صور وشخصيات و.. أحداث..
الحياة قصص صغيرة تصب في روايات طويلة..
نحن نرى .. نسمع .. نتكلم و..نسجل..
حروف مبعثرة تكوّن فيما بينها مفردات واقع يصافحنا كل يوم .. ونحياه.

الوطن: عُشَيْبة الروح تخبو ولا تموت

فاطمة السهيمي - القنفذة

من منا يستطيع أن يمر عليه تخيل مشهد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة وطنه الأول دون أن يثير ذلك شجونه أو يحرك فيه شعورًا (ما)؟!

إن الخروج من الوطن مشهد يهز القلوب، ويقص أجنحة الأحلام، ويغيّر بوصلة الحياة بكاملها.

ابحثوا في كتب السير، ثم تأملوا مليًا في شعور الرسول صلى الله عليه وسلم المفعم بالحزن والأسى، تأملوا كلماته، وتخيلوا دمعاته الطاهرة تشيّع الوطن الحبيب.

وعاش الحبيب - صلى الله عنيه وسلم - في المدينة التي أحبها وأحبته وولدت هناك أعظم دولة في التاريخ، وأشرقت على العالم أعظم رسالة على مدار التاريخ الإنساني الطويل. ولم ينس ابن مكة مكة، لم ينس ابن الوطن الوطن، وظل حنينه - صلى الله عليه وسلم - لأول منزل مشتعلاً لا يخمد ولا يخبو. أنت أيها الشاب: من قال لك إن حب الوطن ليس من الإسلام في شيء؟!

إن الحيوانات والطيور تحب أوطانها تلك فطرة. فهل شاهدت الإسلام في أي أمر من أموره يعارض الفطرة؟!

الإسلام هو الفطرة.. والفطرة لا تعارض ولا تناقض نفسها..! كنت ذات يوم أرقب طفلتي الصغيرة وهي تشاهد أفلام الكرتون وبينما كانت الشخصيات الكرتونية في هرج ومرج، ظهر العلم الأمريكي، فانضبط الجميع، وبدأ الاحترام النابع من الذات والذي يكسوه الحب والولاء على ملامح تلك الشخصيات، وتمنيت لحظتها لو أن ذلك العلم كان العلم السعودي..!!

وأدركت وقتها أن الآخرين - مهما كانوا - يجبروننا على احترامهم واحترام أوطانهم حينما يحترمونها هم، ويحبونها هم، ويفخرون بها. ولقد مرت علي تجارب مع شخصيات نسائية من الجنسية السورية والفلسطينية واليمنية والمصرية والسودانية والصومالية والتشادية ولاحظت أن احترامي لتلك الدول يزيد وينقص وينعدم - أحيانًا - ليس بالنظر لحضارة وتاريخ وسمعة كل دولة، بل بما يصلني من شعور حول ما تشعر به كل واحدة نحو وطنها، فيزداد احترامي وإجلالي للدولة التي أشعر أن مواطنتها تعتز بها وتحبها وتراها - في نظرها - الدولة رقم (١) على مستوى العالم كله، وفي المقابل فمهما بلغ إعجابي بدولة ما، فإنه سرعان ما ينهار حين أقابل إحدى مواطناته تكيل له السباب وتظهر الانكسار إزاء انتمائها له.. وأصبح - أنا - في قرارة نفسي لا أكيل له وزنًا. ولست أنسى مرة كنا فيها مجموعة من السعوديات وأخت أخرى من دولة عربية إفريقية، تعيش في المملكة منذ ربع قرن لم تغادر خلالها إلى بلدها. وتتحدث اللهجة السعودية بطلاقة فنادتها إحداهن باسم بلدها فابتسمت وأشرق وجهها، وقد توقعنا أن تقول إنها أصبحت سعودية قلبًا وقالبًا أو

شيئًا من هذا القبيل، لكنها فاجأتنا بتنهيدة منزوعة من روح أضناها الغياب وآلمتها الغربة وهي تقول:

جزاك الله خيرًا - يا فلانة - لأنك ناديتني باسم وطني، إن حياتي في أرض الحرمين ٢٥ عامًا شرف لي ونعمة منّ بها الله علي، حيث لإسلام الصافي وحيث حرية العبادة، وتطبيق أدق أوامر الشرع بلا خوف أو وجل، وحيث الأمن والحب والرفاهية التي لم نعرف عُشرها في بلدي، لكن قسمًا بالله، إنني لا أحب شيئًا كوطني، ولو أتيحت لي الفرصة لسافرت إليه مشيًا على الأقدام، وقبلت ترابه وصرخت بأعلى صوتي: أحبك يا بلدي..!

كانت تلك السيدة أمية، لكن تعبيراتها كانت دقيقة، وكلماتها مؤثرة، وفياضة بمشاعر صادقة لا تكذب، ولا تتصنع، فصمت الجميع إجلالاً للسيدة، ولوطنها الذي أكبرناه تلك اللحظة.

وفي مباراة كرة قدم بين السعودية ومصر أقيمت في الدمام نسي الجميع أحداث المباراة، وتوجهت الأنظار للمدرجات حيث حمل ٥٠٠٠ مصري لافتة مكتوبًا عليها بالخط العريض بلون أحمر قان: أحبك يا مصر. وتفرغ الجمهور لمناجاة مصر «الوطن» وباحوا لها بمشاعر الابن المغترب قسرًا عن أمه الحنون الرؤوم. فتحول الملعب إلى وطن..!

وفي مقالة لي لم تنشر كتبتها قبل ظهور أول عمل إرهابي تعرضت له المملكة بفترة ليست بالقصيرة، تساءلت عن سر اعتزاز مواطني الدول المجاورة لنا - على الأقل - بأوطانهم وحبهم لها، واستعدادهم للتضحية من أجلها.. رغم أنها لم توفر لهم الحد الأدنى من المعيشة الكريمة فاضطروا إلى التغرب في سبيل لقمة العيش.. بينما لا يبدي السعودي - غالبًا - شعورًا من هذا القبيل تجاه وطنه الذي منحه كل شيء. لكن ربما كان سبب عدم نشر المقالة - آنذاك - اعتراض «المعرفيين» على هذا التساؤل باعتبار السعودي أجدر الناس بحب وطنه حتى الثمالة. ولأن الغربة أظهرت في المقيم بيننا شعوراً لا نراه ولا نظهره ونحن المقيمين في بلادنا. لكن الطعنات المتتالية التي وجهها بعض أبناء الوطن السعودي الجُحَّد لوطنهم أفقدتنا - جميعًا - توازننا، وبتنا نبحث يمينًا ويسارًا دون تركيز، عن ذنب واحد ارتكبه هذا الوطن لينال كل هذا الجحود، وكان أبرز ما خرج به المحللون والمفكرون والمتأملون والباحثون: أن إحجام الوطن عن توفير وظائف مناسبة للشباب تعينهم على الحياة ومتطلباتها، ساهم إلى حد كبير في ظهور مشاعر الحنق والغضب ضد الوطن، مما فكك - تدريجيًا - مشاعر الحب والولاء للوطن وحولها لمشاعر انتقامية تشوه وجه الوطن الجميل وتعبث بملامحه الآسرة.

وقد كدت أصدق هذا.. لولا أن عاملاً أسيويًا بائسًا كان يؤدي عمله في تنظيف مراحيض إحدى المؤسسات وقد كتب على ذراعه: أحبك يا بنجلاديش!!

أمل:

الحياة بلا وطن.. كالوطن بلا حياة..

طالب مشاغب!

أميمة منير جادو - القاهرة

كان واقفًا أمام المحقق المسؤول عن حادثة شغبه الأخيرة (كسر زجاج نافذة الفصل وكسر مقعد الأستاذ) عن إصرار وعمد.. ألقى بهذا في ذاك! كان معترفًا ولم يكذب لم يكن بحاجة إلى شهادة الشهود من الزملاء الذين كانوا رغم كل شيء يحبونه ومن الصعب أن يعترفوا عليه.

كان صامتًا في خجل باد وانكسار شديد، تطول سرحاته رغم صخب وضوضاء تداخل أصوات المدرسين والتلاميذ في حجرة المحقق، كلٌّ يدلي بدلوه في أي اتجاه ودونما سؤال موجه إلى أحدهم!! تتداخل الأصوات والآراء ما بين مؤيد ومعارض ومحتج في ثورة ومناد بعقاب رادع ليس آخره الفصل من المدرسة نهائيًا وحرمانه من التعليم لأن مثله (من وجهة نظرهم) لا يستحق التعليم.

المدهش أن عَمْرًا (وكان هذا اسمه) لا تبدو عليه أية أمارات للعنف أو البلطجة أو الشغب. نحيف متوسط الطول، هادئ القسمات، مريح الوجه يوحي بالطيبة لكن حزن عينيه البادي يستدر الشفقة عليه رغمًا عنك.

لا تشعر معه رغم ذلك بأنه يمثّل هذا الدور (كما ادعى عليه بعض أساتذته المتعصبين)، إنما تأخذك نظرات اللوم في عينيه إلى أغوار سحيقة وكأنك تتوه في جب عميق مليء بمثيرات شتى أكثر من طبقات ظلامه الدامس، أو كأنك في رحلة داخل سرداب من حكايات ألف ليلة وليلة!!

سأله المحقق بقسوة: ما اسمك؟

رد بهدوء واثق: عمرو بن العاص.

استفزت إجابته المحقق من أول لحظة: نعم وحياة...؟!

ماتت كلمة (أمك) على لسان المحقق قبل أن ينطقها وتذرع بصبر مفتعل، ثم قال: رُدّ بأدب.

وبالهدوء نفسه قال: وهل خرجت على الأدب؟!

عاود السؤال وهو يتنهد: ما اسمك؟

وعاود التلميذ الرد بذات التنهيدة: عمرو بن العاص.

ألقى المحقق القلم بعصبية فوق أوراق تناثرت أمامه، وقال يتنهد: اللهم طوّلك يا روح.. ثم عنفه بصوت غاضب جهوري: ما اسمك؟

رد عمرو بلا مبالاة: عمرو بن العاص، نطق اسمه وكأنه يلقي به على صفحات التاريخ وليس على مسامع الحاضرين وكأنه واثق أن التاريخ سيدوّنه في صفحة خالدة من صفحاته العادلة.



رد مدرس: ألم أقل لك يا حضرة المحترم، إنه مشاغب ويستحق «الرفت».

صمت المحقق عاقدًا يديه أمام صدره فوق المكتب محملقًا في وجه عمرو وكأنه عراف قديم يستلهم الغيب ويستقرئ نفسه في محاولة لسبر أغوارها. بينما استغرق عمرو في سرحة بعيدة، ويخيل إليك وأنت تراه قد ألقى ببصره عبر النافذة المكسورة التي أمامه وكأنه ذهب إلى عالم آخر، ولا تدري كم من المسافات تفصله عن عالمه الآن، ولا كم من الأزمان أيضًا!!

كان عمرو يجترّ أسئلة مكبوتة في صدره حين كان يعيش مع أبيه قبل أن يطلق أمه. هذه الأسئلة التي لم يستطع قط أن يسألها لأبيه لكنه كان يسمع أمه أحيانًا تنوه بها خفية في طيات أحاديثها الخائفة المرتجفة من قسوته عليها وعلى ابنها ولا مبالاته بهما. وتخيل أنه يستطيع أن يسأل: أبي لماذا لا تصلي؟ لماذا لا تصوم؟ لماذا تغازل النساء المحصنات؟ لماذا لا تصل رحمك؟ لماذا تكذب؟ لماذا لم تعاشر أمي بالمعروف وحين سرحتها لم تسرحها بإحسان؟! لماذا تخون الوعود ولا تفي بالعهود؟! أبي لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ عشرات الأسئلة تتلاحق ويطرح عمرو في نفسه أسئلة جديدة على مدرس فصله الأستاذ عبدالله: لماذا تعاملنا بقسوة؟! لماذا تضربنا لسبب وبدون سبب؟! لماذا تسب أهالينا؟! لماذا تسفه أفكارنا وتقتل أحلامنا وطموحاتنا؟! لماذا تسلبنا حريتنا وكرامتنا؟! لماذا لم تكن من محبينا؟ لماذا عندما فقدنا ذوينا لم تكن أنت بعض ذوينا؟! لماذا لم تكن قدوة فينا؟!

قطع المحقق سيول الصرخات المكتومة عبر الأسئلة الثائرة في نفس عمرو وكأنه يسأله لآخر مرة وقد نفد صبره: ما اسمك؟

انطلق عمرو كمدفع رشاش لا يستطيع أحد أن يوقف طلقاته حتى سقط على الأرض مغشيًا عليه من فرط الإعياء والثورة وهو يردد: عمرو بن العاص.. عمرو بن العا... عمرو.. ع... ع...

الحياة جملة من الأحداث والمواقف..
ومع كل حدث هناك وجهة نظر..
وملامح الشخصية تحددها وجهات النظر..
و«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول: إن اختلاف وجهات النظر طبيعة إنسانية ينبغي ألا تفسد للود قضية كما نردد دوما.
وإذا كان تضاد وجهات النظر نقمة، فإن تنوعها نعمة يجب أن نحسن تناولها.
ضيفنا العزيز: سعدون الدليمي/ رئيس مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية في العراق.
يقدم لنا شيئًا من وجهة نظره فيما يلي:

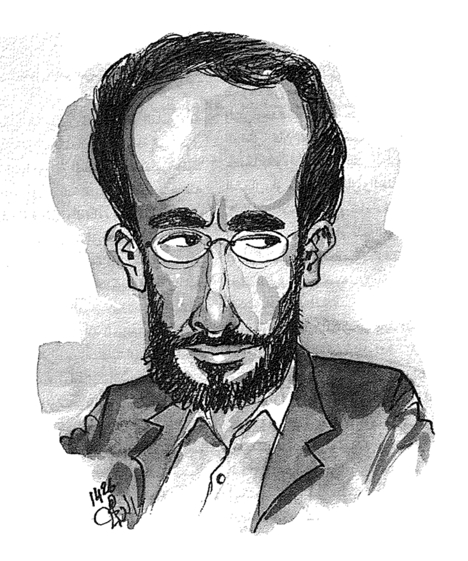


سعدون الدليمي:

«التنويم الاجتماعي» أنتج الإرهاب

❖ رحلة الشقاء تعارك الإنسان فتهزمه حينًا ويهزمها حينًا، لديك من أين بدأت هذه الرحلة ومتى؟

بعد أن ذهبت إلى العاصمة «بغداد» لإكمال دراستي الجامعية في نهاية الستينيات من القرن الفائت، وتركت تلك القرية الهادئة في أحضان نهر الفرات، لم تكن الحياة في بغداد كالتي ألفت ولا الناس كما خبرت، لذا وجدت الكثير من الأشياء -في حينها- معقدة إلى حد الإرباك. أكثر ما شدني ولفت نظري منذ البداية كثرة المنتديات الثقافية، والأحزاب السياسية المتنوعة الاتجاهات إلى حد التناحر، والمتنابزة إلى حد العزلة، فكان هناك «الشيوعي» في مواجهة القومي، والوجودي يقابل الديني، والاشتراكي ينابز البرجوازي والتقدمي يدين الرجعي والقائمة تطول، وبدأت أدرك أسباب تناحر تلك الثنائيات وأتفهمها غالبًا، إلا أن الأمر الذي التبس عندي حينذاك محاولة تبرير تناحر العروبي والإسلامي، لأنني كنت على يقين أن الإسلام هو قوام العروبة وواجهتها. وحين ذكرت ذلك أمام أستاذ علم الاجتماع السياسي، الذي كان شيوعيًا، قال لي: معك الحق كل الحق لأنك نبت قادم من الصحراء، ويعني بذلك أن الكثير من العراقيين ينعتون القادمين من غرب العراق ببدو العراق. هكذا كان عهد الرئيس العراقي الأسبق عبدالرحمن عارف الذي أزاحه حزب البعث العربي الاشتراكي بانقلاب عسكري في ١٧ تموز ١٩٦٨م ليتحول التنوع السياسي الحر إلى اتجاه واحد وحزب واحد أدخل العراق في ويلات ما زلنا ندفع ثمنها حتى الآن. منذ تلك الأيام بدأت رحلتي مع الشقاء وقد ارتبطت عندي بالموقف السياسي والعمل السياسي ودفعتني عام ١٩٨٦م إلى



حزب البعث الاشتراكي كتب السطور الأولى لحكاية المنفى .

في عقد التسعينيات انكفأ العراق على نفسه مجسدًا حالة الانحطاط حينما تمحور حول البحث عن لقمة العيش .

النفط إما للتعمير وإما للتدمير .. وحكام العراق استخدموه لحرق البلاد .

«شطارة» اليهود يقابلها خيبة العرب في توظيف ما يصنعونه من أحداث .

صانع القرار العراقي يتقمص الشخصية التي يتوهم بأنها له فتأتي قراراته إما نزوة أو خيبة أمل وما أكثرها!

المنفى.

❖ تباطؤ خطى التغيير العراقي.. هل للنفط دور في ذلك؟

التغيير غالبًا ما يقترن لدى بعض الناس بأنه ضرورة إيجابية تنقل المجتمعات من مرحلة إلى أخرى أفضل من سابقتها، وواقع الحال هناك تغيير حميد وآخر دون ذلك، أي هناك تغيير إيجابي ينتج عنه الكثير من الخير والتطور والنماء، وفي المقابل هناك تغيير سلبي أو تراجعي. والعراق عانى نتائج التغيير غير الحميد لعدة عقود جراء ما كان يسمى بالتغيير الثوري عبر قرارات سياسية لا تلامس حاجات الناس ومستلزمات المجتمع، فكان العراق في عقد السبعينيات يؤسس للتحول الاشتراكي، إلا أنه تحول بقرار سياسي في عقد الثمانينيات إلى تجربة حرية السوق والقطاع الخاص، وفي عقد التسعينيات انكفأ العراق على نفسة مجسدًا حالة الانحطاط حينما تمحور حول البحث عن لقمة العيش. هل للنفط دور في كل ذلك؟ يبدو أن النفط سيف ذو حدين إما أن يكون للتعمير وإما للتدمير، وحكام العراق استخدموا النفط لحرق البلاد واضطهاد العباد، ولولا ثروة النفط لما اتسعت الجيوش وقامت الحروب واستبد المستبدون.

❖ على مر هذا التاريخ المتقلب للعراق، كيف كانت صفة صانعه في كل مراحل؟

وهل هناك قرار عراقي لكي نتحرى صفات الصانع. يأخذني هذا الاستهلال إلى أيام دراستي لنيل درجة الدكتوراه في بريطانيا ويذكرني بأستاذ «علم الشخصية» الذي كان يردد دائمًا «أن لكل إنسان ثلاث شخصيات: تلك التي يعرفها، وتلك التي هو عليها، وتلك التي يتوهم بأنها له». وصانع القرار العراقي دائمًا يتقمص الشخصية التي يتوهم بأنها له، فتأتي قراراته إما نزوة وإما خيبة أمل وما أكثرها.

❖ في المرحلة القادمة، من بوادر المخاض السياسي الذي يعيشه العراق الآن مما تخشى عليه؟

يجد المتمعن في تاريخ العراق، منذ أكثر من أربعة آلاف سنة وحتى اليوم أن هناك منطقًا خاصًا يتحكم بسياقات هذا التاريخ وبخطوطه العريضة، وأن هذا المنطق تمثله دورة تتعاقب فيها حالتا وحدة الإقليم وتجزئته. فوحدة العراق تتحقق عبر سلطة مركزية تنبع من الداخل، أو تأتي من الخارج بفعل قوة قاهرة غازية، تضمه ربما إلى وحدة أكبر. وتتحقق التجزئة عند ضعف السلطة المركزية وانحلالها أو عجزها عن مقاومة قوة خارجية تحمل مشروع تجزئة وليس وحدة، أو قوة داخلية تأتي من موقع متمرد في الداخل. كان الأمر الأخير في العراق القديم يتمثل عمومًا بخروج الشمال على الجنوب أو الجنوب على الشمال، أو خروج الشمال والجنوب معًا على الوسط في العهد الإسلامي وبناء بغداد وجعلها حاضرة العراق. ومـــا أخشاه على العراق في القادمات من الأيام أن يكرر التاريخ نفسه في هذا البلد المسكون أبدًا بعبق التاريخ وهواجسه، ولا أقصد تكرار التفاصيل ولكن الملامح العامة.

❖ رفع رايات بلاد الرافدين مهد الحضارة الإنسانية الأولى بيد من من وجهة نظرك؟

أرجو أن تكون لبلد الرافدين راية وليس رايات، ويبدو أن العراق الجديد كما يسمونه الساسة الجدد في بلاد الرافدين، ما هو إلا عراق الرايات المتعددة والمختلفة والمتناحرة. لم تعد المعضلة في بلد الرافدين اليوم في نوع الخيار الأيديولوجي، كأن تكون قوميًا أو إسلاميًا، ماركسيًا أو برجوازيًا، علمانيًا أو سلفيًا، تقدميًا أو رجعيًا، ثوريًا أو محافظًا، إنها فيما أعمق من ذلك، ألا وهو إلى أي من العصبيات الضارة تنتمي، وفي أي منها تتخندق،القبيلة، أم المنطقة، أم الطائفة؟ لماذا ضاقت الخيارات على هذا النحو في بلاد الرافدين الرحبة التي كانت قادرة على استيعاب كل العصبيات، تحت راية العراق الواحد المنسجم؟ ولماذا تعددت الرايات وتنوعت المقاصد وضعفت إرادت الوطن واضمحلت روح المواطنة؟

❖ لكن إحدى الحقائق الهامة أن الزمان يغلب المكان في تحديد هوية الإنسان؟

الزمان يغلب المكان في تحديد مصير الإنسان وقدرته، أما هوية الإنسان ذات الوجوه الاجتماعية والحضارية والسياسية حتى الدينية، فغالبًا ما يرسم ملامحها المكان في إطار الزمان، هذا البعد الأزلي واللامتناهي وغير المدرك إلا عبر الظواهر، وعبثًا جاءت محاولات بعض فلاسفة وعلماء القرن الفائت لدمج البعدين ليصبح «الزمكان» بعدًا يفسر الأزل. وفي المقابل ذهب بعض علماء «البارسيكولوجي» أو علم الخارقية أو اللامرئي أو ماوراء الطبيعة، إلى أن كل

هذا هو الفرق بين الانفتاح والاجتياح . أرجو أن تكون لبلد الرافدين «راية» وليس «رايات» .

ما أحوجنا إلى فهم سنن التداول الحضاري .


سعدون الدليمي

شيء قائم في أحشاء الزمن منذ الأزل، وما نحن إلا مسافرون في قطار الزمن الذي يمر بنا في محطات الأحداث الكبرى والصغرى، فكل شيء من وجهة نظرهم مرسوم وقائم، وعبثًا يحاول الإنسان سبر أغوار الزمن.

*** المتأمل لحالنا عبر التاريخ .. يجد المسلمين «أمية» سياسية.**

هذه الفرضية التأملية تنطوي على الكثير من الإجحاف إذا ما وضعناها في ميزان سنن الدورة الحضارية للحياة. المسلمون أجادوا فن لعبة السياسية لقرون حتى انحدرت دورتهم الحضارية. وهذه هي عدالة السماء وحال الدنيا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى لم يخص برحمته أو عدالته أمة دون أخرى. وهذا ما سماه بعض المفكرين الإسلاميين بسنن التداول الحضاري، وما أحوجنا اليوم لفهم تلك السنن التي يمكن أن تجنبنا الكثير من الشرور المحيقة بنا. إن ذلك لا يعفينا من الإشارة إلى أن بعض الظروف الموضوعية والذاتية أتت بمن لا أهلية سياسية لهم فمارسوا العمل السياسي وهم يحسبون أنهم يصنعون المجد لأنفسهم ولمجتمعاتهم، فإذا بهم لا يحصدون غير الخيبة لأشخاصهم ولا يخلفون غير الكوارث لمجتمعاتهم، وحق عليهم القول إنهم أميون سياسيًا.

*** توظيف الأحداث لخدمة القضايا، صناعة يهودية محترفة؟**

ولماذا لا نقول شطارة يهودية، فالذي لا يصنع الأحداث بل يوظف ما يصنعه الآخرون من أحداث لصالحه، ماذا نقول عنه؟ بالتأكيد هو ذلك الشاطر الذي يبحث عن كل ما يخدم قضاياه. والويل كل الويل للأمم التي لا تصنع الأحداث ولا تدرك كيفية أو أهمية توظيفها، ترضى أن تعيش دائمًا على هامش الأحداث باستكانة الضحية التي لا تجيد الاستغاثة.

*** الانفتاح على الآخر.. هاجس يحلم به العراق.**

الانفتاح على الآخر هاجسنا جميعًا كمجتمعات عربية إسلامية لأننا لم نضعه ضمن إطار ضرورات التبادل الحضاري والإنساني، إنما ضمن التصورات المسبقة لنوايا الآخر، الأمر الذي قادنا إلى حالة من الانغلاق والتعصب وعدم التسامح، حتى مع بعضنا بعضًا. أما بخصوص العراق فهاجسه مختلف تمامًا لأنه لم ينفتح على الآخر طواعية، بل إن الآخر فتح أبوابه بالقوة فتحول الانفتاح إلى اجتياح.

*** الانفتاح على الآخر يلزمه نوافذ ترفضها الجمارك «القومية»..**

من الآخر؟ هل هو من يختلف عني وعنك في اللغة أو الدين أو العرق أو الجنس أو اللون، أم هو الفرد الذي يختلف عني وعنك في نمط الحياة أو التفكير والسلوك. مشكلة بعضنا أنهم يتعجبون أو يمتعضون حين يرون غيرهم يختلف عنهم في بعض أنماط الحياة ومظاهر السلوك والتفكير. إنهم لا يدرون أن غيرهم قد يتعجبون منهم أو ربما يمتعضون كذلك، وهذه هي نسبية القيم كما يطلق. يقول علماء الاجتماع إن الآخر الذي نعنيه ما عاد بحاجة إلى إذن دخول أو تأشيرة جمارك في عالم باتت فيه تداول الأفكار أسهل بكثير من تداول السلع. إذًا دعونا نفتح النوافذ لعل تيار الهواء ينعش أروحنا الذابلة. ولنتأمل جيدًا في المثل الياباني الذي يقول «كل العالم عجيب إلا أنا وأنت ، وحتى أنت أكثر مني عجبًا».

*** المنطقة تغلي.. وبوش يداعب كلبه.**

نعم، كان يداعب كلبه والمنطقة إما تغلي وإما تحترق، ولسان حاله يقول «كل على همه سرى..وأنا

سقط صدام لأنه نفسه سولت له أكل لحم أخيه يومًا ما .

٢٠٠ دولار أمريكي تعويض لمن يُقتل خطأ من المدنيين العراقيين .

على همي سريت».

❖ من ينشد للزهور وشوارعه مليئة بالدم! «شاعر عراقي».

أخبرني أحد الأطباء الاختصاصين بالأمراض الباطنية في العراق، أن نسبة العراقيين الذين يعانون أمراض القولون والجهاز الهضمي أعلى نسبة في العالم، وحاول جاهدًا تعليل ذلك طبيًا ابتداء من الوراثة وانتهاء بسوء التغذية والخدمات الطبية. ونحن الذين لا نستهين بدور العوامل النفسية في ذلك، نرى أن العراقي الذي أنهكته الأحداث وجافته دموعه وبات الحزن رفيقه الدائم، ينطبق عليه قول عالم النفس «هنري مودزلي» «إن الحزن الذي لا يجد له منفذًا في الدموع، قد يجعل الأحشاء تبكي».

❖ أين يمكنك رؤية العراق، في ظل حاضر محبط.. ومستقبل مظلم.. وماض أليم؟

العراق بلد أنهكته عوامل التعبئة حتى اختصرت لديه الكثير من المفاهيم وتحولت الحرية لديه من عالم واسع رحب إلى مجرد وسائل لاتقاء شر السلطة وظلم الحكام المتسلطين. وهكذا وعبر مراحل التاريخ كانت علة العراق تكمن في حكامه، وكانوا إما مجد العراق وإما عاره. ومن هنا فللحكام الجدد في العراق أود القول إن لم يكن ما جرى لصدام ونظامه عبرة لكم، فتوقفوا قليلاً عند الذي كان يردده نابليون: «ليعطينا الله المجد، وليمنع عنا راحة البال» حتى مات كسيرًا معزولاً يسأل الله راحة البال ويلعن المجد الواهم إلى الأبد.

❖ العربي بين أمرين: إما أن يكون ذئبًا أو أرنبًا!

أن يكون العربي أرنبًا طليقًا في البراري خير له من كونه أسدًا سجينًا في شباك الصيادين أو حديقة الحيوان.

❖ مقولة رددها العراقيون كثيرًا: أمريكا أخف الضررين!

تصاعدت مقولة أخف الضررين، إلى أهون الشرين، ومن ثم إلى شر لا بد منه. وهناك بعض العراقيين ما زال مصرًا على أن صدام ونظامه رغم كل ما جرى أفضل من الاحتلال الأمريكي. وينطبق عليهم المثل القائل «إذا أردت تجميل القبيح قارنه بمن هو أقبح منه».

❖ أحمد سعيد، محمد سعيد الصحاف، طارق عزيز.

نذكر هذه الأسماء لأننا عايشناها إلا أن تاريخنا يحتفظ بالمئات من تلك النماذج، هي بالمناسبة ليست حكرًا على العرب والمسلمين فلكل أمة سعيدها وصحافها، ويقول علماء التاريخ والاجتماع إن مثل تلك النماذج في التاريخ البشري تعكس مراحل الانحطاط والمكابرة للأمم والشعوب في آن واحد. وغالبًا ما تعتمد تلك النماذج في ترويج مزاعمها على ما يمكن أن نسميه «منهج الحماس الجمعي»، معتمدين على القاعدة التي تقول «إن حماس الجماهير هو وقود التاريخ». هذا الحماس كأي شيء في الوجود له محاسنه ومساوئه، فهو من جهة يثير الناس ويبث فيهم نزعة الفداء والتضحية، ولكنه من الجهة الأخرى يحجب عنهم الحكمة ودقة النظر والموضوعية. إن القائد المتحمس فقط قد يدفع جنوده نحو الهزيمة المحتومة وهو يحسب أنه سائر بهم نحو النصر الأكيد. ما أحوجنا في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا إلى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا، فليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس وليس من الحكمة ألا ندرك أهمية الموضوعية.

❖ الكثيرون شعروا بالصدمة مع الانهيار المفاجئ لنظام صدام.

سقط صدام حينما سولت له نفسه أكل لحم أخيه العربي المسلم الجار في الكويت، وفتح الباب لتدخلات متنوعة في المنطقة لن تنتهي آثارها في المدى المنظور. سقط صدام حينما استسهل سفك دم العراقيين

ودفنهم أحياء. سقط صدام حينما ضحك منتشيًا وهو يطلق كلاب مسعورة وجائعة لتفترس رجالاً عراة من المقربين منه، تجرؤوا وقالوا له علينا أن نقف ونتأمل في الدمار الذي حل في العراق. مثلما كان هناك من شعر بالصدمة للانهيار السريع والمفاجئ لنظام صدام فهناك من توقع سرعة الانهيار ونحن منهم، ولم نكن نبني توقعاتنا على أسس قوانين الصراع الدولي والإقليمي فقط كما هو معروف ومتداول، إنما الانهيار كان نتيجة حتمية لأداء سياسي أفرزته قيم ومعتقدات سياسية وأخلاقية تبناها صدام لسنوات كانت أحرى بالمعاينة والتمحيص.

❖ أوقاتنا وأعمالنا تهدر في تصنيف بعضنا بعضًا!

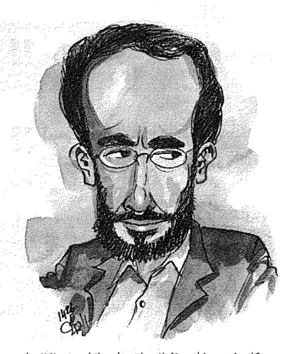
ما أحوجنا إلى التمعن جيدًا في القول المأثور: «رحم الله امرأ شغله عيبه عن النظر إلى عيوب غيره».

❖ انتشار الفكر الإرهابي في العالم انعكاس لهشاشة الأيدولوجيات السائدة!

قيل قديمًا حياتك من صنع أفكارك. فإذا آمن المرء بقوة بفكرة ما، فإن بإمكانه أن يكون مستودعًا للخير أو الشر، طبقًا لما تعنيه تلك الفكرة، وقد يخضع لها في حياته العامة والخاصة فيكون أشبه بالمنوم مغناطيسيًا، وقد أطلق بعض علماء الاجتماع على ذلك «بالتنويم الاجتماعي» فالمجتمع يسلط على الإنسان منذ طفولته الباكرة مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية وهو بذلك يضع تفكير الإنسان في قوالب يصعب الخروج منها. وبهذا يكون الإنسان ضحية لأفكاره سواء كان يعلم أو لا يعلم. ومثلما أن القلة من الناس يمكن أن تنوم مغناطيسيًا كذلك قلة من الناس تنوم اجتماعيًا بشكل مطلق. مهما يكن فالسلاح الأمضى لمواجهة ومحاصرة الفكر الإرهابي هو نبذ التعصب وإشاعة ثقافة التسامح. وهي قضية لا تقبل التأجيل، سواء على المستوى التشريعي، أو السياسات والبرامج التعليمية التي ينبغي أن تعزز نبذ التعصب وإشاعة التسامح بين الأفراد وكذلك بين الجماعات الإثنية والاجتماعية والدينية. أن تكون ثقافة التسامح ظاهرة حضارية نساهم جميعًا في إشاعتها وممارستها، فبدون التسامح لا قيمة للانفتاح على الآخر ولا مكان للتعايش.

❖ حرب الخليج الثالثة، الدم «أرخص» من النفط.

سعدون الدليمي



كل شيء غال في العراق باستثناء دم الإنسان، وقد جسد الأمريكان ذلك في محاولتهم لدفع ٢٠٠ دولار أمريكي كتعويض لمن يقتل خطأ من المدنين العراقيين على يد الجنود الأمريكان، ولا أدري ماذا يقصدون بالمدنيين وهل ما زال هناك عساكر في العراق غيرهم؟ وحينما رفض العراقيون استلام المبلغ، تحول الضحايا إلى إرهابين ورفض الأمريكان دفع الدية. ولنا أن نتأمل فقط: في مبلغ ٢٠٠ دولار كتعويض للضحية العراقي مقابل ٢٠٠ مليون دولار كتعويض لكل ضحية أمريكي من ضحايا طائرة لوكربي.. آه.. ما أرخص دمك أيها العراقي! وما أهونك على جلاديك.

❖ تخوض الولايات المتحدة الحرب العالمية الرابعة ضد ثلاثة أعداء، القادة الدينيين في إيران، والفاشيين في العراق وسوريا، وكذلك المتطرفون الإسلاميون من القاعدة.

الولايات المتحدة كغيرها من الدول الكبرى في التاريخ، تعمل جاهدة على إيجاد مبررات تريدها تبدو منطقية للتوسع والانتشار أو دعنا نقل الاستعمار. تلك المبررات تبدأ بتحديد أعداء خطرين على الأرض، وليس لها الخيرة إلا أن تعد العدة لمواجهتهم بغض النظر عن قوتهم أو ضعفهم، وغالبًا ما يتم الربط بين المبررات الأخلاقية وأعدائها المفترضين، وما يزيد الأمريكان غبطة هو أن يقوم أعداؤها المفترضون بالاستجابة لها وهذا يعني تأكيد وتسويق مبرراتها.

عراق «الجواهري» لم يولد بعد.

نسبة العراقيين الذين يعانون أمراض القولون والجهاز الهضمي أعلى نسبة في العالم.

❖ إنهم يراهنون فيما بينهم أيهم يبدأ بالقتل، ومن منهم يقتل أكبر عدد من العراقيين.

ولكن كيف أستطيع أن أفسر، كيف أستطيع أن أفسر لكم؟ ستفهمون الأقل بعد تفسيرها. وكل ما يمكن إفهامه لكم، هو الحوادث فقط، وليس ما حدث. والناس الذين لم يحدث لهم شيء أبدًا لا يستطيعون فهم عدم أهمية الحوادث... للشاعر «ت. س. إليوت». «من لقاء العائلة». وهكذا، من العصي جدًا أن أنقل لكم ما حدث ويحدث في العراق اليوم، فالذي يرى غير الذي يسمع.

❖ لعل روح الجواهري تحلق الآن على تخوم النجف والبصرة وكربلاء والفلوجة وبغداد ترى وتشاهد وتتأمل وتبكي عراق الشعر والحضارة.. كما نبكيه!

الجواهري الذي مات وهو يحيي دجلة عن بعد:

يا دجلة الخير يا أم البساتين

حييت سفحك عن بعد فحييني

كانت روحه دائمًا تحلق في العراق وقلبه يهفو إليه، وكان يدرك جيدًا أن علة العراق في حكامه، وقد تحداهم بحزم منذ عشرينيات القرن الفائت في قوله:

أنا حتفكم ألج البيوت عليكم

أغري الوليد بشتمكم والحاجبا

نعم، لعل روح الجواهري تحلق الآن على العراق وتقول له، نم أيها الجواهري فباطن الأرض خير لك من أن ترى دم العراقيين يختلط بمياه المجاري الآسنة في شوارع بغداد، نم أيها الجواهري: فمستشار إنجليزي لكل وزير عراقي- في عهد استعمرت فيه معظم الشعوب - أشاطك غضبًا، فماذا تقول في عصر التحرر وعن شمال ويمين كل وزير عراقي مستشاران أمريكيان. نم أيها الجواهري: فالعراق الذي حلمت به وكتبت لأجله الشعر لم يولد بعد.

❖ الحرية والتنظيم.. سر القوة الأمريكية.

إذا كان لكل قوة أسرارها، فسر القوة الأمريكية يكمن في كل ما يتعلق بتكوين العقل الناقد، ذلك العقل المتحرر من القيود والمنطلق نحو كل فضاءات الدنيا للبحث والتقصي، العقل المرتب،المنظم الذي يدرك غاياته بوضوح ويرسم أهدافه بدراية، وهو امتداد لرؤيا تنظيمية لا تستثني شيئًا، تقدس الإبداع في أي مجال وتحترم العمل أيًا كان. أمريكا سواء اتفقنا معها أو دون ذلك أرض الفرص والأحلام وموئل المبدعين بغض النظر عن أديانهم وأعراقهم وألوانهم، ويبدو ذلك سر قوتها الأساس.

❖ سنوات المنفى.. ضريبة دفعتها لأي شيء؟

للمنفى مرارة لا تضاهيها إلا مرارة الشعور بأن بلدك أصبح كله منفى. ثمانية عشر عامًا في منافي الدنيا الواسعة، بعد أن رفضنا أن نكون سيفًا بيد الجلاد أو بوقًا بيد الظالم. ثمانية عشر عامًا كغيري من العراقيين الذين اختاروا المنافي وهم يحملون قضية الوطن في حنايا الصدور سعيًا نحو إعادة أسس الحياة الحرة الكريمة إلى العراق. لقد عدنا إلى العراق ولمسنا بكل ألم كيف تنكر بعض من كان معنا في المنافي من السياسين إلى الكثير مما كافحنا وعانينا من أجله. كان وقع ذلك علينا أقسى من كل مرارات المنافي.

❖ حلمنا الوردي بالقرن الواحد والعشرين هل استحال كابوسًا؟

كوابيسنا نتاج أحلامنا وأحلامنا نتاج أفكارنا. ولكي لا نكون مجرد حالمين في عالم يرسم أحلامه كما يشاء، ويدرك تحقيق حاجاته بدقة علينا أن نتأمل أنفسنا جيدًا ونعيد النظر فيها، قبل أن ينهكنا الحماس في إعادة النظر بالعالم، وإن لم نساهم في صنع أحلامنا فسنعاني أبدًا بشاعة الكوابيس.

سعدون الدليمي

الأسبوعية

الآن

اشترك - اشتركي
واحصلوا على إحدى هذه الهدايا

العرض ساري حتى نفاذ الكمية

مجلة أسبوعية شاملة

تطل عليكم كل ثلاثاء



للإعلانات والاشتراكات
الرجاء الاتصال - الرياض
هاتف ٤٧٢٧٧٩٢ - ٤٧٤٣٩١٣
فاكس ٤٧٢٧٨١٨
يمكنكم زيارة موقع المجلة الآن

أحياناً المشاعر الكبيرة لا تحتاج إلا إلى عبارات صغيرة، كما أن بعض الأفكار الكثيرة تحتاج إلى كلمات قليلة للتعبير عنها.
هذه هي لغة السر في سر اللغة!
«ثرثرة» ..لا يقصد بها دوماً كثرة الكلام، بل قد تعني الكلام الذي يُلقى على عواهنه.. بكل بساطة.
هكذا «ثرثرة» هنا، كلام يلقى على عواهنه.. فخذوه أنتم أيضًا على عواهنه.. بكل رحابة صدر.



مسح الغبار عن.. الأحذية!!

ناصر محمد العمري - المخواة

في غرفة الجلوس يجتمع أربعة من الشباب أمام تلفزيون يتعالى منه صوت معلق رياضي، وفي يسار الغرفة جهاز حاسب آلي يعمل عليه أحد الشباب والبقية يشاهدون مباراة مسجلة بالفيديو ما عدا واحدًا يتصفح جريدة وإلى جانبه كتابان.

من مباراة البرازيل والأرجنتين (كأس العالم ١٩٨٢م في إسبانيا) يتعالى صوت أكرم صالح «قذيفة قوية من قدم الفيلسوف سقراط تسكن الزاوية التسعين لحارس المرمى الأرجنتيني بامبيدو ولا حول ولا قوة له أمام هذه القذيفة المدوية... وفيه لاعب عم بيسخن من الأرجنتين... الدكتور بيلاردو يفكر بالتغيير لعله يلحق بنتيجة المباراة».

ـ سليمان: بينما كان العرب فرحين بطرد الكيان الصهيوني خلال هذه البطولة من الفيفا وفيلسوف الكرة ورفاقه يمتعون العالم بالعزف الكروي، كان شارون يدوس ببسطاره على كرامة الأمة المليئة باللاعبين والشعراء الذين نددوا بمشاركة إسرائيل في الفيفا. اللاعبون طالبوا بطرد الكيان الصهيوني منه، وتحقق لهم نصر وهمي لأن شارون غافلهم واستغل انشغال العالم بمتابعة نجوم السامبا وأهداف «باولو روسي» التي تمطر شباك الخصم، ومارس لعبته القذرة وغزا دولة بكاملها واحتل عاصمتها وعلى طريقة «روسي» كان يمطر لبنان بالقصف اليومي، وحرمنا نحن من مشاهدة حكم هذه المباراة لكون الحكم من إسرائيل!!

ـ محمد: ليس غريبًا أن يستغل شارون انشغال العيون الساهرة بالكرة ويغافل بسطار اللاعبين ليمارس قذارته فلكل شخص نهجه الذي اعتاده.

ـ عبدالرحيم: انظر إلى حذاء «جورزينهو» الأسمر يبدو أحمر!!

ـ عبدالله (من خلف جهاز الحاسب يستدير بكرسيه ليواجه المجموعة): على ذكر الأحذية البارحة قرأت في أحد مواقع الإنترنت خبرًا طريفًا يقول «إن أحد مصممي الأزياء عرض حذاء نسائيًا

صنع من الجواهر الثمينة بلغت قيمته ما يساوي المليون دولار»!!

ـ عبدالرحمن: وأين هو هذا الحذاء؟! ومن سيشتريه بهذا المبلغ الضخم؟!

ـ عبدالله: الحذاء معروض في متاجر (هاردوز) لصاحبه محمد الفايد والد «دودي» بانتظار حسناء جميلة وصديق متيم بجيوب مليئة بالثراء قادرة على شراء ذلك الحذاء الفاخر.

ـ عبدالرحيم (بدهشة): ولكنه حذاء؟!

ـ سليمان: وماذا يعني أنه حذاء؟!

ـ عبدالله: الحذاء مرتبط بالدلالات المذلة ومجرد نطقها يجبر الناطق على أن يردفها بـ«أعزكم الله» ومرتبط بالأقدام التي تختلط بدلالات الأسفل فيقولون:«فلان لا يساوي حذاء أو «هو حذاء». ومهنة إصلاحها تعد من أدنى المهن إلى الحد الذي يجعل من بلد كالجزائر مثلاً تمنع ممارسة هذه المهنة بداعي أنها لا تليق ببلد المليون شهيد».

ـ سليمان: بما أن إصلاحها أمر مذل فإن الإسراف في اقتنائها يجلب الشقاء ويؤدي إلى المهالك.

ـ عبدالله: ومن قال لك ذلك يا ذكي؟ ليت لي كمية وافرة منها ولن تجلب لي إلا السعادة بعد بيعها.

ـ سليمان: «إيميلدا ماركوس» وأحذيتها الألف والمائتين التي جمعتها أيام فترة حكم زوجها الرئيس الفلبيني «فرديناند ماركوس» جرت وبالاً عليها من عامة الشعب وزادت من غضبهم على العائلة الحاكمة وأدت إلى إزاحة العائلة من الحكم.

ـ عبدالله: ذكرتني بغوار الطوشة (دريد لحام) وقصة شجرة الدر تحت ضرب القباقب لأنها استأثرت بالسلطة وتآمرت على زوجها (عزالدين أيبك) ما دفع زوجته الأولى لأن تثأر له بطريقة مبتكرة.

ـ محمد: شقاء الرجال بالأحذية لا يختلف عن شقاء النساء بها، فحنين هذا الإسكافي من أهالي الحيرة، احتال على أعرابي حين أغاظه فسرق ناقته مقابل حذاء، وعاد الأعرابي «بخفى حنين»!!

ـ عبدالله: أحد المواقع بالإنترنت يقول: «إن المهاجرين العرب في فنزويلا يعرضون لزبائنهم فردة حذاء يطلبها المشتري فيعطيه التاجر بسعر زهيد وعندما يطلب الحذاء الأخرى يدفع أضعاف الثمن حتى يدبر له البائع الفردة الأخرى»!!

ـ سليمان (ضاحكًا بصوت عال): معلوماتك الإنترنتية حديثة، ما أطول عمرك يا حنين!!

ـ عبدالله: لقد مات حنين منذ زمن بعيد.

ـ سليمان: لا حنين لم يمت، فهو حي في هذا المثل السائر الذي لا ننفك عن ترديده، والشاعر يقول: «الذكر للإنسان عمر ثان» وحي أيضًا في طريقة بيع أحفاده في فنزويلا.

ـ محمد: وأبوالقاسم الطنبوري لم يمت أيضًا.

ـ عبدالرحمن: يا لتقعركم هذا وفلسفتكم واستعراضكم كل لحظة وأخرى تأتون باسم جديد وقصة جديدة لم أسمع عنها من قبل! أشك أنكم تذكرون أسماء وهمية وقصصًا مختلقة.

ـ محمد لا يا عبدالرحمن، إن كنت تسأل عن أبي القاسم الطنبوري فهو الوفي المثالي لحذائه البالي وهو الذي آلى على نفسه ألا يلقي به فكان يرقعه

ويزيده ترقيعًا إلى أن اشتهر. وعندما أراد التخلص منه لاحقته لعنة الحذاء وكلما وقع حادث بجانبه نسب الحادث إلى صاحب الحذاء المشهور المشؤوم.

- سليمان: ليست الأقدام تبحث عن أحذية دائمًا، بل أحيانًا الأحذية تبحث عن أقدام.

- محمد: كيف تبحث الأحذية عن قدم تلبسها؟ هل سبق أن رأيت أو قرأت عن حذاء يطرق الأبواب ليعلن عن نفسه ؟!

- سليمان: نعم فقصة المسكينة «سندريلا» المشهورة التي ابتسم لها الحظ حين أعجبت الأمير لكنها اختفت فجأة تاركة حذاءها، وهذا الحذاء هو الذي أعادها إلى حياة الترف والنعيم.

(مجددًا يظهر صوت خالد الحربان وهو يهنئ الإيطاليين على تحقيقهم لكأس العالم ١٩٨٢م بإسبانيا).

- سليمان: أشهر من جعل للأحذية وزنًا وقيمة هم اللاعبون.

- محمد: طبيعي جدًا أن تشتهر الأحذية بسبب اللاعبين لأنهم يسجلون بها أكثر مما يسجلون برؤوسهم، والمعجبون يحفظون أرقام ومقاسات وشكل أحذية لاعبيهم المفضلين. ثم أن حذاء اللاعب



تشرف على تصميمه شركات عملاقة تضمن لهم أحذية تناسب اللعب في أرض معشبة لضمان وتسجيل الأهداف من وضع مثالي.

- سليمان: هذا الاهتمام المنقطع النظير بموهوبي الأقدام أغضب موهوبي الرؤوس ولذلك قال الروائي الإيطالي (ألبرتو مورافيا) عندما استضافت بلاده كأس العالم ١٩٩٠م ورأى بعينه حجم الهوس وقمة الاستعدادات والأموال التي تصرف والحشود الإعلامية والمتابعة الشديدة لعامة الشعب الإيطالي وشعوب العالم: «يبدو أن العالم أصبح يفكر بقدميه بدلاً من رأسه»!!

- محمد: المشي بالمقلوب ظاهرة بدليل أن مفكري هذه الأيام (اللاعبون) يملكون حظوة واسعة في وسائل الإعلام ولا يصل لاعب ما سن البلوغ حتى يكون قد أجرى أكثر من لقاء صحفي، واستضافته أكثر من قناة فضائية وزار أكثر من بلد كممثل رسمي لبلاده، وهزة أو هزتان لشبكة مرمى في دوري الدرجة الثانية تجلب مالاً وفيرًا يعادل ما يقبضه مؤلف هذا الكتاب الذي بين يديك أضعافًا مضاعفة!!

- سليمان: لكل زمان أدوات تفكيره الخاصة به وعبدالرحيم يقول: «إن للحذاء دلالات مذلة» وهو بعيد بقوله هذا عن واقعنا، بل كأنه لا يعيش معنا وهو يرى البارحة زين الدين زيدان الفرنسي من أصل جزائري يقبل حذاء ذهبيًا خصص كمكافأة لمثله من اللاعبين المهرة. وزيدان مليء بالفرح والسعادة وهو يقبل حذاء، مجرد مهنة إصلاحه في بلده الأم ممنوعة!!

- عبدالرحمن: مفكرو الرؤوس رفضوا مجرد مسح الغبار عن حذاء على لسان نزار قباني عندما قال: «لأنني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة/ يشتمني الأقزام والسماسرة».

- محمد: يا سيدي لو كان هناك حذاء ذهبي أو فضي أو حتى برونزي لموهوبي الفكر كجائزة لمسحه نزار وغيره وقبلوه ووضعوه في خزينة فارهة في مجالسهم.

يرن هاتف سليمان (الجوال) يرد على الهاتف: «ألو نعم» على الطرف الآخر صوت زوجته تستدعيه لإيصالها المنزل، فقد صارت الساعة الخامسة صباحًا وقد انتهت زوجته توًا من حفلة عرس كانت مدعوة لها. وحينها ينفض السامر ويغلق الستار. ■



المعرفة

المجلة «الثانية» في العالم العربي



زياد الدريس
ziadd101@almarefah.com

«معركة» التسامح!

لا يوجد سبب جذري يمنع الناس من «التسامح» مثل خوفهم من أن يفسر تسامحهم بأنه «ضعف»!

إذا اتفقنا على ذلك، فإن أهم وسيلة لإشاعة استخدام التسامح بين الناس، هو إقناعهم بأن: التسامح قوة.. وليس ضعفًا.

حسنًا.. كيف يكون التسامح قوة؟

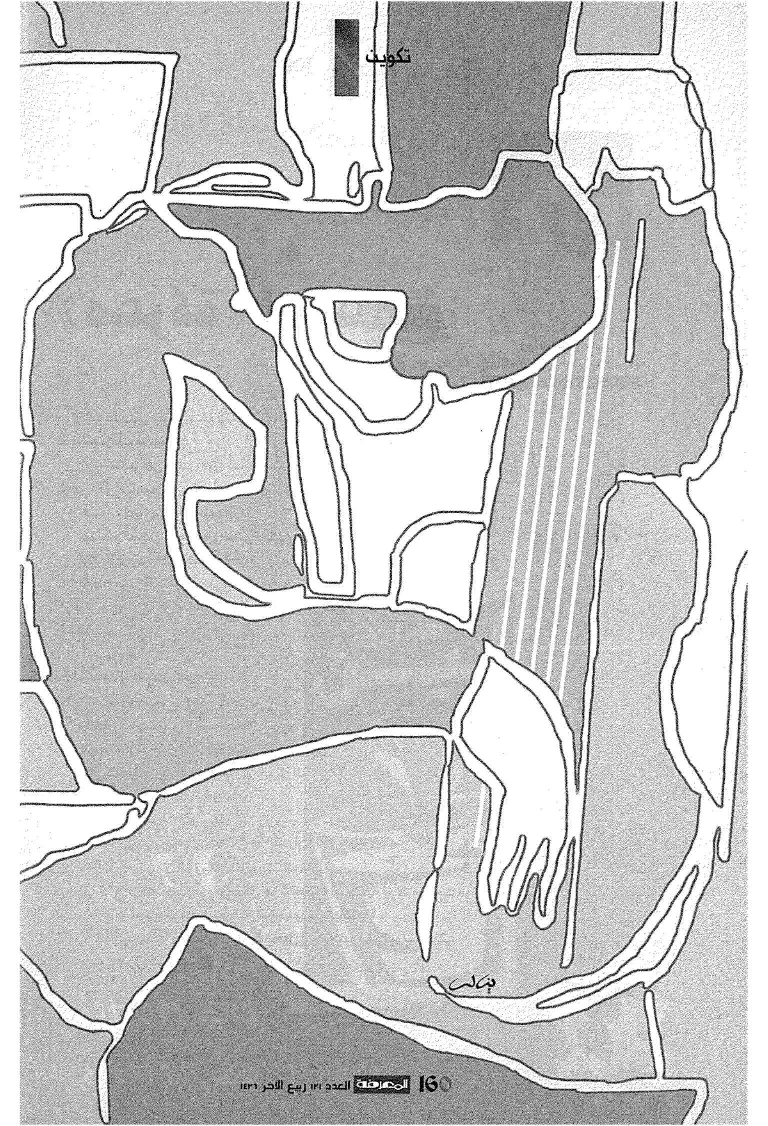
هذا هو السؤال.. وهذه هي العقدة التي يمكن أن نسوّق بها التسامح.

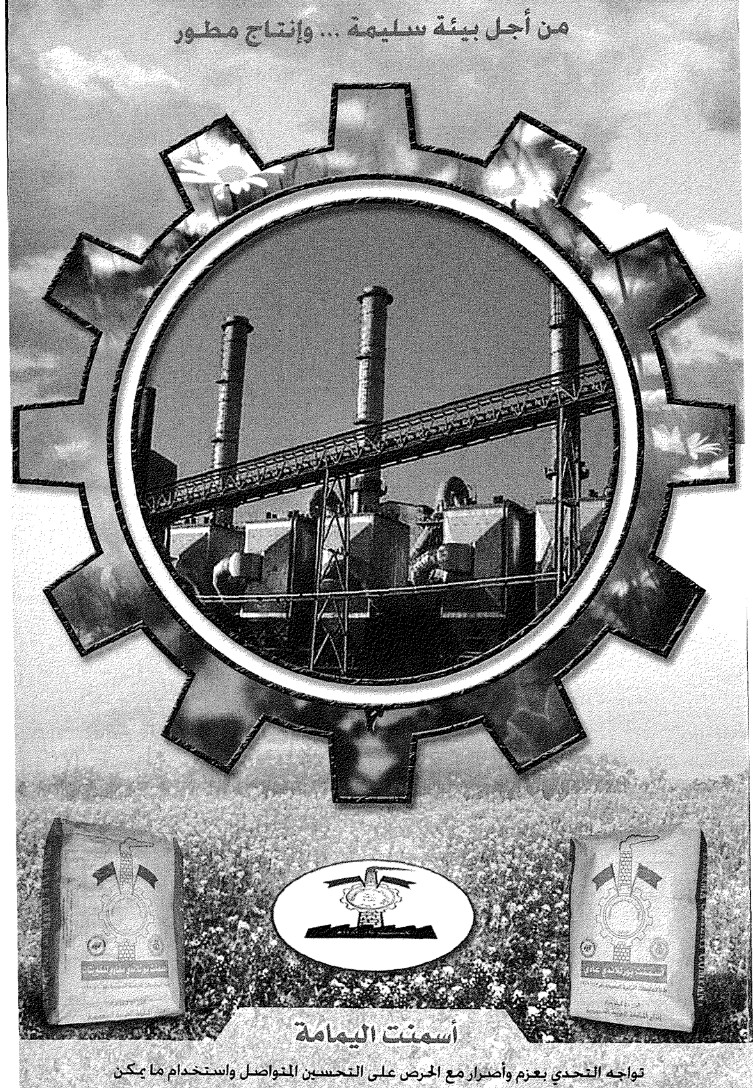
عندما ندرك أن «التسامح» أشد إيلامًا وأثقل على النفس والعقل من «الانتقام»، عندها سنعرف ويعرف الآخرون- ومنهم الخصوم والأعداء- أننا في دخولنا «معركة» التسامح أقوى وأشد وأجبر وأشجع من دخولنا معركة الانتقام.

التسامح هو تنازل عن حق..
والانتقام هو أخذ الحق.
التسامح هو تناسي السوءات..
والانتقام هو تناسي الحسنات.
التسامح يأتي من العقل الأمامي والقلب الخلفي..
والانتقام يأتي من القلب الأمامي والعقل الخلفي.
التسامح لا يسلبك كل حقوقك..
والانتقام لا يمنحك كل حقوقك.
التسامح يأتي من الشق الملائكي في الإنسان..
والانتقام يأتي من الشق الشيطاني في الإنسان!

إذا أراد كل واحد منا أن يعرف هل هو شخصية تسامحية أم لا، فليبحث أيهما أقوى في نفسه الصورة الملائكية أم الصورة الشيطانية؟

أخي الإنسان: لا أحد يطلب منك أن تتحول إلى ملاك، لكن الجميع يتمنى ألا تصبح مشروع شيطان!! ■


تكوين


من أجل بيئة سليمة ... وإنتاج مطور
أسمنت اليمامة
تواجه التحدي بعزم وأصرار مع الحرص على التحسين المتواصل واستخدام ما يمكن
الحصول عليه من تقنيات التحكم في الانبعاثات للمحافظة على البيئة.